

ملف العدد:

أم أبيها

رسالة الْهُلُم

إسلامية ثقافية شاملة



٣٤

العدد الرابع والثلاثون - السنة التاسعة - ربيع الثاني ١٤٣٤ هـ - فبراير ٢٠١٣ م

رسالة الْهُلُم

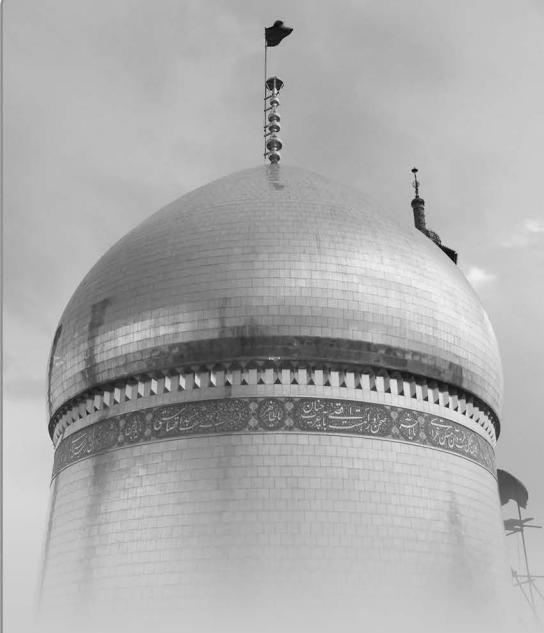
- ◆ كوثر الرسالة.. حوار مع سماحة الشيخ غازي السمّاك حَفَظَهُ اللَّهُ
- ◆ مقام الصديقة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ عند العامة
- ◆ آية الفيء (فدى)
- ◆ فلسفة سكوت علي عَلَيْهَا السَّلَامُ واستنكار الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ
- ◆ حديث لأنورث
- ◆ فضائل فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ
- ◆ الصديقة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ والقرآن الكريم
- ◆ دور الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ في تكامل البشرية

Resalat Alqalam



رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



**فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة**

**برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية**

• **الهيئة الاستشارية:**

الشيخ عبد الله علي الدقاد
الشيخ علي فاضل الصدقي
الشيخ غازي عبد الحسن السماك

• **المشرف العام :**

الشيخ عبد الرؤوف حسن الريبي

• **رئيس التحرير:**

الشيخ محمد علي خاتم

• **مدير التحرير:**

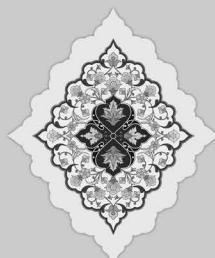
الشيخ حسين فؤاد المرزوق

• **رئيس هيئة التحرير:**

الشيخ عزيز حسن الخضران

هيئة التحرير:

الشيخ حسين علي أبو رويس
الشيخ محمد باقر خليل الشيخ



اقرأ في هذا العدد

٣٤

كلمة العدد

عظيمة دون العشرين

٣

رئيس التحرير

دروار العدد

كوثر الرسالة

٥

حوار مع سماحة الشيخ غازي السمّاك

ملف العدد: أم أبيها

مقام الصديقة الزهراء عليها السلام عند العامة

٢٣

الشيخ عزيز حسن الخضران

آية الفيء (فدرك)

٤٢

الشيخ مهدي عباس البحرياني

فلسفة سكوت علي عليها السلام واستنكار الزهراء عليها السلام

٦٩

الشيخ إبراهيم الأنصاري

حديث لا نورث

١٩

الشيخ محمد علي خاتم

فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام

١٧

الشيخ عقيل إبراهيم المقهوي

الصديقّة الزهراء عليها السلام والقرآن الكريم

١٣٦

الشيخ حسن هلال الزاكى

دور الزهراء عليها السلام في تكامل البشرية

١٤١

الشيخ عبد الرؤوف حسن الربع

بحوث ومقالات أخرى:

مسأّلتان في الأحوال الشخصية

١٧٢

الشيخ علي فاضل الصدّيقي

تعالوا نتوّل المؤمنين فهمًا للقيادة

١٨٥

الشيخ علي أحمد الكربابادي

التظليل

١٩٢

الشيخ محمد علي العربي

عظيمة لذون المتنرين

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم صل على محمد وآل محمد.

لا غرابة إن عاش عظيم من العظاماء مدة مديدة من الزمن ،
وُعرف فيها بتميّزه عن أقرانه في علمه وقدرته وغير ذلك ما يُعد
مائزاً عند العقلاع، وقد يصل إلى درجة يتميّز بها عن أهل عصره
من العظاماء، فيكون الأوحد من بينهم، وتمّ به الدهور ليكتب
عنه وعن فكره وأبداعه وموافقه ليكون مثلاً يحتذى به، ويكون
أنموذجاً أمام الأجيال يسيرون على نهجه.

ولكن الغرابة كل الغرابة أن يعيش فرد عمرًا قصيراً لا يكاد
يخرج به عن عمر الأطفال ويُحدث انعطافاً في التاريخ، ويترك أثراً
في نفوس الناس حتى تؤلّف فيه الكتب والأبحاث والدراسات
المعمقة بشتّى أنواعها ليبقى مخلداً لا في طيّات الكتب
وحسب. بل يبقى مخلداً في حياة النّاس صغيرهم وكبيرهم
يعيشونه في كل مفاصل حياتهم... ولعلّ ما يزيد في الغرابة أنّ
هذا الفرد ليس من جنس الرجال... بل هي امرأة عاشت مسطّرة
كل المفاهيم الراقية في حياة الإنسان، وفي كل جنباته، قد
كتبتها بكل حرص وإخلاص، وكان مدادها أضلاعها، وحبرها
دمها النّازف، وورقها خدّها الطاهر...

وترتفع هذه الغرابة إن علمنا بأنّ هذه العظيمة هي ابنة

أعظم إنسان عرفه الوجود، فعاشت تحت رعايته، فأدبه بأدبها،
وعلّمها علومه حتى أمره الله تعالى أن يزوجها بأمير المؤمنين
عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ليثمر زواجهما درّتين هما سيداً شباب
أهل الجنة الحسن والحسين عليهم السلام.

فاطمة الزهراء .. عظيمة دون العشرين... إلى يومنا هذا تثير
في أقلام الباحثين عن الحقيقة أموراً يستحيل خاوزها وإغفالها
بأيّ دين دانوا، وبأيّ نحلة انتحلوا، وأوّل ماتثيره هذا السؤال، وهو
أنّ عظيمة بهذا الوزن، قربة العهد منا، ولها هذا الأثر البالغ في
الأمة، أين قبرها؟! في خفاء لعنة على أحد، أم أنّ خفاءه قريان
أخير تقدّمه في سبيل إحياء هذه الأمة.

رئيس التحرير

السَّلَامُ لِكَ مَا أَتَيْتَهَا الصِّدْقَةُ الْمُهَبَّةُ

كوثر الرسالة

حوار مع سماحة الشيخ غازي السمّاك^(١) (حفظه الله)

حاوره: الشيخ حسين علي أبو رويس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله أعلم العلماء، وأحكم الحكماء، مَن خشيت
منه قلوب العلماء فخضعت صاغرة لعظمته، وعجزت عن بلوغ كنهه عقول
الحكماء فخررت ساجدة لجلاله، والشكر له شكرًا يزيد ولا يبيده؛ فأنعمه جمّة لا
تقبل الإحصاء، وأفضاله ظاهرة تأبى عن الإغضاء.

وأشرف الصلاة وأزكي التسلیم على نبیه مدينة العلم ومنبع المعرفة، وعلى
وصیه باب الله وحكمته البالغة، وعلى بضعته الصدیقة الشهیدة، الحدّثة العلیمة،
وعلى أهل بيته عناصر الأبرار، ودعائیم الأخيار، واللعنة الدائمة على أعدائهم
أجمعین، من الآن إلى قیام يوم الدین.

وبعد، فلا شكّ ولا ريب في أنّ الاطّلاع على سیرة أهل البيت علیهم السلام،
والوقوف على منزلتهم العظيمة، والتعرّف على مقامهم السامي، من أعظم
القربات، وأفضل المكرمات، فهم حبل الله المتین وصراطه المستقيم، من نسّك بهم
سلوك سبيل الرشاد والهدی، ومن تخلّف عنهم غرق وهوی.

وإحدی شموس هذه السلسلة الإلهیة مولاتنا فاطمة الزهراء علیها السلام، فهي كوثر
الرسالة، والواسطة بين النبوة والإمامـة، الحوراء الإنسـية، الرضـية الزـکـیـة، ويکـفـینـا

في بيان شأنها ما ورد عن النبي الأعظم عليه‌الله في حقها، حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ لِغَضْبِ فَاطِمَةَ وَيَرْضِي لِرَضَاهَا»، وقال أيضاً: «فاطِمَةُ بَضْعَةٍ مِنِّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ أَحْبَبَهَا فَقَدْ أَحْبَبَنِي»، وقال أيضاً: «فاطِمَةُ قَلْبِي وَرُوحِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيِّي».

وفي هذا الصدد تلتقي أسرة مجلة رسالة القلم بسماحة الشيخ غازي السماك حَفَظَهُ اللَّهُ، لتبثث معه بعض الجوانب المرتبطة بمقامات السيدة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ وفضائلها.

﴿ هل بين القرآن الكريم مقامات الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ ومنزلتها العظيمة؟ ﴾

❖ هناك الكثير من الآيات القرآنية وردت في حق سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ، تنزيلاً أو تفسيراً أو تأويلاً أو تطبيقاً، نذكر بعضها:

١- آية (التَّطَهِير)، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَهِّبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا»^(١)، فقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْرُّ على دار فاطمة صباح كل يوم عند خروجه إلى المسجد للصلوة، فيأخذ بعضاً من باب قائلة: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ»، ثم يتلو هذه الآية المباركة.

٢- آية (المُبَاهَلة)، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: «فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَادِبِينَ»^(٢)، وقد نزلت حينما جاء وفد نجران إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتحدى معه حول عيسى، فقرأ النبي عليهم الآية التالية: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(٣).

فلم يقتتنع التنصاري بذلك، وكانت عقيدتهم فيه أنه ابن الله، فاعتبروا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت آية المُبَاهَلة، وهي أن يتباھل الفريقان إلى الله تعالى، ويَدْعُوا نَعْمَ الله تعالى أن يُنزل عذابه وغضبه على الفريق المُبْطَل منهما، واتفقا على الغد كيوم

للمباهلة.

ثم تَحاوَرَ أَعْصَاءُ الْوَفْدِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، فَقَالَ كَبِيرُهُمُ الْأَسْقَفُ: إِنْ غَدَّاً فَجَاءَ بُوَلَدِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فَلَا تُبَاهِلُوهُ، وَإِنْ جَاءَ بَغِيرَهُمْ فَافْعُلُوهُ، فَغَدَّ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ مُحْتَضَنًا لِلْحَسِينِ، آخَذَ الْحَسِينَ بِيَدِهِ، وَفَاطِمَةُ تَمْشِي خَلْفَهُ، وَعَلَيْهِ خَلْفَهَا، ثُمَّ جَشَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ: «إِذَا دَعَوْتُ فَأَمْنَوْا»، أَمَّا النَّصَارَى فَرَجَعُوا إِلَى أَسْقَفِهِمْ فَقَالُوا: مَاذَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى وُجُوهًا لَوْ سُئِلَ اللَّهُ بِهَا أَنْ يُرِي لَهُ جَبَلًا مِنْ مَكَانِهِ لَأَزَّلَهُ، فَخَافُوا وَقَالُوا لِلنَّبِيِّ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَقْلَنَا أَقْلَالَ اللَّهِ عَثْرَتْكَ، فَصَالَ حُوَّهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ الْجِزِيَّةَ.

٣- سورة (الكوثر)، وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوَثِيرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَلَا هُوَ بِالْأَبْتَرِ﴾^(٥)، فالابترا هو المنقطع نسله، وقد استفاضت الروايات في أن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عاب النبي علية وآله بالبترا (أي عدم الأولاد) بعد ما مات أبنا الرسول علية وآله، وهما: القاسم، وعبد الله.

وقصة هذه السورة هي: أن العاص بن وائل السهمي كان قد دخل المسجد بينما كان النبي خارجاً منه، فالتقيا عند باببني سهم، فتحدثا، ثم دخل العاص إلى المسجد، فسألته رجال من قريش، كانوا في المسجد: مع من كنت تتحدث؟ فقال: مع ذلك الأبترا. فنزلت سورة الكوثر على النبي علية وآله، فلمراد من الكوثر هو: الخير الكثير، والمراد من الخير الكثير: كثرة الذرية، لما في ذلك من تطبيـل لنفس النبي.

وروى أنه قال لخدجـة قبل ولادة فاطمة: «هذا جبريل يبشرني أنها اثـنى، وأنـها النـسمـةـ، الطـاهـرـةـ، الـمـيمـونـةـ، وـأنـ اللهـ تـبارـكـ وـتعـالـىـ سـيـجـعـلـ نـسـلـيـ مـنـهاـ، وـسيـجـعـلـ مـنـ نـسـلـهـاـ أـثـمـةـ فـيـ الـأـمـةـ، وـيـجـعـلـهـمـ خـلـفـاءـ فـيـ أـرـضـهـ بـعـدـ انـقـضـاءـ وـحـيـهـ»^(٦).

٤- سورة الدـهـرـ - الإنسانـ - في آية (الـإـطـعـامـ)، وهي قوله عز وجل: ﴿وَيَطْعَمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا تُطْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا^(٧)، وَقَصَّتْهَا كَمَا فِي تَفْسِيرِ الْكَشَافِ لِلرَّمَخْشَرِيِّ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحَسِينَ مَرِضَا، فَعَادُهُمَا رَسُولُ اللَّهِ فِي نَاسٍ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِيكَ، فَنَذَرَ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ وَجَارِيَتُهُمَا فَضْلَةٌ إِنْ بَرَءَ إِنَّمَا بِهِمَا أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَسَفِيَّا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَاسْتَقْرَضَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْعُونَ الْخِيْرِيَّ الْيَهُودِيَّ ثَلَاثَ أَصْوَعَ مِنْ شَعِيرٍ، فَطَحَنَتْ فَاطِمَةُ صَاعًا، وَاخْتَبَرَتْ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ عَلَى عَدَدِهِمْ.

فَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُقْطِرُوا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ (مسكين) وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مَسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ، أَطْعَمُونِي أَطْعَمُكُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَآتُوكُمْ وَبَاتُوكُمْ لَمْ يَذُوقُوا إِلَّا الْمَاءَ، وَأَصْبَحُوكُمْ صِيَامًا، فَلَمَّا أَمْسَوْا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ (يتيم)، فَآتُوكُمْ وَوَقَفَ عَلَيْهِمْ (أسيرٌ) فِي الثَّلَاثَةِ، فَفَعَلُوكُمْ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوكُمْ أَخْذَ عَلَيْهِ بِيْدَ الْحَسَنِ وَالْحَسِينِ، وَأَقْبَلُوكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَلَمَّا أَبْصَرُوكُمْ وَهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَالْفِرَّاحِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ قَالَ: مَا أَشَدُّ مَا يَسُوْؤُنِي مَا أَرَى بِكُمْ، فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ، فَرَأَى فَاطِمَةَ فِي مُحَرَّابِهَا قَدْ التَّصَقَ ظَهَرُهَا بِبَطْنِهَا، وَغَارَتْ عَيْنَاهَا، فَسَأَهَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جَبَرَائِيلُ وَقَالَ: خَذْهَا يَا مُحَمَّدًا، هَنَّاكَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ، فَأَقْرَأَهُ السُّورَةَ.

وَقَدْ قَالَ الرَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ عَنْ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ السُّورَةِ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قدْ أَنْزَلَ (هَلْ أَتَى) فِي أَهْلِ الْبَيْتِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَذُكِرَ فِيهَا، إِلَّا (الْحُورُ الْعِينُ)، وَذَلِكَ إِجْلَالًا لِفَاطِمَةَ".

٥ - آيَةُ (الْمَوَدَّةِ)، وَهِيَ قَوْلُهُ عَزَّزَنَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٨)، وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو نَعِيمَ، وَالْدِيلِيَّيِّ، مِنْ طَرِيقِ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ

قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أُسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي أن تحفظوني في أهل بيتي، وتَوَدُّهُمْ لِي».

٦- آية القربي، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتِّ ذَا الْقُرْبَى حَقَّ﴾^(٩).

قال شرف الدين في كتابه النص والاجتهاد: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ سُلْطَانَهُ لَمَا فَتَحَ لِعَبْدِهِ وَخَاتَمِ رَسُولِهِ صَحُونَ خَيْرًا، قَذَفَ اللَّهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ أَهْلِ فَدَكَ، فَنَزَلُوا عَلَى حَكْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَغِيرِينَ، فَصَالَحُوهُ عَلَى نَصْفِ أَرْضِهِمْ -قِيلَ: صَالَحُوهُ عَلَى جَمِيعِهَا- فَقَبِيلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَكَانَ نَصْفُ فَدَكَ مُلْكًا خَالِصًا لِرَسُولِ اللَّهِ، إِذَا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابًا. وَهَذَا مِمَّا أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ، بِلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ مِنْهَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ".

فعندما أنزل الله ﷺ قوله: ﴿وَاتِّ ذَا الْقُرْبَى حَقَّ﴾، أَنْحَلَّ فاطمةً فَدَكًا، فكانت فَدَكَ في يدها - الزهراء ظَاهِيًّا - حتَّى انتزَعَتْ مِنْهَا غَصَبًا في عَهْدِ أبي بكر. وأخرج الطبرسي في مجمع البيان عند تفسيره لهذه الآية فقال: "المُحَدِّثُونَ الأَثَابُ رَوَوْا بِالْإِسْنَادِ إِلَى أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتِّ ذَا الْقُرْبَى حَقَّ﴾، أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ فاطِمَةً فَدَكًا، وَتَجَدَّ ثَمَّةً هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا أَنْزَمَ الْمُؤْمِنُونَ بِرَدَّ فَدَكَ عَلَى وُلْدِ فاطِمَةِ ظَاهِيًّا". إلى غيرها من الآيات القرآنية الشريفة.

* ورد في نصوص كثيرة عن النبي الأعظم ﷺ عند المؤلفين والمخالفين بأنَّ الله - تبارك وتعالى - يرضى لرضا فاطمة ظَاهِيًّا، ويغضِّب لغضبها. فما هو المراد من ذلك؟

* قبل ذكر الإجابة على هذا السؤال نبيِّن بعض الأحاديث التي تفيد هذا

المعنى:

أ- روى البخاري في صحيحه في باب مناقب المهاجرين وفضلهم عن أبي

الوليد عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، من أغضبها فقد أغضبني»^(١٠). وقد صحّ هذا الحديث الذهبي الذي هو أنقد نقاد الحديث عند أهل السنة والجماعة، وأيضاً صحّ الذهبي حديث: «إِنَّ رَبَّ يَرْضِي لِرَضَا فَاطِمَةَ وَيَغْضِبُ لِغَضْبِ فَاطِمَةٍ».

ب- وجاء في صحيح مسلم في حديث رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يؤذني من آذاها ويغضبني من أغضبها»^(١١).

ج- وجاء في مستدرك الحاكم للنيسابوري: «قال النبي ﷺ لفاطمة ؑ: إنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ لِغَضْبِكَ وَيَرْضِي لِرَضَاكَ. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»^(١٢).

د- وفي مجمع الزوائد: «قال رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ لِغَضْبِكَ وَيَرْضِي لِرَضَاكَ. رواه الطبراني وإسناده حسن»^(١٣).

ه- وقال الصالحي في سبل الهدى والرشاد: "الرابع: في أنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى يرضي لرضاها، وينصب لغضبها. روى الطبراني بإسناد حسن، وابن السندي في معجمه وأبو سعيد النيسابوري في الشرف، عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه- أنَّ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال لفاطمة: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضِبُ لِغَضْبِكَ وَيَرْضِي لِرَضَاكَ»»^(١٤).

هذا بالنسبة لمصادر أهل السنة والجماعة، وهي أحاديث مستفيضة في مصادر مدرسة أهل بيته العصمة والطهارة ؑ، وفيها دلالة واضحة على عصمة الزهراء الصدّيقية ؑ.

فمضمون الحديث الذي رواه البخاري هو أنَّ النبي ﷺ يغضب لغضب فاطمة ؑ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١٥)، بينما المضمون الثاني الذي ورد في بقية المصادر بأنَّ اللَّهُ عَزَّ ذِيَّلَهُ

يغضب لغضب فاطمة عليها السلام، وفرق بين أن نقول: فاطمة عليها السلام تغضب لغضب الله عزوجل، وبين أن نقول: الله عزوجل يغضب لغضب فاطمة عليها السلام، ومتعلق غضب فاطمة مذوف، وحذف المتعلق يفيد العموم، أي أن الله عزوجل يغضب لكل ما يغضب فاطمة عليها السلام. واضح أن من يغضب فاطمة عليها السلام فهو يؤذيها، ومن آذاها فقد آذى الله عزوجل ورسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وقد قال عز من قائل في كتابه المبين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعْدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾^(١٦) فإذاً هذه الأحاديث تدل على عصمة الزهراء عليها السلام، وأيضاً تدل على خطأ كل من يخاصم الزهراء عليها السلام ويغضبها.

✿ مصحف فاطمة عليها السلام من الأمور التي تكرر ذكرها في روایات الأئمة الأطهار عليهم السلام، فما هي حقيقته؟ وهل هو مختص بالأئمة عليهم السلام؟

❖ كثر اللغط والتشنيع في هذه المسألة من قبل أعداء الإسلام الذين يتربّصون به بغية تزييق المسلمين وإثارة الخلاف والشّقاق بينهم لإضعافهم وجعلهم لقمة سائغة لأسيادهم المستكبرين، فقد شنعوا على المسلمين الشيعة من خلال اتهامهم بأن لهم قرآن آخر يأخذون منه أحكام الدين غير القرآن الكريم يسمونه مصحف فاطمة.

والواقع الخارجي يدحض هذه الفريه والاتهام الرخيص، حيث إن مساجد المسلمين من كافة المذاهب وببيوتهم لا تعرف قرآن منزلأ على النبي الخطام محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه غير القرآن الكريم المتعارف عند كافة المسلمين.

بطبيعة الحال فإن المتتبع للتاريخ والروایات المؤثرة يرى هذه المسألة أثيرت أيضاً في عهد الدولة الأموية والعباسية، وقد تصدى الأئمة عليهم السلام لرد هذه التهمة بشكل قاطع ومتكرر، رغم كل ذلك نرى بعض الذين في قلوبهم مرض والذين استولى على عقولهم الجهل لا زالوا يتشددون بهذه التهمة من خلال فضائياتهم

وكتاباتهم المسمومة.

فهنا نتساءل: ما هو المقصود من مصحف فاطمة عليها السلام عند أهل البيت عليهم السلام؟
وعند المسلمين الشيعة الذين تسّكوا بالتقليد امثalaً لأمر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه?
لكي نجيب على هذا التساؤل لابد من أن نتعرّف على المعنى اللغوي لكلمة
الصحف، وبعدها نتعرض إلى الروايات والأخبار الواردة عن أهل بيت العصمة
والطهارة؛ كي نتعرّف على حقيقة مصحف فاطمة عليها السلام.

أ- المصحف لغة:

قال الفراء في لفظ المصحف: "وقد استقلت العرب الضمة فكسرت ميمها وأصلها
الضم، من ذلك مصحف ... لأنها في المعنى مأخوذة من أصحف جمعت فيه
الصحف".

وقال أبو الھلال العسكري في الفروق اللغوية: "الفرق بين الكتاب والمصحف، أن
الكتاب يكون ورقة واحدة ويكون جملة أوراق، والمصحف لا يكون إلا جماعة أوراق
صحفت، أي جمع بعضها إلى بعض".

فالمصحف: هو ما جُمع من الصحف بين دفتري الكتاب المشدود، ولذلك قيل
للقرآن مصحف.

ب- مصحف فاطمة عليها السلام:

ومصحف فاطمة الزهراء عليها السلام هو كتاب عظيم المنزلة أملأه جبرائيل الأمين
على السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وذلك
تسليمة وتسكيناً لها على حزnya لفقد أبيها صلوات الله عليه وآله وسلامه.

والذي كتب هذا المصحف بخطه المبارك هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب عليه السلام.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن مصحف فاطمة عليها السلام قال: «إنّ



فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويُطيب نفسها وينبئها عن أبيها ومكانه، وينبئها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة».

وقال عليه السلام في رواية أخرى: «أما إنّه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون».

وقال عليه السلام في رواية أخرى: «وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليه السلام وما يدرى بما مصحف فاطمة، مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاثة مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرفاً واحداً، إنما هو شيء أملأه الله وأوحى إليها».

وقال عليه السلام في رواية أخرى: «... وعندنا مصحف فاطمة، أما والله ما هو بالقرآن».

ومصحف فاطمة عليه السلام يعتبر من جملة ودائع الإمامة، فقد قال الإمام الرضا عليه السلام - وهو يُعدّ علامات الإمام الموصوم عليه السلام -: «... ويكون عنده مصحف فاطمة عليه السلام».

وهو موجود حالياً عند الإمام المهدى المنتظر عليه السلام.

ويُعتبر هذا المصحف أول مصنف في الإسلام، حيث إن الزهراء عليه السلام توفيت في العام الحادى عشر من الهجرة، ولم يكتب قبل هذا التاريخ كتاب في عصر الإسلام.

ولا غرابة في ذلك إذ إن الزهراء عليه السلام كانت محدثة، ولن يستحب أن تُذكر إلا حديثها الملائكة، فقد كانت مريم بنت عمران محدثة أيضاً، كما كانت أم موسى بن عمران عليهما محدثة، وسارة زوجة النبي إبراهيم عليهما محدثة أيضاً وكانت محدثة فقد رأت الملائكة بشرواها بإسحاق ويعقوب.

فإذاً مصحف فاطمة هو وحي إلا أنه غير معجز، نظير الحديث القدسي،

بنخلاف القرآن الكريم، فهو وحي مقرون بالإعجاز.

❖ ورد في الحديث المروي عن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام في حرق جدته الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام: «نحن حجاج الله على خلقه، وجدتنا فاطمة حجة الله علينا»^(١٧)، مما المراد بكونها حجة على الأئمة الأطهار عليهم السلام؟

❖ الحجّة هي عبارة عن الدليل والمعرّف على الحقائق، والأئمة عليهم السلام حجّة على الناس لأنّهم الأدلة على الله عزّوجلّ والمعرّفون للناس أحكامه وتعاليمه، والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام حجّة على الأئمة عليهم السلام؛ لأنّها أحد الوسائل المعرفية الإلهية التي أوصلت الحقائق إلى الأئمة عليهم السلام من خلال مصحف فاطمة عليها السلام، فقد كان مصحفها يشتمل على الكثير من العلوم والحقائق والمعارف الإلهية والمغيّبات والملامح والفقن.

ويؤيد هذا التوجيه الروايات التي تشير إلى أن مصحف فاطمة عليها السلام من وداع الإمامة.

❖ خطبة مولاتنا فاطمة عليها السلام كشفت عن جزء يسير من منزلتها الرفيعة، ورتبتها العالية، فما هي الأبعاد العامة التي تميّزت بها هذه الخطبة الدالة على المقام الشامخ لسيدة النساء عليها السلام؟

❖ تتضمّن هذه الخطبة الغراء التي قلّ نظيرها سبعة محاور أساسية، وكلّ محور من هذه المحاور كفيل في بيان عظمة الزهراء عليها السلام وعلوّ مقامها ومنزلتها وعلمها وعصمتها.

المحور الأول: المسائل المرتبطة بتوحيد الله عزّوجلّ وصفاته وأسمائه والمهدف من الحلقة.

قالت عليها السلام: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألمّ و الثناء بما قدّم، من

عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسدتها، و تمام من أولاتها، جم عن الإحصاء عددها، ونائى عن الجزاء أمدتها، وتفاوت عن الإدراك أبدتها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخالق ياجزها، وثنى بالتدب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلاً وضمّن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، المتنع من الأ بصار رؤيته، ومن الألسن صفتة، ومن الأوهام كيفيته. ابتداع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امثالها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيتته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلا تبيّناً لحكمته، وتبنيها على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته ثم جعل الشواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته».

وأعاً هذه الكلمات التورانية كفيلة في إثبات مقامها الشامخ، ومتزلتها الرقيقة، وعصمتها، وعلمتها، وأنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين. **المحور الثاني: المسائل المرتبطة بالنبوة وبيان منزلة النبي ﷺ ومسئوليّاته وأهدافه.**

قالت عليها السلام: «أشهد أن أبي محمدًا عبده ورسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابعثه، إذ الخالق بالغيب مكتونة وبستر الأماوبل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علمًا من الله تعالى بما يلي الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بواقع الأمور، ابعثه الله إقماماً لأمره وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذًا لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرآنها، عابدة لأوثانها، مُنكرة لله مع عرفانها، فأثار الله بأبي محمد عليه السلام ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها وجل عن الأ بصار غمّها، وقام في الناس بالهدایة فأنقذهم من الغواية وبصرهم من العمایة، وهداهم إلى الدين القويم ودعاهم إلى الطريق المستقيم، ثم قبضة الله إليه قبض رأفة و اختيار، ورغبة وإيثار، فمحمدٌ من تعب هذه الدار في راحة، قد حُفَّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه على الوحي وصفيه وخيرته

منخلق ورضي والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

المحور الثالث: منزلة القرآن الكريم وتعاليم الإسلام وفلسفة أحكامه.

قالت عليها السلام: «أنت عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، ينير بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مُعتبرة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان اتباعه، مؤداً إلى النجاة استماعه، به تُتال حجج الله المنورة، وعزائم المفسرة، ومحارمه الحذرة، وبياناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة وشرائعه (شرائعه المكتوبة)».

المحور الرابع: المقارنة بين عصر الجاهلية المظلم وعصر الإسلام المضيء.

قالت عليها السلام: «أيها الناس اعلموا: أني فاطمة، وأبي محمد عليه السلام، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أني دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزي إليه صلى الله عليه وآله وسلم، فبلغ بالرسالة، صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثيجهم، آخذنا بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربّ بالحكمة والوعظة الحسنة، يجف الأصنام، وينكت الهم، حتى انهزم الجموع وولوا الدبر، حتى تقرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخربت شقاوش الشياطين، وطاح وشيطون الفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفُهتم بكلمة الإخلاص في نفري من البيض الخماص، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾، مذقة الشراب، ونُهْزَةُ الطَّامِعِ، وقبضة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدد، أذلة خاسئن، ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ﴾ من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى محمد عليه السلام بعد الitta والتqi، بعد أن مُنِي بهم الرجال، وذوبان العرب، ومردة أهل الكتاب ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

الله ﷺ، أو نَجَمَ قُرْنُ الشَّيْطَانِ، أو فَغَرَتْ فَاغِرَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَذَفَ أَخَاهُ فِي هَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكُفِي حَتَّى يَطِأْ صِمَاخَهَا بِأَحْصَبِهِ، وَيَخْمَدُ هَبَّهَا بِسِيفِهِ، مَكْلُودًا فِي ذَاتِ اللَّهِ، مجْهَدًا فِي أَمْرِ اللَّهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، سَيِّدًا فِي أُولَيَاءِ اللَّهِ، مَشْمَرًا نَاصِحًا، مجْدًا كَادِحًا، لَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَاتِمَ، وَأَتَمَ فِي رَفَاهِيَةِ الْعِيشِ، وَادِعُونَ فَاكِهُونَ، آمِنُونَ تَرْبَصُونَ بِالدَّوَائِرِ، وَتَوَكَّفُونَ الْأَخْبَارِ، وَتَنْكُصُونَ عَنِ النَّزَالِ، وَتَفْرُونَ مِنِ الْقَتَالِ.

المحور الخامس: المسائل المرتبطة بما بعد التحاق النبي ﷺ الأعظم عليه السلام بالرفيق الأعلى ومحطّطات المنافقين نحو الإسلام.

قالت ظبيلا: «فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لَنِيَّهُ دَارَ أَنْيَاهُ، وَمَأْوَى أَصْفِيَاهُ، ظَهَرَ فِي كُمْ حَسْكَةُ النَّفَاقِ، وَسَمِّلَ جَلِبابُ الدِّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغَاوِينَ، وَنَبَغَ خَامِلُ الْأَقْلَيْنِ وَهَدَرَ فَنِيقُ الْمَبْطَلِيْنِ، فَخَطَرَ فِي عَرَصَاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ، هَاتَنَا بِكُمْ، فَأَلْفَاكُمْ لِدُعَوَتِهِ مُسْتَجِيْبِيْنِ، وَلِلْعَزَّةِ فِي مَلَاحِظِيْنِ، ثُمَّ اسْتَهْضَكُمْ فَوْجَدُكُمْ خِفَافًا وَأَخْشَمُكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غِضَابًا، فَوَسَّمْتُمْ غَيْرَ إِيلِكُمْ، وَوَرَدْتُمْ غَيْرَ مَشَرِّبِكُمْ.

هذا، والعهد قريب، والكلمُ رحيب، والجرح لَمَّا يندمل، والرَّسُولُ لَمَّا يَقْبَرُ، ابْتِدَارًا زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفَتَنَةِ ﴿أَلَا فِي الْفَتَنَةِ سَقَطُوا إِنَّ جَهَنَّمَ لِحِيطَةٍ بِالْكَافِرِيْنَ﴾ فَهِيَهَا مِنْكُمْ، وكيف بِكُمْ، وأَنَّى تَوْفُكُونَ، وَكَاتِبُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ أُمُورُهُ ظَاهِرَةً، وَأَحْكَامُهُ زَاهِرَةً، وَأَعْلَامُهُ باهِرَةً، وزَوَاجُهُ لَايْحَةً، وَأَوْامِرُهُ وَاضْحَةً، وَقَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهُورِكُمْ! أَرْغَبَةُ عَنْهُ تَرِيدُونَ؟ أَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِيْنَ بَدْلًا﴾، ﴿وَمَنْ يَتَنَعَّمْ غَيْرَ إِسْلَامَ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْحَاسِرِيْنَ﴾.

المحور السادس: المسائل المرتبطة بقضية فدك وتفنيد المحجج الواهية التي جعلت مبرراً لغضب فدك.

قالت ظبيلا: «ثُمَّ لَمْ تَلْبِسُوا إِلَّا رَيْثَ أَنْ تَسْكُنَ نَفْرُّهَا، وَيَسْلُسُ قِيَادُهَا، ثُمَّ أَخْذَتُمْ تُورُونَ وَقَدَّتُهَا، وَتُهْيِجُونَ جَمَرَتَهَا، وَتَسْتَجِيْبُونَ لِهُتَافِ الشَّيْطَانِ الغُويِّ وَإِلْطَافِهِ أَنوارَ الدِّينِ الْجَلِيِّ، وَإِخْمَادِ سُنْنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ، تَشْرِبُونَ حَسْوًا فِي ارْتِفَاعِهِ، وَتَمْشُونَ لِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ



في الخمرة والضراء، ونصير منكم على مثل حز المدى ووخر السنان في الحشا، وأتمن الآن ترعمون: أن لا إرث لنا، فأحكم الجاهلية تبغون ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟! أفلأ تعلمون؟

بلى تجلّى لكم كالشمس الضاحية: أني ابنته. أيها المسلمون، الأغلب على إرثي؟! يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرَثَ سُلَيْمَانَ دَاؤِدَ﴾، وقال فيما اقتضى من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلَيْاً يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوب﴾، وقال: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله﴾، وقال: ﴿يُوصِّيْكُمُ اللهُ فِي أُولَادِكُمْ لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظَّ الْأَنْثَيْنِ﴾، وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدِيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنِ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقْيَيْنَ﴾، وزعمتم: أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي؟ ولا رحم ينتن؟ أفحسّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّ أهل ملتين لا يتوارثان؟! أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعوممه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاءك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمد عليهما السلام، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعهم إذ تندمون».

المحور السابع: إقام الحجّة على أصحاب النبي عليهما السلام واستنهاضهم لنصرة الحقّ
وإنذارهم بالعذاب الأليم عند التّخاذل.

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت ﴿أَلِلّٰهِ﴾: «يا معشر النّقية وأعضاد الله وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي وسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله عليهما السلام أبي يقول: «الماء يحفظ في ولده»؟!، سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكن طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول! أتقولون مات محمد عليهما السلام؟ فخطب جليل: استوسع ونهنّه واستهرب فتفه، وانفتق رتفه، وأظلمت الأرض لغيته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النّجوم لمصيّته، وأكدت الآمال، وخشعّت الجبال، وأضياع الحرّيم،

وأزيالت الحرمة عند ماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة،
 ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي مُمساكم ومُصْبِحكم
 يهتفُ في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوةً وألحاناً، ولقبة ما حلّ بأنبياء الله ورسله حكم
 فصلٌ، وقضاءٌ حتمٌ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ
 قُتِلَ اتَّقْلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَتَّقْلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي
 اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، ليها بني قيلة! أهضم تراث أبي؟ وأتم بمرأى مني وسمعي، ومتدى
 وجمع؟ تلبسُكم الدعوة، وتشملُكم الخبرة، وأتم ذُوو العدد والعدة، والأدلة والقوّة،
 وعذرُكم السلاح والجنة، توافقُكم الدعوة فلا تجيوون، وتأتيكم الصرحة فلا تغيشون،
 وأتم موصوفون بالكافح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت والخيرية التي
 اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتُم العرب، وتحمّلتُم الكد والتعب، وناطختُم الأمم وكافحتم
 البُهَم، لا نبرح أو تبرحون، نأمرُكم فتاًرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام ودرَّ
 حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنَت فورة الإفك، وحمدت نيران الكفر،
 وهدأت دعوة المرج، واستوسيق نظام الدين! فأئنِ حرتم بعد البيان؟ وأسررتُم بعد
 الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتُم بعد الإيمان؟ بوسأ لقوم ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾
 من بعد عهدهم ﴿وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوْكُمْ أَوْلَ مَرَّةً أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ألا وقد أرى أن قد أخلدتُم إلى الخفْض، وأبعدتُم من هو أحق بالبسط والقبض،
 وخلوتُم بالدُّعَة ونجوتم بالضيق من السُّعة، فمججتم ما وعيتم، ودَسَعْتم الذي تسوغتم،
 ف ﴿إِنْ تَكُفُّوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيُّ حَمِيدٌ﴾.

ألا وقد قلتُ ما قلتُ على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكُم والغدرة التي
 استشعرتها قلوبكم، ولتكنها فِيضَةُ النَّفْس، ونَفَثَةُ الغَيْظ وحُورُ القناة، وبَثَةُ الصَّدَر وَتَقْدِيمَةُ
 الْحُجَّة، فدونكموها فاحتقبوها دَبَرَةُ الظَّهَر، نَقْبَةُ الْحُفَّ، باقيَةُ العَارِ، مُوسَمَةُ بغضِّ
 الجبار، وشَارِ الأَبَدِ، موصولةُ بنا رَبُّ الْمُوقَدَة ﴿الَّتِي تَطَّلَّعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، فبعينَ اللهِ ما

تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، وأنا ابنة نذير ﴿لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، فاعملوا إنا عاملون ﴿وَأَنْتَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ﴾.

طبعاً هذه إطلاة سريعة وإجمالية على هذه الخطبة الغراء، والكلام في تفاصيلها طويل الذيل، والمقام مني على الاختصار.

✿ بعد ارتحال النبي الأكرم ﷺ إلى جوار ربه، منعت سيدتنا فاطمة ؑ من حقها الثابت إليها في فدك، فخرجت مطالبة بالحق المأمور ذلك ظلماً وجوراً، فهل كانت مطالبتها محض مطالبة بالإرث، أم كانت تهدف لمقاصد أعظم من ذلك؟

❖ فدك قرية بالمحجاز -قريبة من خير- تبعد عن المدينة بمسافة مقدارها مائة وأربعون كيلو متر تقريباً، أفاءها الله على رسوله ﷺ، وفيها عين فوارة ونخل كثير، وتعد مركزاً مهمّاً للبيهود في أرض المحجاز بعد خير.

وقد انتقلت إلى رسول الله ﷺ بعد فتح حصنون خير، حينما أرسل أهل فدك إلى رسول الله ﷺ أن يصالحهم على نصف «فدك»، فقبل الرسول ﷺ ذلك منهم وأمضى ذلك الصلح، فهي أرض لم يوجد فيها بخيل ولا ركاب، فتكون خالصة لرسول الله ﷺ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك في قوله ﷺ: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللّٰهَ يُسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقد أشار الكثير من المؤرخين إلى أنَّ الرسول ﷺ قد منح ابنته الزهراء ؑ فدكاً في حياتها.

وقد نقل «جلال الدين السيوطي» في كتاب (الدر المنشور) في ذيل الآية السادسة عشرة من سورة الإسراء حدثاً عن «أبي سعيد الخدري» يقول فيه: «لما نزل قوله تعالى ﴿وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقّهُ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً^(١٨).

وأيضاً أشار أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام في نهج البلاغة إلى ذلك، حيث قال: «بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أطلقه السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخّت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله».

وبالإمكان التعرّف على سبب مطالبة الزهراء عليها السلام بفديها من خلال معرفة الدوافع السياسية للخصوم في غصب فدك، فالمسألة لا تختص بالجانب المادي فحسب، وهي ليست مسألة إرث، بل هي مسألة ترتبط بالواقع الإسلامي العام، حيث إن وجود فدك عند أهل البيت عليهما السلام يمثل ميزة لعلو مقامهم وشرفهم وقربهم من رسول الله عليهما السلام، وتبرز معرفتهم بالنبي عليهما السلام وأحقيتهم في خلافته من خلال التنصيب الإلهي والنصلحي، فحقيقة قضية فدك تتمثل في مسألة خلافة المسلمين بعد رسول الله عليهما السلام، فالزهراء عليها السلام أرادت أن تذكر الأمة بمقام أهل البيت عليهما السلام وأحقية أمير المؤمنين عليهما السلام في خلافة النبي عليهما السلام من خلال النصوص النبوية كحديث الغدير الثابت سندًا واضح دلالة، وغيره، بخلاف منهج القوم، فهم أرادوا تجريد هذه الأمور عن أهل بيته العصمة والطهارة عليهما السلام من خلال تجريد الزهراء عليها السلام عن حقها في فدك.

وقد أشار إلى هذه المسألة الجوهرية في قضية فدك (ابن أبي الحميد المعزلي) في شرحه لنهج البلاغة حيث قال: "سألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً طيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمه وقلة دعابته، قال: لو أعطاهااليوم فدك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعنت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والمدافعة بشيء، لأنّه يكون قد سجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعّيه كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود".



وبعدها يضيف ابن أبي الحديد قائلاً: "وهذا كلام صحيح، وإن كان أخرجه مخرج الدّعاية والهزل".^(١٩)

الهوامش:

- (١) رئيس تحرير سابق في الجلة، وأحد أعضاء هيئتها الاستشارية حالياً، أستاذ في الحوزة العلمية، له برامج علمية وثقافية متنوعة، عضو في مجلس إدارة جامعة آل البيت عليهما السلام العالمية بقم المقدسة.
- (٢) سورة الأحزاب: ٣٣.
- (٣) سورة آل عمران: ٦١.
- (٤) سورة آل عمران: ٥٩.
- (٥) سورة الكوثر.
- (٦) بحار الأنوار، المجلسي، ج ١٦، ص ٨٠.
- (٧) سورة الإنسان: ٨-٩.
- (٨) سورة الشّورى: ٢٣.
- (٩) سورة الإسراء: ٢٦.
- (١٠) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢١٠.
- (١١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ٣٧٦.
- (١٢) المستدرك للنّيسابوري، ج ٣، ص ١٥٤.
- (١٣) مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٠٣.
- (١٤) سبل الهدى والرشاد، ج ١١، ص ٤٤.
- (١٥) سورة النّجوم: ٤-٣.
- (١٦) سورة الأحزاب: ٥٧.
- (١٧) الأسرار الفاطمية، المسعودي، ص ٨٧.
- (١٨) الدر المنشور، ج ٤، ص ١٧٧.
- (١٩) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعزلي، ج ٤، ص ٧٨.



مقام الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام عند العامة

أشيخ عزيز حسن الخنزان

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد وآل
محمد.

للزهراء عليها السلام مكانة خاصة عند الله سبحانه، وعند
رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند أئمة أهل البيت عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ولأجل ذلك
يخصّها شيعتها بمحبة خاصة، ومعاملة مميّزة، ولا يشكّون في
عصمتها، وظاهرها، وكونها أفضل امرأة خلقها الله تعالى على
وجه الكون، وهذا أمر واضح جداً لمن عايشهم، وقرأ كتبهم،
ولكنَّ السؤال المهم هو: ما هو مقام الزهراء عليها السلام عند العامة
والمخالفين لنهج أبنائها عليهم السلام? وهل يمكن إثبات فضلها وعصمتها من كتبهم؟

ونريد هنا أن نستعرض بعض آراء علماء العامة، وما رواه في كتبهم مما يدل على فضل الزهراء عليها وعظمتها، سواء قبلوا بضمون تلك الروايات أو لم يقبلوا.

سيدة نساء العالمين:

وردت روايات كثيرة جداً تشير إلى أنّ فاطمة الزهراء عليها هي سيدة نساء العالمين، وسيّدة نساء هذه الأمة، وسيّدة نساء أهل الجنة، وهذا المضمون - مع اختلاف التعبيرات - من الأمور المسلمبة عند جميع المسلمين، ولذلك نرى البخاري في باب مناقب الزهراء عليها يبدأ فيقول: قال النبي عليه السلام: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»^(١). من دون أن يذكر سند الحديث وكأنّه من الأمور المستغنية عن ذكر السند.

وفي المستدرك عن عائشة، أن النبي عليه السلام قال - وهو في مرضه الذي توفي فيه - «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيّدة نساء هذه الأمة، وسيّدة نساء المؤمنين» هذا إسناد صحيح ولم يخرجاه هكذا^(٢).

وفي البخاري ومسلم ومسند أحمد واللفظ للأخير عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: «أقبلت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشية رسول الله عليه السلام، فقال: مرحباً بابني، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماليه، ثم إنّه أسرّ إليها حديثاً فقلت لها: استخصك رسول الله عليه السلام حديثه ثم تبكي، ثم إنّه أسرّ إليها حديثاً فضحكـت، فقلت: ما رأيت كال يوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عمّا قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله عليه السلام حتى إذا قبض النبي عليه السلام سألتها فقالت: إنه أسرّ إليّ فقال: إنّ جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كلّ عام مرة، وإنّه عارضني به العام مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجي، وإنّك أول أهل بيتي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك، فبكـت لذلك، ثم قـال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة، أو نساء المؤمنين، قـالت: فضـحـكت لذلك»^(٣).

وفي مسند أحمد وفضائل الصحابة للنسائي واللفظ للأول عن حذيفة قال: «سألتني أمي منذ متى عهدك بالنبي ﷺ قال: فقلت لها: منذ كذا وكذا، قال: فنالت مني وسبّتني، قال: فقلت لها: دعيني فإنّي آتي النبي ﷺ فأصلّي معه المغرب ثم لا أدعه حتى يستقر لي ولك، قال: فأتيت النبي ﷺ فصلّيت معه المغرب، فصلّى النبي ﷺ الشاء، ثم انفلت فتبعته، فعرض له عارض فتاجاه، ثم ذهب فاتّبعته فسمع صوتي، فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، قال: «مالك؟» فحدّثه بالأمر فقال: «غفر الله لك ولأمك»، ثم قال: «أما رأيت العارض الذي عرض لي قبيل»، قال: قلت: بلى، قال: « فهو ملك من الملائكة لم يهبط الأرض قبل هذه الليلة، فاستأذن ربه أن يسلم عليّ ويشرنني أنَّ الحسن والحسين سيداً شبابَ أهل الجنة، وأنَّ فاطمة سيدة نساءِ أهل الجنة»^(٤). رواه الترمذى في سننه وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث إسرائيل»^(٥).

ونزول ملك لم ينزل إلا تلك الليلة لتبشير النبي ﷺ إنما يدلُّ على أهمية ما يبشير به، ومزيد اهتمام المولى وملائكته بذلك الأمر المهم.

وقد ذكر في المستدرك أنَّ عروة بن الزبير كان يحدث بحدث عن النبي ﷺ أنه قال عن ابنته زينب: «هي أفضل بناتي»، فبلغ ذلك علي بن الحسين (الإمام السجاد عليهما السلام)، فانطلق إلى عروة فقال: «ما حدث بلغني عنك تحدث به تتقص به حق فاطمة»، قال عروة: والله إنني لا أحب أنْ لي ما بين المشرق والمغارب وأتّي انتقص فاطمة عليها السلام حقاً هو لها، وأمّا بعد فإن لك أن لا أحدث به أبداً. هذا حديث صحيح على شرط الشياعين ولم يخرجاه... قال الإمام أبو بكر في آخر هذه اللفظة: أفضل بناتي، معناه أي من أفضل بناتي لأنَّ الأخبار ثابتة صحيحة عن النبي ﷺ أنَّ فاطمة عليها السلام سيدة نساء هذه الأمة وكذلك ثابت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «فاطمة سيدة نساءِ أهل الجنة إلا مريم بنت عمران»^(٦).

فاطمة أفضل أم مريم عليهما السلام:

إذا كنّا نحن والروايات المتقدمة -باستثناء الرواية الأخيرة- فإنّها تدلّ بشكل واضح على تفضيل فاطمة الزهراء علیها السلام على السيدة مريم علیها السلام، ولكن الرواية الأخيرة وغيرها تخصّ ذلك، وإن كانت ساكتة عن أيّهن الأفضل، ولا توجد رواية صريحة في تفضيل العذراء مريم علیها السلام، ومن فضّلها إنما استشهد بشواهد يمكن مناقشتها.

ووقع خلاف عند العامة في أيّهن الأفضل، وادعى البعض تفضيل حتى عائشة على الزهراء علیها السلام، والظاهر أنَّ أكثر أهل السنة يقولون: بتفضيل مريم العذراء على فاطمة الزهراء. أمّا الشيعة فقد أجمعوا على تفضيل فاطمة الزهراء تفضيلاً مطلقاً وافقهم على تفضيلها جمهور كبير من شيوخ أهل السنة، وصرّح به كثير من المحققين منهم. والقائلون بتفضيل مريم على فاطمة علیها السلام أعلم دليل يستدلّون به هو تصريح القرآن الجيد باصطفافها على نساء العالمين، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٧).

وقال المناوي في فيض القدير أنَّ في المسألة "خلاف مشهور، فرجح البعض تفضيل فاطمة لما فيها من البضعة الشريفة، وبعضهم مريم لما قيل بنبوتها، ولأنَّه تعالى ذكرها مع الأنبياء في القرآن، قال القرطبي: ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أنَّ مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة عليها، ويؤيده أنّها صديقة ونبيّة بلفتها الملائكة الوحي من الله بالتكليف والأخبار والبشرة وغيرها كما بلغت جميع الأنبياء قال: فهي نبيّة خلافاً لبعضهم، وحينئذٍ فهي أفضل من فاطمة؛ لأنَّ النبي أفضل من الولي^(٨).

وممّن ذهب إلى تفضيل الزهراء علیها السلام ما يظهر من البلقيني في (فتاویه) قال:

”الذى اختاره أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة، للحديث الصحيح، وأنه قال لفاطمة: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء المؤمنين»، وفي النسائي مرفوعاً: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»، سنته صحيح، فال الحديث صحيح في أنها وأمها أفضل نساء أهل الجنة، وال الحديث الأول يقتضي فضل فاطمة على أمها، وفي حديث آخر: «فاطمة بضعة متى» وهو يقتضي تفضيل فاطمة على جميع نساء العالم ومنهن خديجة وعائشة حولتها وبقية بنات النبي ﷺ^(٩).

قال الصالحي الشامي (٩٤٢هـ): ”قال شيخنا: والذي اختاره تفضيل فاطمة، ففي مسند العارث بن أسماء بسند صحيح لكنه مرسل: «مريم خير نساء عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها». أخرجه الترمذى موصولاً من حديث علي -رضي الله تعالى عنه- «خير نسائها مريم، وخير نسائها فاطمة»، قال الحافظ ابن حجر: والمسلم يعتمد المتصل. وروى النسائي عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال: «هذا ملك من الملائكة استأذن ربه ليسلم عليّ، ويسألني أنْ حسناً وحسيناً سيداً شبابَ أهلِ الجنة، وأمّهَا سيدة نساءِ أهلِ الجنة»، انتهى كلامُ الشيخ -رحمه الله تعالى- في شرحه لنظم جمع الجوامع، وقال في كتابه: (إتمام الدراء): ونعتقد أنَّ أفضل النساء مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، ثم أورد حديث علي، وحديث حذيفة السابقين، ثم قال: في ذلك دلالة على تفضيلها على مريم بنت عمران، خصوصاً إذا قلنا بالأصل: إنها ليست نبيّة، وقد تقدر أن هذه الأمة أفضل من غيرها.

قلت: وحاصل الكلام السابق أنَّ السبكي اختار أنَّ السيدة فاطمة أفضل من أمها، وأنَّ أمها أفضل من عائشة، وأنَّ مريم أفضل من خديجة، واختار شيخنا أنَّ فاطمة أفضل من مريم، وقال القاضي قطب الدين الخضري -رحمه الله تعالى- (في الخصائص) بعد أن ذكر في التفضيل بين خديجة ومريم: إذا علمت ذلك فهينبغي أن

يستثنى من إطلاق التفضيل سيدتنا فاطمة ابنة رسول الله ﷺ فهي أفضل نساء العالم، لقوله ﷺ: «فاطمة بضعة مني»، ولا يعدل بيضة رسول الله ﷺ أحد، وسئل الإمام أبو بكر عمر ابن إمام أهل الظاهر داود: هل خديجة أفضل أم فاطمة؟ فقال: الشارع قال: «فاطمة بضعة مني»، قال الشيخ تقى الدين المقرizi في الخصائص النبوية في كتابه (إمتاع الأسماء): إن قلنا بنبوة مريم كانت أفضل من فاطمة، وإن قلنا إنها ليست بنبية احتمل أنها أفضل للخلاف في نبوتها، واحتمل التسوية بينهما تخصيصاً لهما بأدلةهما الخاصة من بين النساء، واحتمل تفضيل فاطمة عليها، وعلى غيرها من النساء، لقوله ﷺ: «فاطمة بضعة مني»، وبضعة النبي ﷺ لا يعدل بها شيء، وهو أظهر الاحتمالات من أنصف^(١٠).

وقال ابن حيان في التفسير الحicus: "قال بعض شيوخنا: والذي رأيت من اجتمع عليه من العلماء، أنهم ينقلون عن أشياخهم: أن فاطمة أفضل النساء المقدمات والتأخرات لأنها بضعة من رسول الله ﷺ" ^(١١).

وأهم أدلة القوم على تفضيل السيدة مريم ﷺ دليلاً:

الدليل الأول: كونها نبيّة، وهو أمر مختلف فيه بينهم، ولا يقول به أحد من الشيعة، وربما الدليل الذي ذكر على ذلك هو الوحي الذي هو خاص بالأنبياء ﷺ، ويردّه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أُمُّ مُوسَى﴾ ^(١٢)، إلا إذا كان الوحي هنا بمعنى الإلهام، وقال ابن عطية الأندلسي: "وجمهور الناس على أنه لم تبا امرأة" ^(١٣).

ويقول الرازى في ردّه على دعوى نبوة مريم ﷺ: "اعلم أن مريم ﷺ ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى﴾ (يوسف: ١٠٩)، وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل ﷺ إليها إماً أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاضاً لعيسى ﷺ، وذلك

جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكريا عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل التفت في الروح والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليهما السلام في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْهَا مُوسَى﴾^(١٤). وورد من طرقنا تسمية الزهراء عليها السلام بالمحذفة، وأن الملائكة كانت تحدثها.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٥). وهي حسب الدعوى - صريحة على تفضيلها على جميع نساء العالمين، والبحث في هذه الآية طويل، وورد من طرقنا عن ابن عباس عن النبي عليهما السلام أن الملائكة ينادون فاطمة عليها السلام «بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾»^(١٦).

وعند الرجوع إلى كتب المفسرين فإن أكثرهم يقولون بأن الاصطفاء الثاني لمريم عليها السلام خاص بزمانها، أو مع ذكر احتمال كل الأزمان من دون ترجيح أيهما الأظهر. وإليك بعض تلك الكلمات:

١- الطبراني في جامع البيان: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتكم إياه، ففضلكم عليهم، "عن ابن جريج: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ذلك للعالمين يومئذ"^(١٧).

٢- السدي: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قال: على نساء ذلك الزمان الذي هم فيه^(١٨).

٣- الواحدي: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، على عالمي زمانك^(١٩).

٤- النحاس: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. فيه قولان: أحدهما: أن المعنى على أهل زمانها، والقول الآخر على جميع النساء بعيسى، فليس مولود ولد من غير

ذَكْرٌ إِلَّا عِيسَى عَلَيْهِ الْكَلَمُ

- ٥- **الجحّاص:** "قيل: في قوله: ﴿اصْطَفَاك﴾: اختارك بالفضل على نساء العالمين في زمانهم"، يروى ذلك عن الحسن وابن جريج، وقال غيرهما: "معناه أنه اختارك على نساء العالمين يحال جليلة من ولادة المسيح"^(٢١).
- ٦- **البغوي:** "﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، قيل: على عالم زمانها، وقيل على جميع نساء العالمين في آنها ولدت بلا أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحرير في المسجد ولم تحرر"^(٢٢).
- ٧- **ابن الجوزي:** "وفي هذا الاصطفاء الثاني أربعة أقوال: أحدها: أنه تأكيد للأول. والثاني: أنّ الأول للعبادة. والثالث: لولادة عيسى عليه السلام، والثالث: أنّ الاصطفاء الأول اختيار منهم، وعموم يدخل فيه صالح من النساء، فأعاد الاصطفاء لفضليتها على نساء العالمين. والرابع: أنه لما أطلق الاصطفاء الأول، أبان بالثاني أنها مفضليتها على النساء دون الرجال. قال ابن عباس، والحسن، وابن جريج: اصطفها على عالم زمانها. قال ابن الأنباري: وهذا قول الأكثرين"^(٢٣).
- ٨- **الشوكتاني:** "والمراد بالعالمين هنا قيل نساء عالم زمانها وهو الحق، وقيل نساء جميع العالم إلى يوم القيمة، واختاره الزجاج، وقيل الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول، والمراد بهما جميماً واحداً"^(٢٤).
- ٩- **الآلوسي:** "وقيل: المراد نساء عالمها، فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر من طريق مقاتل عن الصحاكم عن ابن عباس عن النبي عليه السلام أنه قال: «أربع نسوة سادات عالمهن، مريم بنت عمران، وأسية بنت مزاحم، وخدجية بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد عليهما السلام وأفضلهن عالماً فاطمة»، وما رواه الحرص بن أسامة في (مسندته) بسند صحيح لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها» وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه وهو المشهور عن أئمة

أهل البيت -والذي أميل إليه- أن فاطمة البتول أفضل النساء المقدمات والتأخرات من حيث إنها بضعة رسول الله ﷺ، بل ومن حبيبات آخر أيضاً، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة؛ لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات وبحيثية من الحبيبات -وبه يجمع بين الآثار- وهذا سائغ على القول بنبوة مريم أيضاً، إذ البعضية من روح الوجود، وسيد كل موجود لا أراها تقابل بشيء، وأين الثريا من يد المتناول، ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة رضي الله تعالى عنها الذاهب إلى خلافها الكثير... وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي أن أفضل النساء فاطمة، ثم أمّها، ثم عائشة، بل لو قال قائل: إن سائر بنات النبي ﷺ أفضل من عائشة لا أرى عليه أساساً، وعندى بين مريم وفاطمة توقف، نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى العبيضة فقد علمت ما أميل إليه^(٢٥).

ثم على فرض كون الاصطفاء على جميع نساء العالم، فإنه اصطفاء بولادة المسيح عليه السلام من دون أب، وهذا لا يقتضي الاصطفاء في جميع الجوانب، ولا يقتضي أفضليّة السيدة مريم عليه السلام على السيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام. وعلى فرض التساوي أو حتى أفضليّة السيدة مريم عليهما السلام، لا شك أنّ الزهراء البتول عليهما السلام هي أفضل نساء هذه الأمة، فالسؤال يأني: هل تعامل الأمة معها عليهما السلام يتناسب مع مقامها الشامخ، أم بُخس حقها وإلى يومنا هذا؟!

أدلة العصمة:

وأكفي بضمون واحد من الروايات التي يمكن دعوى التواتر فيها، والتي لا يمكن أن ينكرها أحد من المسلمين، وقد جاءت بألفاظ مختلفة وفي موارد متعددة: في البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني»^(٢٦).

وفي المستدرك: "عن علي عليه السلام قال: «قال رسول الله عليه السلام لفاطمة: إن الله

يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢٧). وفيه أيضاً: «عن رسول الله ﷺ : إنما فاطمة شجنة مني، يسطني ما يسطها، ويقبحني ما يقبحها»، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢٨). ينابيع المودة عنه ﷺ : «إنما فاطمة بضعة مني، يسرني ما يسرها، ويعضني ما يغضبها»^(٢٩).

تكثّر هذا الحديث بصيغ مختلفة يدلّ على أنَّ هناك هدفًا كبيراً يريد أن يوصله النبي ﷺ هذه الأمة، وهو أنَّ فاطمة الزهراء علیها السلام قتلت الفاصل بين الحق والباطل، فالمواضع التي ترضى فيها يكون هو موضع الحق ومحله فيجب اتباعه، والمواضع التي لا ترضى فيها يكون موضع الباطل فيجب اجتنابه.

ولا يوجد منصف -لو تعن في هذه الأحاديث- إلا ويفهم منها عصمة الزهراء علیها السلام، فلا يمكن حمل فعل النبي ﷺ على العاطفة والمحاملة والمحاباة لابنته علیها السلام، بل لأنها علیها السلام لا تغضب إلا للحق، ولا ترضي إلا للحق.

تمييع الحديث:

وحاول أعداء الله أن يضرموا عصفوريين بحجر واحد كما يقال، فإنهم لما رأوا أنَّ هذا الحديث ثابت لا يمكن إنكاره لكثرته، غيرروا معناه وموارده الصحيح، فوضعوا أحاديث كاذبة تنتقص من أمير المؤمنين علیها السلام وفي نفس الوقت لا تكون للزهراء فيها فضيلة كبيرة وإن ذكروها في فضائلها علیها السلام، وهي أنَّ مورد هذا الحديث هو لما أراد علي علیها السلام أن يتزوج على الزهراء علیها السلام، والظاهر أنَّ كل الروايات عن المسور بن مخرمة. وعن أبي الوليد أنه قال: «إنما كان المسور بن مخرمة ابن ثمان سنين»^(٣٠).

ففي البخاري عن المسور بن مخرمة: «أنَّ علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا

عليٌّ ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: أما بعد فإني أنكحت أبو العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني وإن أكره أن يسوعها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد فترك علي الخطبة^(٣١).

وفي البخاري عن المسور بن مخرمة أيضاً: "أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: إنّ بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهما علي بن أبي طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنته وينكح ابنته، فإنما ابنتي بضعة مني يريني ما رابها، ويؤذني ما آذها"^(٣٢).

ونقل بعض علمائهم بعد نقل هذا الحديث عن "عمر بن داود وكان من النبلاء" يقول: لما قال النبي ﷺ: فاطمة بضعة مني، يريني ما رابها، ويؤذني ما آذها، حرم الله على علي أن ينكح على فاطمة عليهما فließ هيؤذني رسول الله ﷺ لقول الله عزوجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٣٣)، وهذا إقرار بضمون الحديث وإن كان مورده مكذوباً.

ولا يحتاج إلى رد على هذا الافتراء، وإنما نبيّن لهم الذي أراد أن يوصله النبي ﷺ للآمة.

مورد الحديث:

نقول: إنَّ الهدف من تأكيد النبي ﷺ لهذا الحديث هو ما كان يعلمه عليهما الله من الأحداث التي ستحدث من بعده، ف موقف الزهراء عليها السلام كان يمثل حجَّة على الأمة لو كانت الأمة تريد الحق، فالحق مع الزهراء ومع علي عليهما السلام، فأماماً على فأخرجوا روایات مكذوبة تقول بأنَّه قد بايع، لعلمهم بأنَّ عدم مبايعته يخدش في شرعية الخلافة. وأماماً حديث رضا فاطمة عليهما السلام فحاولوا تقييع مضمونه كما تقدم، ولكن لنرى البخاري ماذا ينقل لنا حول ذلك:

في البخاري: "عن عروة عن عائشة: أنّ فاطمة عليها السلام بنت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه مما أفاء الله عليه بالمدينة وفديك وما بقي من خمس خير فقال: أبو بكر إنّ رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قال: لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال، وإنّ والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ولأعملنّ فيها بما عمل به رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ستة أشهر، فلما توفيت دفتها زوجها علي ليلًا ولم يُؤذن بها أبا بكر وصلي عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر عليّ وجه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايته، ولم يكن يبایع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك كراهيّة لحضر عمر...".^(٣٤)

نضع هنا خطوطاً عريضة جداً على بعض التقاطات التي أثبتتها هذا الخبر، وفيه حقائق لا زال يكذبها الكثير؛ لأنّها -بالنسبة إليه- حقائق مرّة، ولكنه الواقع: فأولاً: الزهراء عليها السلام رحلت من الدنيا وهي واجدة (غاضبة) على أبي بكر، بل وهجرته فلم تكلمه حتى التحقت بربّها، ومن يتجرّأ ويقول بأنّ ذلك لمجرد قضية (فدي المادية) فقد ظلم سيدّة نساء العالمين.

ثانياً: موقف الزهراء عليها السلام وإصرارها على هجران الخليفة المهدى منه نزع الشرعية عن الخليفة، وأبقت عالمة مهمّة مدى الدهر لمن يبحث عن الحق، عندما أوصت علياً عليها السلام أن يصلّي عليها ويدفنهما سرّاً دون معرفة مكان قبرها حتى الآن، ولم يعلموا الخليفة الذي من المفترض أن يكون حاضراً في هذا الحديث المهم.

ثالثاً: يؤكّد هذا الخبر بأنّ أمير المؤمنين عليها السلام لم يبایع أبا بكر طوال هذه الفترة، وعبارة "فلما توفيت استنكر عليّ وجه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر

ومبايعته، ولم يكن يباع تلك الأشهر"، تدل على وجود الخصومة بين علي عليه السلام والقوم على مسألة الخلافة وليس أمراً آخر.

ولخطورة حديث (يرضى الله لرضاها) ودلالته المهمة على العصمة، نرى البعض ينفي غضب الزهراء عليها على الخليفة، رغم الروايات الواضحة، ومثال على ذلك كلام الألباني وابن كثير حول نص من هذه النصوص التي فيها مخاصمة بين الزهراء عليها وبين الخليفة، ونقله على طوله.

يقول الألباني: "حديث: إذا أطعم الله نبيا طعمة ثم قبضه فهو للذى يقوم بها من بعده". رواه (أبو بكر) حسن. أخرجه الإمام أحمد في "مسنده"، وكذا ابنه عبد الله في زوائدہ عليه، وأبو يعلى في "مسنده" من طريق الوليد بن جمیع عن أبي الطفیل قال: "ما قبض رسول الله عليه السلام، أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: «أنت ورثت رسول الله عليه السلام أم أهله»؟ قال: فقل: بل أهله، قالت: «فأين سهم رسول الله عليه السلام؟»؟ قال: فقال أبو بكر إني سمعت رسول الله عليه السلام يقول: إن الله إذا أطعم نبيا طعمة ثم قبضه، جعله للذى يقوم من بعده. فرأيت أن أرده على المسلمين، فقالت: «فأنت وما سمعت من رسول الله عليه السلام». قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال مسلم، غير أن ابن جمیع وهو عبد الله ابن الولید بن جمیع ضعفه بعضهم من قبل حفظه حتى قال الحكم -على تساهله- "لو لم يذكره مسلم في (صحیحه) لكان أولى" . وقال الحافظ في (التریب). "صدق، يهم، ورمي بالتشیع".

والحديث أخرجه أبو داود من هذا الوجه. وقال الحافظ ابن كثير في "تاریخه" بعد أن عزاه إليه وإلى أحمد: "ففي لفظ هذا الحديث غرابة ونکارة، ولعله روی بمعنى ما فهم بعض الرواية، وفيهم من فيه تشیع فليعلم ذلك، وأحسن ما فيه قوله: أنت وما سمعت من رسول الله عليه السلام، وهذا هو الصواب، والمظنون بها، واللائق بأمرها، وسيادتها، وعلمهها، ودينها لأنعننا، وكانتها سأله بعد هذا أن يجعل زوجها ناظراً على

هذه الصدقة، فلم يج بها إلى ذلك لما قدمناه، فعتبت عليه بسبب ذلك، وهي امرأة من بنات آدم، تأسف كما يأسفون وليس بواجهة العصمة، مع وجود نصّ رسول الله ﷺ ومخالفه أبي بكر الصديق رضي الله عنهها. وقد روينا عن أبي بكر رضي الله عنه أنه ترضي فاطمة وتلائنهما قبل موتها، فرضيت^(٣٥).

ملحوظات سريعة على هذا الكلام:

أولاً: إنّ الألباني عنون الحديث بما نقله أبو بكر عن النبي ﷺ، ولعلّ ذلك لصرف النّظر عن المضمون الأهمّ في الرواية.

ثانياً: رغم عدم تفصيل الرواية لما حدث، ورغم صحة السند بطريق مسلم، نرى التشكيك في صحة السند.

ثالثاً: ربط المسألة بالتشيع، كقول ابن كثير: "وَفِيهِ تَشْيِعٌ، فَلَيُعْلَمْ ذَلِكَ" ، وكأنه أدرك أنّ رضا الزهراء علیها السلام مهمن في شرعية الخلافة، ولذلك قال: "وقد روينا عن أبي بكر خليفة أنّه ترضي فاطمة وتلائنهما قبل موتها، فرضيت"؛ لأنّه يعلم أنّ سخطها يسحب الشرعية من الخلافة فيثبت ما يقوله الشيعة، ولذلك قال: "ففي لفظ هذا الحديث غرابة ونکارة".

رابعاً: محاولة ابن كثير تحريف ما يفهم من عدم رضا الزهراء علیها السلام بما أجابه أبو بكر، حيث ردّت عليه قائلة: «فَأَنْتَ وَمَا سمعتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

العلاقة بين الزهراء علیها السلام وبين أبيها علیه السلام:

ميّز الله الزهراء علیها السلام بشبه النبي علیه السلام في الخلق والخلق، فهي تشبهه في الحديث والكلام روى أبو داود في سننه: عن عائشة أنها قالت: «ما رأيت أحداً كان أشبه سمتاً وهدياً ولداً، وقال الحسن: حديثاً وكلاماً، ولم يذكر الحسن السمت والهدى والدل، برسول الله علیه السلام من فاطمة كرم الله وجهها: كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت



بيده فقبّلته وأجلسه في مجلسها»^(٣٦).

وفي المستدرك عن عائشة: "ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت إذا دخلت عليه رحّب بها، وقام إليها، فأخذ بيدها، فقبّلها، وأجلسها في مجلسه". هذا حديث صحيح على شرط الشيفيين ولم يخرجاه^(٣٧). وهي عَلَيْهَا تشبه أباها عَلَيْهِ وَسَلَامٌ في المشيّة، روى البخاري ومسلم واللفظ للأول عن عائشة: "أقبلت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشي النبي عَلَيْهِ وَسَلَامٌ"^(٣٨). وعن عائشة: "ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة"^(٣٩). وفي المستدرك عن عائشة أيضاً: "ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي ولدتها"، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(٤٠).

ولهذه الصفات وغيرها مما حازت عليها الزهراء البتول عَلَيْهَا كأن النبي عَلَيْهِ وَسَلَامٌ يجلّها ويعظمها كما في الروايات المتقدّمة، وكان يكثر من تقبيلها حتى أمام زوجاته، وكان إذا خرج من المدينة كان آخر من يودّعه فاطمة عَلَيْهَا، وإذا رجع كان أول من يستقبله فاطمة عَلَيْهَا، لا لكونها ابنته، ولكن ليبين للناس عظمتها عند الله تعالى.

زواج الزهراء عَلَيْهَا:

تتميّز الزهراء عَلَيْهَا على نساء العالمين في زواجهها، حيث إنّ زواجهها كان بيد الله تعالى، وهو سبحانه الذي زوّجها من السماء، وهذا في رواياتنا أمر واضح، فلننظر إلى روايات العامة.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله [علي]: «إن الله زوّجك فاطمة وجعل صداقها الأرض، فمن مشي عليها مبغضاً لك، مشي حراماً»^(٤٠).

وفي رواية أخرى أنه عَلَيْهِ وَسَلَامٌ قال لعلي عَلَيْهَا: «إن الله عَزَّ ذِي جَلَّ أمرني أن أزوّجك فاطمة على أربعين مثقال فضة»^(٤١).

وقال رسول الله ﷺ أيضًا: «يا علي: إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإنني قد زوجتكها على أربعمائة مقابل فضة فقال: قد رضيت يا رسول الله ﷺ، ثم إن علياً خرَّ لله ساجداً شاكراً، فلما رفع رأسه قال له رسول الله ﷺ: بارك الله لكما، وبارك فيكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب»، قال أنس بن مالك: والله لقد أخرج الكثير الطيب^(٤٢).

وغيرها من الروايات التي تدلُّ على أنَّ الله هو الذي اختار عليها لفاطمة عليها السلام، وإن كانت بعض هذه الروايات ضعيفة سندًا عند العامة، ولكن تنوعها يوجب الاطمئنان بصدورها، ومن المعلوم لكل مسلم أنَّ الله تعالى لا يحابي ولا يجامل أحدًا.

وما لفت نظري عند البحث وجود رواية عنه عليهما السلام أنه قال لعثمان: إن الله أمرني أن أزوجك ابنتي أم كلثوم!!!

فاطمة عليها السلام يوم المحشر:

ما تقدَّم يدلُّ على مكانة الزهراء عليها السلام عند الله وعند رسوله ﷺ، وهذه المكانة تتجلَّ يوم القيمة، والروايات في ذلك كثيرة:

عن الشعبي عن أبي جحيفة عن علي عليهما السلام قال: «قال النبي ﷺ: إذا كان يوم القيمة، قيل: يا أهل الجمع غضواً أبصاركم لتمر فاطمة بنت رسول الله ﷺ فتمر عليها ريطان خضراون»، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه^(٤٣).

وفي حديث آخر عن علي عليهما السلام قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: إذا كان يوم القيمة نادى مناد من وراء الحجاب يا أهل الجمع غضواً أبصاركم عن فاطمة بنت محمد ﷺ حتى تمر»، هذا حديث صحيح على شرط الشيفيين ولم يخرجه^(٤٤). وهذا يدل على أنها فعلاً سيدة نساء العالمين كما تقدم.

الزهراء عليها السلام أول من يدخل الجنة:

وما يدل على مكانتها عليها السلام بحيث تقدم على غيرها، حتى على الأنبياء عليهم السلام، أنها من أوائل من يدخل الجنة، روى الحاكم في المستدرك عن عاصم بن ضمرة عن علي عليه السلام قال: «أخبرني رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: أنَّ أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة والحسن والحسين، قلت: يا رسول الله فمحبونا؟ قال: من ورائكم» صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(٤٥).

وعن أبي هريرة عنه صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أول من تدخل الجنة فاطمة بنت محمد، مثلها في هذه الأمة مثل مريم بنت عمران في بني إسرائيل» ^(٤٦).

وما يدل على كون هذه المكانة مكانة إلهية، لا علاقة لها بمسألة النسب وكون الزهراء عليها السلام ابنة لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ما ورد عنه صلوات الله عليه وآله وسلامه أنه قال: «إنا سميت ابنتي فاطمة؛ لأنَّ الله تعالى فطمها وقطم عيبيها من النار» ^(٤٧).

ففاطمة عليها السلام فرع من فروع النبوة والرسالة، وقد روى صاحب المستدرك رواية مهمة، وإن قال عن مضمونها أنه (متن شاذ)، ولكن من يعرف عظمة الزهراء عليها السلام لا يستكثر ذلك، والرواية هي عن ميناء بن أبي ميناء مولى عبد الرحمن بن عوف قال: "خذوا عني قبل أن تشاب الأحاديث بالأباطيل، سمعت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يقول: «أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنة عدن، وسائر ذلك في سائر الجنة»، هذا متن شاذ، وإن كان كذلك فإن إسحاق الدبري صدوق وعبد الرزاق وأبوه وجده ثقات وميناء مولى عبد الرحمن بن عوف قد أدرك النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وسلم، وسمع منه، والله أعلم" ^(٤٨).
هذا مقدار يسير مما ورد في فضائلها عليها السلام من طرق العامة، نسأل الله أن يرزقنا في الدنيا زيارتها، وفي الآخرة شفاعتها. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

- (١) البخاري، ج ٤، ص ٢٠٩.
- (٢) المستدرك، ج ٣، ص ١٥٦.
- (٣) مسند أحمد، ج ٧، ص ٢٨٢، وقريب منه في البخاري، ج ٤، ص ١٨٣. ومسلم، ج ٧، ص ١٤٣-١٤٢.
- (٤) مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٩١، وفضائل الصحابة للنسائي، ص ٥٨، و٧٦. وذكر المقطع الأخير ابن أبي شيبة في المصنف، ج ٧، ص ٥١٢، والهيثمي في موارد الظمان، ج ٧، ص ١٧٢.
- (٥) سنن الترمذى، ج ٥، ص ٣٢٦.
- (٦) المستدرك، ج ٤، ص ٤٤.
- (٧) فاطمة والمفضلات من النساء، عبد اللطيف البغدادي، ص ١٢٤.
- (٨) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ج ٢، ص ٦٨.
- (٩) سبل الهدى والرشاد للشمامي، ج ١٠، ص ٣٢٧.
- (١٠) سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي، ج ١١، ص ١٦٢-١٦٣.
- (١١) التفسير الحميس لابن حيان، ج ٢، ص ٤٧٦-٤٧٧.
- (١٢) القصص: ١١.
- (١٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ١، ص ٤٣٤.
- (١٤) تفسير الرازي، ج ٨، ص ٤٥.
- (١٥) آل عمران: ٤٢.
- (١٦) أمالى الصدوقي، ص ٥٧٥.
- (١٧) جامع البيان للطبرى، ج ٣، ص ٣٥٧-٣٥٩.
- (١٨) تفسير ابن أبي حاتم، ج ٢، ص ٦٤٧.
- (١٩) تفسير الواحدي، ج ١، ص ٢١٠.
- (٢٠) معاني القرآن للنحاس، ج ٣، ص ٣٩٨.
- (٢١) أحكام القرآن للجصاص، ج ٢، ص ١٦.
- (٢٢) تفسير البغوى، ج ١، ص ٣٠٠.



- (٢٣) زاد المسير، لابن الجوزي، ج ١، ص ٣٢٩.
- (٢٤) قتح القدير للشوکاني، ج ١، ص ٣٣٨.
- (٢٥) تفسير الآلوسي، ج ٣، ص ١٥٦.
- (٢٦) البخاري، ج ٤، ص ٢١٠.
- (٢٧) المستدرك، ج ٣، ص ٥٤.
- (٢٨) المستدرك، ج ٣، ص ٥٤.
- (٢٩) ينابيع المودة، ج ٢، ص ٥٧.
- (٣٠) فضائل سيدة النساء، لعمر بن شاهين، ص ٣٢-٣٦.
- (٣١) البخاري، ج ٤، ص ٢١٢.
- (٣٢) مسلم، ج ٧، ص ١٤١.
- (٣٣) فضائل سيدة النساء، لعمر بن شاهين، ص ٣٢-٣٦.
- (٣٤) البخاري، ج ٥، ص ٨٣.
- (٣٥) إرواء الغليل، للألباني، ج ٥، ص ٧٧.
- (٣٦) سنن أبي داود، ج ٢، ص ٥٢٢.
- (٣٧) المستدرك، ج ٣، ص ١٥٤.
- (٣٨) البخاري، ج ٩، ص ٢٠٣، مسلم، ج ٧، ص ١٤٣.
- (٣٩) مجمع الزوائد للهيثمي، ج ٩، ص ٢٠١.
- (٤٠) المناقب للموفق الخوارزمي، ص ٣٢٨.
- (٤١) تحفة الأحوذى، المباركفوري، ج ٤، ص ٢١٦.
- (٤٢) نظم در السمطين، ص ١٧٨.
- (٤٣) المستدرك، ج ٣، ص ١٦١.
- (٤٤) المستدرك، ج ٣، ص ١٥٣.
- (٤٥) المستدرك، ج ٣، ص ١٥١.
- (٤٦) ينابيع المودة، ج ٢، ص ٣٢٢.
- (٤٧) ينابيع المودة، ج ٢، ص ٣٢٠.
- (٤٨) المستدرك، ج ٣، ص ١٦٠.



آية الفيء (فدل)

الشيخ محمد عباس الجرجاني

قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَى فَلَلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

ذكر المفسرون والمحدثون والمؤرخون سبب نزول هذه الآيات بما خلاصته: أنه كانت في المدينة تعيش ثلث قبائل من اليهود، وهم بنو النظير، وبنو قريطة،

وبنوا قينقاع، ويذكر أنهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلاً، وإنما قدموا إليها واستقرّوا فيها، وذلك لما قرأوه في كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبيٍّ في أرض المدينة حيث كانوا بانتظار هذا الظهور العظيم.

وعندما هاجر الرسول الأكرم ﷺ إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرّض كلّ منهما للآخر، إلا أنهم كلّما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهداً في نقض العهد، ومن جملة ذلك أنهم نقضوا العهد بعد غزوة أحد التي وقعت في السنة الثالثة من الهجرة، فقد ذهب كعب الأشرف زعيم قبيلة بني النمير مع أربعين فارساً إلى مكة، وهناك عقد مع قريش حلفاً لقتال النبي ﷺ ثم دخل أبو سفيان مع أربعين شخصاً وكعب الأشرف مع أربعين نفر من اليهود، ودخلوا معاً إلى المسجد الحرام ووثّقوا العهد في حرم الكعبة، فعلم النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي، ولهم مؤامرة أخرى وهي أنّ رسول الله ﷺ دخل يوماً مع شيوخ الصحابة وكبارهم إلى حيٍّ بني النمير، وذلك بحجة استقراض مبلغ من المال منهم كدية لقتيلين من طائفة بني عامر، وقد قتلهمما عمر بن أمية أحد المسلمين، وربما كان الهدف من ذلك معرفة أخبار اليهود عن قرب حتى لا يباغت المسلمون بذلك، فبينما كان رسول الله ﷺ يتحدث مع كعب الأشرف إذ حيكت مؤامرة يهودية لاغتياله رسول الله ﷺ؛ إذ قال بعضهم: إِنَّهُ عَلَيْهِ الْأَذْلَامُ بَعِيدٌ عَنْ قَوْمِهِ وَهُوَ جَالِسٌ بِالْقَرْبِ مِنْ حَاطِطِكُمْ فَلِيذْهَبْ أَحَدُكُمْ إِلَى السَّطْحِ وَيَرْمِهِ بِحَجْرٍ عَظِيمٍ وَيَرْيحَنَا مِنْهُ، فقام عمر بن جحاش وأبدى استعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامي إلا أنّ رسول الله ﷺ علم عن طرق الوحي بذلك فعاد إلى المدينة دون أن يتحدث بمحدث مع أصحابه إلا أنّ الصحابة تصوروا أنّ رسول الله ﷺ سيعود مرة أخرى، ولما عرفوا فيما بعد أنّ الرسول ﷺ في المدينة عادوا إليها أيضاً، ولما علم الرسول ﷺ نقض العهد أمر ﷺ قومه ليسعدوا لقتالهم، وأول

ما بدأ به الرسول ﷺ أتاه عَزَلَةٌ وَآتَاهُ كُعبَ الأشرف زعيم اليهود وكانت بينهما الأخوة بالرضاعة فقتله، وبهذا أوجدت هزة وتخلل في صفوف اليهود، ومن ثم تحرك المسلمين لقتالهم، ولما أحسوا بذلك لجأوا إلى قلاعهم المحكمة وحصونهم القوية وأحکموا الأبواب، فحاصرهم المسلمون ثلاثة أيام ومنعاً لسفك الدماء اقترح رسول الله ﷺ أن يتركوا ديارهم وأراضيهم ويرحلوا من المدينة فوافقوا على هذا، وحملوا مقداراً من أموالهم تاركين القسم الآخر حيث استقر قسم منهم في أذرعت الشام، وقليل منهم في خير وجاءة أخرى في الحيرة، وتركوا بقية أموالهم وأراضيهم وبساتينهم وبيوتهم بيد المسلمين، وكانت هذه الحادثة بعد غزوته أحد بستة أشهر، وقال بعض: إنها وقعت بعد غزوته بدر بستة أشهر.

ولقد ذكرت الآية ذلك في أول سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوْلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ مَا يَعْتَهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ بِيُوْتِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ﴾^(٢).
فهؤلاء كانوا مغرورين إلى حدّ أنهن اعتمدوا على حصونهم المنيعة وقدرتهم المادية الظاهرية، ولكن الله تعالى يريد أن يبيّن للجميع أن لا قوة في الوجود تقاصم إرادته، فإن إخراج اليهود من ديارهم وأراضيهم بدون حرب دليل على قدرته تعالى وتحدى لليهود الذين ظنوا أن حصونهم مانع لهم من الله تعالى، وهذا الجيش غير المرئي هو جيش الخوف الذي يرسله تعالى في كثير من الحروب لمساعدة المؤمنين كما جاء في غزوته بدر ﴿سَأَلَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ﴾^(٣)، وجاء في الحديث عنه ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، وهذا الرعب ليس فقط لمن كان يواجهه بل أصاب حتى من كان عنه بعيداً مسيرة

شهر، وجاء في الحديث أن ثلاثة جيوش تحت أمر الإمام المهدي عليه السلام «الملاك، المؤمنون، والرعب».

ومن الخوف الذي أدخل في قلوبهم أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم من داخل الحصن لأجل أن لا يقع شيء مفید منها بأيدي المسلمين، أو لأجل أن ينسد الطريق على المسلمين كي لا يصلوا إليهم، وكان المسلمون يخربون الحصون من الخارج، فالنتيجة أنهم وقعوا بيد المسلمين من دون سفك دم فانكسرت شوكتهم وتركوا أموالهم وخرجوا من المدينة، ولا شك في أن الجلاء عن الوطن وترك قسم كبير من الأموال بيد المسلمين هو بحد ذاته أمر مؤلم لهم، إذن في الوقت التي تعتبر القوى المادية أكبر سلاح لتحقيق الانتصار من وجهة نظر طلاب الدنيا نجد أن الجيوش اللامرئية أكثر قوة وانتصارا.

هذا وتفيد الآية أن الأرض التي لم يوجد فيها بخيل ولا ركاب خاصة بالرسول عليه السلام من دون المسلمين، قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَىٰ فَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ...﴾.

وقال السيوطي في تفسيره^(٤) "أنها كانت خاصة لرسول الله عليه السلام؛ فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم، ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدداً في سبيل الله".

ثم قال: "أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وداود والترمذى والنمسائى وابن المنذر عن عمر بن الخطاب: كان لرسول الله عليه السلام صفايا بني النضير وخبير وفك."

وذكر السيوطي في تفسيره عند تفسير آية ﴿وَأَتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، من سورة الإسراء^(٥) حديثاً عن أبي سعيد الخدري «أنه لما نزلت الآية دعا رسول الله عليه السلام فاطمة؛ فأعطتها فدكاً».

وحدثنا آخر عن ابن عباس قال: «لما نزلت الآية أقطع رسول الله فاطمة فدكاً».

وهذا يكفينا في الرد على نفس السيوطي^(٦) في قوله: وأخرج أبو عبيد في

كتاب الأموال وعبد الحميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والتسائى... عندما اعترض عليٌّ وابن عباس في قضية فدك، واعترض عمر عليهما أمام عثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير وعبد الرحمن بن عوف قائلاً: أنسدكم بالله أيها الرّهط هل سمعتم رسول الله ﷺ قال: «إِنَّا لَا نُنَوِّرُ مَا تَرَكَاهُ صَدْقَةً، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُنَوِّرُ»، فقال القوم: نعم سمعنا ذاك، ومن ثم أشهد علياً والعباس على كلامه فقالوا: نعم، ثم حدث عمر قومه إنَّ الله خص نبيه من هذا الفيء بشيء لم يعطه غيره، يريد أموال بني النمير كانت نفلاً لرسول الله ﷺ ليس لأحد فيها حق معه.... إلى أن قال عمر: فكان رسول الله ﷺ يدخل منه قوت أهله لسنتهم... إلى آخر كلامه.

مع أنّا نقول أولاً: سيأتي عن قريب البحث عن هذا الحديث (ما تركناه صدقة).

وثانياً: اعترفتم أنّها كانت خاصة لرسول الله ﷺ ولما نزلت الآية ﴿وَاتَّذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، أعطى رسول الله فاطمة فدكاً وهي حقه يفعل به ما يشاء؛ لأنّه أمر إلهي لا يمكن أن يتخلّف عنـه، وذلك جزء لما صرفت أمها خديجة أم المؤمنين من أموالها لأجل الإسلام، فإذاً هذه الأموال صارت ملكاً خاصة لفاطمة ﷺ فكيف تؤخذ منها.

وثالثاً: عندما توفي الرسول ﷺ كانت فدك تحت ملكية فاطمة، ولا تحتاج أن تقيم البينة لقاعدة اليد، وهذه القاعدة قاعدة فقهية معروفة، وإلا فلا بد أن تلتزم أنَّ على كل واحد منا أن يثبت للآخر أن ما تحت يده ملكه من المنزل وغيره، وذلك يوجب الاختلال في النظام، هذا والسير العقلائية جرت على خلاف ذلك.

رابعاً: قلنا: إنَّ صاحب اليد لا يحتاج أن يقيم البينة، ولكن مع ذلك أقامت

فاطمة عليها السلام وأثبتت مدعاهما بالبيّنة الشرعية إضافة إلى ثبوته بقاعدة اليد^(٧) احتجاجاً على القوم لأنّهم طالبواها بالبيّنة، وليت شعرى ألم يعرفوا طهارة فاطمة ومنزلتها وأنّها الصديقة، بلى عرروا ذلك وكان يكفي في تصديقها، بل كانوا على يقين أنّها صادقة، ومع ذلك طالبواها ولما جاءت بالشهود -زوجها أمير المؤمنين والحسن والحسين وأم أيّن -أبوا عن قبول شهادتها.

وذكر الحموي في معجمه^(٨) قضية فدك، وكذا ذكرها البلاذري في فتوح البلدان^(٩):

"ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب بعده لـما ولـي الخلافة وفتـحت الفتوح واتسـعت على المسلمين أن يرـدـها إلى ورثـة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـكان عليـ بن أبي طـالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعـباسـ بن عبد المـطلبـ يتـازـعـانـ فـيـهاـ، فـكانـ عـلـيـ يـقـولـ: إـنـ النـبـيـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جـعلـهـاـ فـيـ حـيـاتـهـ لـفـاطـمـةـ، وـكـانـ العـبـاسـ يـأـبـيـ ذـلـكـ وـيـقـولـ: هـيـ مـلـكـ لـرـسـولـ اللهـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وـأـنـاـ وـارـثـهـ، فـكـانـاـ يـتـخـاصـمـانـ إـلـىـ عـمـرـ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فـيـأـبـيـ أـنـ يـحـكـمـ بـيـنـهـمـ وـيـقـولـ: أـنـتـمـ أـعـرـفـ بـشـأنـكـمـ أـمـّـاـ أـنـاـ فـقـدـ سـلـمـتـهـ إـلـيـكـمـ".

أقول: أـمـّـاـ العـبـاسـ فـلاـ يـحـقـ لـهـ مـطـالـبـ الإـرـثـ مـنـ الرـسـولـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـعـ وـجـودـ فـاطـمـةـ فـهـيـ تـحـجـبـهـ إـذـ مـعـ وـجـودـ الطـبـقـةـ الـأـوـلـىـ لـاـ تـصـلـ النـوـبـةـ إـلـىـ الـعـمـ وـالـخـالـ وـهـمـ مـنـ الطـبـقـةـ الـثـالـثـةـ، وـأـمـّـاـ بـعـدـ فـاطـمـةـ فـهـوـ زـوـجـهـ وـوـلـدـيهـ الـحـسـنـ وـالـحـسـينـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وـبـنـاتـهـ، وـالـشـيـءـ الـآـخـرـ أـنـهـ لـوـ كـانـ هـذـاـ حـقـ الـمـسـلـمـينـ كـمـاـ قـالـ أـبـوـ بـكـرـ لـفـاطـمـةـ عَلَيْهِا السَّلَامُ (نـحـنـ مـعـاـشـ الـأـنـبـيـاءـ لـاـ نـورـثـ مـاـ تـرـكـنـاهـ صـدـقـةـ) فـكـيفـ يـرـجـعـهـاـ عـمـرـ إـلـىـ بـنـيـ هـاشـمـ وـيـحـرـمـ الـمـسـلـمـينـ مـنـهـا!! إـذـاـ هـذـاـ دـلـيلـ عـلـىـ أـنـ فـدـكـ كـانـ خـاصـةـ بـالـرـسـولـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وـأـعـطـاهـاـ فـاطـمـةـ فـيـ حـيـاتـهـ، وـتـكـفـيـ شـهـادـةـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وـفـاطـمـةـ عَلَيْهِا السَّلَامُ عـلـىـ ذـلـكـ؛ فـإـنـهـمـ الصـادـقـانـ الـمـصـدـقـانـ، ثـمـ لـوـ لـمـ يـكـنـ مـلـكـاـ لـفـاطـمـةـ فـكـيفـ رـدـ الـخـلـيـفـةـ الـأـمـوـيـ عـمـرـ بـنـ الـعـزـيزـ فـدـكـ إـلـىـ وـلـدـ فـاطـمـةـ، ولـماـ

استلم الخليفة يزيد بن عبد الملك أخذها فلم تزل في يد بني أمية إلى أن جاء دور أبي العباس السفاح فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان هو القيم عليها يفرّقها في بني عليّ بن أبي طالب، فلما ولي المصور الدوانيقي وخرج عليه بنو الحسن أخذها منهم، ولما ولي المهدى بن المنصور أعادها عليهم، ثم أخذها عنهم موسى الهادى ومن بعده إلى أيام المؤمن فجاءه رسول بني عليّ بن أبي طالب فطالب بها، فأمر المؤمن بأن تسجل لهم فدكاً، فكتب السجل وقرئ على المؤمن، فقام دعبد الخزاعي خطيبه وأنشد شعره وذلك في سنة ٢٠١ هـ.

أصبح وجه الزمان قد ضحكا بِرَدْ مأمون هاشم فدكا

وجعل المؤمن فدكاً والعوالى في يد محمد بن يحيى بن الحسين بن علي بن علي بن الحسين عليهما السلام ليعمراها ويستغلها ويقسم دخلها بين ورثة فاطمة عليهما السلام.^(١٠)
ثم لما ولي الخليفة جعفر المتوكّل العباسي أخذها منهم إلى يومنا هذا، فغضب حق آل الرسول وذويه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمٌ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(١١).

وقال الباقر عليه السلام: «ما أيسر ما يدخل به العبد النار؟ قال: من أكل من مال اليتيم درهماً، ونحن اليتيم»^(١٢).

فكيف بن يأكل أموال يتامي محمد عليهما السلام فإنّ خصمه في يوم القيمة جدهم محمد عليهما السلام وجدّتهم فاطمة عليهما السلام وعليّ عليهما السلام وسوف يحرم من شفاعتهم، أما ما قاله الحمويني في معجم البلدان عن فدك من أنه أدى اجتهاد عمر ردها إلى ورثة رسول الله عليهما السلام وأنه تنازع على أبي العباس أمّا عمر فيها ومثله في لسان العرب لأنّ منظور؛ إذ قال: إنّ عمر سلمها إليهما فهو غير تام.

والتحقيق: أنّ الذي ردّه عمر عليهما وكانا يتنازعان فيه هو الحوائط السبعة

التي وهبها له عليه وآله خيرق اليهودي من بنى النمير - قال السمهودي عنه في كتابه وفاة الوفاء^(١٣) كان خيرق اليهودي حبراً عالماً بالنبي عليه وآله - وهي المعتبر عنها بصدقة النبي بالمدينة.

وما أفاء الله على رسوله... فلم يرجع عمر فدكاً بل أرجع الحوائط السبعة لا فدك.

وذكر البخاري -باب فرض الخمس من كتاب الجهاد- وأحمد في مسنده^(١٤): "دفعها عمر إلى علي وعباس، فأماماً خبير وفديك فأمسكهما عمر، وقال: هما صدقة رسول الله عليه وآله كانت لحقوقه التي تعرّوه ونوابه، وأمرهما إلى من ولّ الأمر، وإنما أعطى عمر سهم بنى التمير المسمى بصدقة الرسول؛ لأنّه لما صارت في الفيء سعة، وكثير خمس الفنائم، واتسعت البلاد، وزادت الأموال والخارج، وجعل عمر لكل واحدة من أزواج النبي عليه وآله عطاء من بيت المال، ورد سهم بنى التمير إلى علي وعباس، وجعلها فيهم ليعملوا بها كيف يشاءان"، فإذاً لم يرجع عمر فدكاً على فاطمة، ويكفيانا قول أمير المؤمنين عليه وآله في رسالته إلى عثمان بن حنيف عامله بالبصرة قائلاً له: «... بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين. ونعم الحكم الله»^(١٥).

وهذا دليل على أنّ فدكاً غصبت من أهل البيت بعد رسول الله عليه وآله ولم تردد عليهم في أيام الخلفاء الثلاثة.

ويؤيد ذلك أنه لما ولّ عمر بن العزيز الخلافة أرجع فدكاً على أولاد فاطمة عليه وآله وكتب إلى واليه بالمدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك فنقمت بنو أمينة ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه وقالوا: هجّنت فعل الشيدين، فقال لهم: جهّلتكم وعلمتُ، ونسيتم ذكرتُ، فحدّثتهم بحدث رسول الله عليه وآله في شأن فاطمة بنت رسول الله عليه وآله، قال عليه وآله في حقها: «فاطمة بضعة مني



يسخطني ما أُسخطها، ويرضيني ما أرضها».

فهذا دليل على أن الشيوخين لم يرداً فدكاً على فاطمة أو أبنائها، ولو أن عمر بن الخطاب ردها عليهم لاستدل بفعله عمر بن العزيز على صحة ردها إلى ولد فاطمة عليها السلام.

نكتة طفيفة: فيما ذكر من تخاصم علي عليه السلام والعباس عند عمر بن الخطاب، وأن العباس كان يقول هي ملك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا وارثه، وكان علي عليه السلام يقول: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقفها على خصوص فاطمة عليها السلام، فقال عمر لها: أنتما أعرف بشأنكم، أمّا أنا فقد سلمتها إليكما^(١٦) - أن نزاعهما كان صوريًا أرادا من عمر أن يحكم لأحدهما على الآخر حتى يحتججا على عمر بما حكم، فإن حكم علي عليه السلام فقد أقرّ بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلها لفاطمة في حياته فكيف غصبها من أبو بكر وأعانه عمر على ذلك، وإن حكم للعباس أقر بالميراث، وقد أنكره أبو بكر برواية (لا نورث) وساعدته عمر على ذلك، ولذا لم يحكم بينهما لثلا يقع في أحد المذورين^(١٧).

يقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود - الكاتب المصري الشهير - في مقدمته لكتاب فدك للسيد الفزويني: إن أرض فدك - نحلة أو ميراثاً - هي حق خالص لفاطمة لا يكن المارة فيه.... ثم قال: وإن طغى حديث "لا نورث".

حق أن نتساءل لماذا لم يعلن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها حديثه هذا فيتصدق بها على قيد حياته؟ ولقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يملك قبيل وفاته سبعة دنانير خاف أن يقapse الله وهي في حوزته فأمر أهله أن يتصدقوا بها، وألح عليهم ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنه هذه»، ثم أمر فتم التصدق بها على القراء، فهل يمكن القول بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لم يغفل عن الدنانير على قتلها يغفل أمر الأرض وهي أكثر بكثير. وجاء في التنزيل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ

وَأَفْضَلَهُ وَكَا يُنْفَعُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٨﴾ .

كلا لم يتصدق محمد بفديك لأنها لا تقع في مجال تطبيق ذلك الحديث المنقول عن أبي بكر، فلم تكن ملكاً له. بل كانت ملكاً لسواء... ملكاً لابنته الزهراء، لم ينazuها في ملكها أحد من الناس في حياة النبي ﷺ.

أقول: خصوصاً بعد ما تلى عليهم ﴿وَاتِّ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، وأمّا بعد مماته فلم ينazuها أحد من الناس إلا أبي بكر نزعها من يدها وطالها بالبينة، وصاحب اليد لا يطالب بالبينة والشهود، وحديث (لا نورث) لم يذكره غير أبي بكر، مدّعياً أنه سمع الحديث من الرسول ﷺ، وأمّا عمر بن الخطاب فينقل الحديث عن أبي بكر ولا يدّعى أنه سمعه من الرسول ﷺ، فإذا كانت الصدقة التي قيمتها سبعة دنانير للرسول ﷺ يؤكّد عليهم بإنفاقها ولم يسترح باله وهو في حالة مرض الموت حتى وضعت الصدقة في يده ثم ألم بإنفاقها فكيف بفديك التي تقدر بالدنانير والدرّاهم، ولم يخبر النبي ﷺ بقية أصحابه، وليس من اللازم على الأقل أن يخبر علياً ﷺ بهذا الأمر الخطير، هذا على ﷺ يقول: «عَلَمْنِي رَسُولُ اللهِ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا يَفْتَحُ أَلْفَ بَابًا»، فهل من المعقول أن يسكت الرسول عن هذه القضية الخطيرة وهو يعلم أنه ستقع المنازعات بين أهله والمسلمين، بالله عليك حكم عقلك وضميرك.

ويقول الشيخ محمود أبو ريه في كتابه ^(١٩) أبو هريرة شيخ المضير، ونشرها في مجلة الرسالة المصرية العدد ٥١٨ من السنة الحادية عشر عن موقف أبي بكر من الزهراء في هذا الميراث: "إتنا إذا سلمنا بأنّ خبر الأحاداد الظنّي يخصّص الكتاب القطعيّ، وأنّه قد ثبت أنّ النبي ﷺ قال: (لا نورث)، وأنّه لا تخصيص في عموم هذا الخبر فإنّ أبي بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة عليها السلام بعض تركة أبيها لأنّ يخصّها بفديك، وهذا من حقه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للإمام (الخليفة) أن يخصّ

من يشاء بما شاء، وقد خص هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي ﷺ، على أنّ هدكاً هذه التي منعها أبو بكر من فاطمة لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان مروان".

ونقول: صدق أبو بكر زوجات النبي ﷺ دون فاطمة الطاهرة المطهرة الصديقة، المصدقة، يصدق زوجاته اللاتي لم تُعرف عنهن العصمة، وذلك حينما ادعى ملكية البيوت من غير بينة ولا شهادة أحد هن فيما ادعى فكيف ملكت النسوة الحجرات التي للنبي ﷺ بنص الآية الواردہ في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُم﴾ (٢٠).

ولم تُملّك فاطمة فدكاً فيما ادعنته (مع أنها صاحبة اليد مع ذلك أقامت البينة فردت، نعم كتب لها أبو بكر كتاباً، ولكن عمر بن الخطاب لقيها في الطريق وأخذ الكتاب منها ومزقه، فقال لأبي بكر: إذا صرفتها فيما تقول، فستأتي في يوم آخر تطالب بحق زوجها).

والتاريخ ساكت عن أن النبي ﷺ أعطى الحجرات لزوجاته أو قسمها بينهن، بل ذكر الطبرى (٢١) بطرق متعددة أنه قال ﷺ: «إذا مت وجهز قوني فضعوني في بيتي، وأشار إلى بيت عائشة»، ولو كان البيت مملوكاً لعائشة لما صح منه أن ينسبه إلى نفسه، وإذا قيل بيت عائشة لمجرد سكنها فيه لا للملكية.

ومن المعلوم أن أمّهات المسلمين هن التسع من الثمن؛ لأن الزوجة ترث الثمن من الدار فقط، فكيف ملكت عائشة وحفصة الدار كلها، ومنعتا فاطمة في حياتها، وبأى مسوغ شرعى يدفن الشیخان في دار النبي ﷺ، فإن كان قبرهما بقدر إرث ابنتيهما أي الثمن من التسع فالمفروض أن تبقيا في الدار (٢٢) لأن بقية الدار رجع إلى فاطمة، ومن بعدها إلى أبنائهما الحسن والحسين وبناتها وبعلها، فكيف منع الإمام الحسن من الدفن بجوار جده رسول الله ﷺ وهو أحق بالدفن

بجوار رسول الله لقرب التسب، وكونه ريحانته من الدنيا حتى كان يقول عليه وآلـهـ وـاصـلـهـ وـلـهـ : «أحب الله من أحبهما» ، وحقه أن يدفن عنده لأنـهـ الورثـ للرسـولـ من جهة أمـهـ فاطـمةـ ، فإنـ كـنـتـمـ تـقـولـونـ آنـهـ لاـ يـرـثـ وـمـاـ تـرـكـهـ صـدـقةـ ، فـلـمـاـذـاـ لـاـ تـقـولـونـ هـذـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ أـمـهـاتـ الـمـؤـمـنـينـ ، أوـ آنـ بـاءـكـمـ تـجـرـ وـبـاءـ أـهـلـ الـبـيـتـ لـاـ تـجـرـ؟ـ لـاـ حـوـلـ وـلـاـ قـوـةـ إـلـاـ بـالـلـهـ الـعـلـيـ الـعـظـيمـ ، إـنـ خـصـمـكـمـ الرـسـولـ الـكـرـيمـ ، وـفـاطـمـةـ الـبـتـولـ ، وـالـحـسـنـ الـمـظـلـومـ .

قال السمهودي في كتابه^(٢٣): "وفي الصحيح عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن فاطمة بنت رسول الله عليه وآله وآله وآله سالت أبي بكر بعد وفاة رسول الله عليه وآله وآله أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله عليه وآله وآله مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر: إن رسول الله عليه وآله وآله قال: لا نورث ما تركنا صدقة، ففضبت فاطمة فهجرت أبي بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت، قال: وعاشت بعد وفاة رسول الله عليه وآله وآله ستة أشهر" كما جاء في البخاري ومسلم وفي المستدرك للحاكم^(٢٤) بنفس السند: أن فاطمة دفنت ليلاً، دفتها عليّ ولم يشعر بها أبو بكر".

وذكر الحلبـيـ الشـافـعـيـ فيـ سـيـرـتـهـ^(٢٥)ـ وـالـطـبـريـ فيـ تـارـيـخـهـ^(٢٦)ـ:ـ اـحـجـجـتـ بـنـتـ رـسـولـ اللهـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـاصـلـهـ عـلـىـ أـبـيـ بـكـرـ وـقـالـتـ لـهـ:ـ مـنـ يـرـثـكـ قـالـ أـبـوـ بـكـرـ:ـ أـهـلـيـ وـوـلـدـيـ فـقـالـتـ:ـ فـمـاـ لـيـ لـاـ أـرـثـ أـبـيـ،ـ فـقـالـ لـهـ:ـ سـمـعـتـ رـسـولـ اللهـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـاصـلـهـ يـقـولـ (ـلـاـ نـورـثـ)ـ فـخـضـبـتـ(ـرـضـ)ـ مـنـ أـبـيـ بـكـرـ وـهـجـرـتـ إـلـىـ أـنـ مـاتـ،ـ وـقـالـ:ـ إـنـهـاـ(ـرـضـ)ـ لـقـيـتـهـ وـلـمـ تـسـلـمـ عـلـيـهـ وـلـاـ كـلـمـتـهــ".ـ وـذـكـرـ اـبـنـ قـتـيـبـةـ^(٢٧)ـ فـيـ تـارـيـخـهـ "ـأـنـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ اـسـتـأـذـنـاـ عـلـىـ فـاطـمـةـ فـلـمـ تـأـذـنـ لـهـمـاـ،ـ فـأـتـيـاـ عـلـيـاـ فـكـلـمـاهـ،ـ فـأـدـخـلـهـمـاـ عـلـيـهـاـ،ـ فـلـمـ قـعـدـاـ عـنـهـاـ حـوـلـتـ وـجـهـهـاـ إـلـىـ الـحـائـطـ،ـ فـسـلـمـاـ عـلـيـهـاـ،ـ فـلـمـ تـرـدـ عـلـيـهـمـاـ السـلـامــ".ـ

أليس رد السلام واجب على المسلم، وهل يخفى ذلك على بنت الرسالة؟!
بل إنـهاـ حـوـلـتـ وـجـهـهـاـ إـلـىـ الـحـائـطـ؛ـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ سـاخـطـةـ عـلـيـهـمـاـ،ـ وـقـالـتـ لـهـماـ:

«نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي؟ قال: نعم، سمعنا ذلك. قالت عليهما السلام: فإني أشهد الله وملاكته أنّكما أخطتماني وما أرضيتماني، لئن لقيت رسول الله ﷺ لأشكوكما إليه، فقال أبو بكر: أنا عائد بالله من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتصب باكيًا أسفًا... إلى أن قال: لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيتعي»، وروى ذلك البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده^(٢٨)، ويكتفينا هذا الحديث في رد جميع الأحاديث التي قالت أنّ فاطمة رضيت عن أبي بكر بعد ما سمعت من أبي بكر أنها صدقة، وطيب خاطرها، فماذا يجيب أبو بكر وعمر يوم الحساب، وكيف يكون موقفهما أمام رسول الله ﷺ.

وهو القائل عليهما السلام كما في الزمخشري في تفسيره^(٢٩) عند تفسير آية المودة في حديث «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذاني في عترتي»، بل ذكر ابن أبي الحديد في النهج^(٣٠) أنها أوصت أن تدفن ليلاً بعد ما خرج الرجال من عندها، وهي ساخطة عليهما، قائلة فإني أشدك الله أن لا يصليا على جنازتي ولا يقوموا على قيري، وروي أنه عليهما السلام عفا قبرها عليهما السلام ورش أربعين قبراً في البقيع، ولم يرش قبرها حتى لا يهتدى إليه، وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها وإحضارهما للصلاة عليها... الخ.

وهذا رد على الشّرذمة الذين قالوا: إنّ أبي بكر صلى الله عليهما السلام!!

والعجب أنّه كيف لم يقدر فاطمة بنت رسول الله ﷺ مع أنها من مصاديق آية التطهير، والمحالة، ومع وجود الأحاديث الكثيرة في حقها ومنها «فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاتها ويُسخط لسخطها»، وقد شهد هو وصاحبها على أنفسهما أنّهما سمعا من رسول الله ﷺ هذا الحديث فكيف رضي على نفسه سخط فاطمة، وكيف لم يقبل شهادة فاطمة عليهما السلام مع أنها لا تحتاج إلى أن تشهد على ماهما،

وهو قبل قول جابر بن عبد الله الأنصاري، في قضية ولم يطالبه بالبينة فقد جاء في صحيح مسلم والبخاري^(٣١): عن جابر بن عبد الله الأنصاري عليه السلام قال: "مَا مات النبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ أَبُوكَرًا مَالًّا مِنْ قَبْلِ الْعَلَاءِ الْحَضْرَمِيِّ أَمِيرَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ أَبُوكَرٌ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى النبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دِينٌ أَوْ كَانَ لَهُ عِدَّةٌ فَلِيأَتِنَا، قَالَ جَابِرٌ فَقَلَّتْ: وَعَدْنِي رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُعْطِينِي هَذَا وَهَذَا فَبَسْطَ يَدِيهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ قَالَ جَابِرٌ: فَعَدَ فِي يَدِي خَمْسَائِهِ ثُمَّ خَمْسَائِهِ ثُمَّ خَمْسَائِهِ".

فهل من سائل لأبي بكر يسأله لماذا صدق جابر بن عبد الله الأنصاري في ادعائه بأنّ النبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وعده أن يعطيه هكذا وهكذا فيما يديه ثلث مرات دون أن يطلب منه شاهداً واحداً على ادعائه، فهل كان جابر عليه السلام أتقى لله وأبرّ من فاطمة سيدة نساء العالمين، والأغرب من ذلك ردّ شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والرسول يقول في حقه: «عليٌّ مع الحق، والحق مع عليٍّ، يدور معه حياماً دار» «عليٌّ مع القرآن، والقرآن مع عليٍّ».

وجاء في مسنند أحمد بن حنبل عند قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾، وأنّها نزلت في علي عليه السلام، قال علي عليه السلام على منبر الكوفة: «أنا الصديق الأكبر».

وفي الصواعق المحرقة لابن حجر^(٣٢) أخرج ابن النجاش عن ابن عباس أنّ النبي عليه السلام قال: «الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب ياسين، وعليٌّ بن أبي طالب».

فإذا كان علي عليه السلام بنص الآية والرواية صديق هذه الأمة، فكيف جاز لأبي بكر وعمر الرد عليه والإنكار لشهادته.

ويذكر لنا التاريخ كما ينقل ابن أبي الحديد المعتزلي^(٣٣) "أنّ النبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل شهادة خزيمة بن ثابت وجعل شهادته شهادتين فسمّي خزيمة ذو الشهادتين، لأنّه

شهد لرسول الله ﷺ من حيث علم أنه رسول الله ﷺ ولا يقول إلا حقيقة، فيجب على من علم أن فاطمة ظلماً لا تقول إلا حقيقة قبول شهادتها".

وذكر المتقى الهندي^(٣٤) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقضون شهادة الواحد ويدين المدعى، وجاء في صحيح مسلم^(٣٥) عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بشاهد ويدين". وقال النووي في الشرح^(٣٦) "جمهور علماء الإسلام من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار على أنه يقضي بشاهد ويدين في الأموال، وبه قال أبو بكر، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، ومالك، والشافعي، وأحمد، وفقهاء المدينة، وسائر علماء الحجاز، وجاء في ذلك الأحاديث، فإذاً لا وجه لكلام أبي بكر لفاطمة جيئني برجل آخر أو إمرأة أخرى، لما اعترض عليها بأن أمّ أين إمراة أعمى، وأما الحسن والحسين صغيران، والعجب هل نسي أبو بكر موقف الرسول ﷺ مع الحسينين عند المباهلة، وهل نسي أنه نزلت فيهما آية التطهير. وهل نسي قوله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، والأعجب قول أبي بكر: إن علياً يجرّ النار إلى قرصه، فهل هذا كلام يقال في حق أمير المؤمنين الذي قال رسول الله في حقه: «أفضاكم علي»، «علي مع الحق، والحق مع علي»، وممّن نزلت في حقه آية التطهير، والمباهلة، وهو نفس رسول الله ﷺ ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُم﴾، فهل أمير المؤمنين يشهد زوراً! أعود بالله، ألم يسمع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الأحاديث الواردة في شهادة الزور، ويكفيانا منها ما ذكره المتقى الهندي في كنزه^(٣٧): «من شهد شهادة زور فعليه لعنة الله».

وروى أيضاً: «شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يشرّ بالنار»، فهل يتوقع من أبي بكر أن يرد شهادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ والحسينين وعلي بن أبي

طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع ما قلنا من أنها صاحبة يد لا تطالب بالبيانة، مع أنها أتت بالبيانة لكنه رد بيتها، وهل يعقل أن الحديث الذي ذكره أبو بكر (لا نورث) تحدث به الرسول عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَامٌ ولم يسمعه غير أبي بكر، وهذا على مع الرسول يسمع الأحاديث، وكذا ابن عباس حبر الأمة، فاطمة، فهل كلهم لم يسمعوا، بالله عليك حكم عقلك، فأي عذر تأتيان به يا ابن أبي قحافة ويَا ابن الخطاب في يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ولإتمام الحجّة على الخصم، وأن صاحب اليد لا يطالب بالبيانة، نذكر ما ذكره المنقي الهندي في كنزه (٢٨) عن الشعبي قال: «خرج علي بن أبي طالب إلى السوق فإذا هو بيهودي يبيع درعاً، فعرف علي الدرع، فقال: هذه درعي سقطت عن جلي، فقال اليهودي: درعي وفي يدي، ثم قال له اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين؟ فأتوا شريحاً.... قال شريح: ما تطلب يا أمير المؤمنين. قال: درعي سقطت عن جلي، فالتحققها هذا اليهودي، فقال شريح: ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي يدي، فقال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك، ولكن لا بد من شاهدين، فدعا قبراً مولاً، والحسن بن علي فشهاداً أنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها وأماماً شاهدة ابنك لك فلا نحيزها، فقال علي: ثكلتك أمك أما سمعت عمر يقول: قال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة».

لاحظ الحديث أولاً: إن الدرع لما كان بيد اليهودي لم يطالب بالبيانة لأن صاحب يد، بل طلبت البيانة من علي بن أبي طالب، مع أن شريكاً صدق أمير المؤمنين في قوله، ولكن حكم شريح حسب الموازين، فكيف طلبت فاطمة الصديقة الطاهرة المطهرة بالبيانة، مع أنها صاحبة يد وابنة رسول الله عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَامٌ، فقاضي من قضاة المسلمين يعرف الميزان في الحكم فلا يطالب اليهودي لأنه

صاحب اليد، و الخليفة المسلمين يطالب صاحبة اليد بالبيضة مع أنها الصديقة المطهرة.

وثانياً: لما أراد شريح رد شهادة الإمام الحسن عليه السلام، لأنّه لا تصحّ -على زعمه- شهادة الولد لوالده، وبخه الإمام أمير المؤمنين، أنّ منزلة الحسن ومكانته تختلف عن الآخرين، فلا يمكن قياس الإمام الحسن بالنّاس العاديين؛ لأنّ رسول الله بين مكانته ومتزنته، فكيف تُرد شهادته.

والنّكتة اللطيفة الموجودة في هذا الحديث أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل سمعت رسول الله، بل قال: قال عمر سمعت رسول الله، حتى لا يقال إنّ علياً زكي ابنه، فمع أنّ الأحاديث في فضل الحسين كانت متواترة بين المسلمين مع ذلك نسب إلى عمر، وللأسف الشديد ردّ شهادتهما عند أبي بكر وشهادتهما أمير المؤمنين ودعوى سيدة نساء العالمين، فهم الخصماء عند الميزان، وبهذا لم تبق في البين أية حجة شرعية أو عرفية لغاصبي فدك وحقوق ذوي القربى ومن أهل البيت عليهم السلام وقت الحجّة على المعدّرين لهم.

قال شريف مكة مشيراً إلى هذا المعنى:

جرّعها من بعد والدها الغيط	مراراً فبئس ما جرّعها
ليت شعري ما كان ضرّهما الحفظ	لعهد النبي لو حفظها
كان إكرام خاتم الرسل الهاדי	البشير النذير لو أكرّ ماها
إنّ فعل الجميل لم يأتياه	وحسان الأخلاق ما اعتمدتها
أتري المسلمين كانوا يلمونهما	في العطاء لو أعطيها؟
كان تحت الخضراء بنت نبيّ	صادق ناطق أمين سواها؟
بنت من؟ أم من؟ حلية من؟	ويل من سنّ ظلمها وأذاها

وجاء في السيرة^(٣٩): "نقل كلام سبط ابن الجوزي إن أبو بكر كتب لفاطمة بذك ودخل عليه عمر فقال ما هذا فقال: كتاب لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال: ممادا تتفق على المسلمين، وقد حاربتك العرب كما ترى ثم أخذ عمر الكتاب فشقه".

وقد أشار إلى ذلك ابن أبي الحديد في شرحه على النهج^(٤٠).

وأضاف: "فلا خرجت وبيدها الكتاب، فأخذ عمر منها الكتاب، ثم رجع إلى أبي بكر فقال: أعطيت فاطمة ذرك وكتبت لها؟ قال نعم، فقال: إن علياً يجر إلى نفسه، وأم أيمن امرأة، وبصق في الكتاب فمحاه وخرقه. وكان حضور فاطمة عند أبي بكر وخطبتها بعد عشرة أيام من وفاة الرسول ﷺ، وأردف ابن أبي الحديد المعترض في شرح النهج^(٤١) قائلاً:

"سألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الفريبية ببغداد فقلت له: أكان فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر ذرك وهي عنده صادقة؟ فتبسم ثم قال كلاماً طيفاً مستحسنأً مع ناموسه وحرمه وقلة دعابته، قال: لو أعطتها اليوم ذرك بمجرد دعواها، لجأت إليه وادعنت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن الاعتذار والموافقة بشيء، لأنّه سُجّل على نفسه بأنّها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة وشهود".

ثم قال ابن أبي الحديد تعليقاً على كلام أستاذه: "وهذا الكلام صحيح وإن كان أخرجه مخرج الدعاية والهزل".

أما سرّ غصب ذرك وحقوق أهل البيت ع فقد بينه الإمام الصادق ع للmfضيل بن عمر، قال: «ما بويع أبو بكر أشار عليه عمر أن يمنع علياً وأهل بيته، الخمس والفيء وفقاً، فإن شيعته إذا علموا ذلك تركوه وأقبلوا إليك رغبة في الدنيا، فصرفهم أبو بكر عن جميع ما هو لهم».

تصلب القوم أمام مطالبة فاطمة عليها السلام:

كان المحاكمون قد اغتصبوا الخلافة من أهلها الشرعيين، واستولوا على مقاييس الأمور، والذي يغتصب الخلافة يسهل عليه أن يغتصب ما سواها، والذي يتحدى الله والرسول لا يصعب عليه أن يتحدى فاطمة وعليها واهشيين، فعملوا على تقوية حكمهم، وإضعاف الجبهة المعارضة، وإرغامها بكل وسيلة، وإعادها عن جميع الامتيازات المادية والمعنوية.

أما الامتيازات المعنوية: فقد أذابوها باستيلائهم على الحكم، ومنعهمبني هاشم أن تجتمع فيهم النبوة والخلافة، قال عمر لابن عباس: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، ذكره الطبرى ^(٤٢).

وأما الامتيازات المادية: فقد ذكر الإمام الصادق للمفضل بن عمر قول عمر لأبي بكر: إذا منع علي وأهل بيته من الحمس والفيء وفداً، فإن شيعته إذا علموا ذلك تركوه وأقبلوا إليك رغبة في الدنيا.

كما أنهما إذا استولوا على الموارد الاقتصادية المهمة لمناوئيهم، شغلوهم بعيشتهم عن التفكير في السياسة والمنازعة في الخلافة، كما أرادوا إشغال معارضيهم بالأمور الجانبية دون التوغل في أعماق القضية الحقيقة وهي الخلافة الإسلامية.

ذكر السيد محسن الأمين في أعيانه ^(٤٣): "أن الإمام موسى بن جعفر حدّ فدكاً لهارون عندما ألحّ عليه الرشيد أن يأخذ فدكاً، فقال عليها السلام: ما آخذها إلا بحدودها، قال الرشيد وما حدودها؟ قال عليها السلام: الحد الأول عدن، والحد الثاني سرقند، والحد الثالث أفريقية، والحد الرابع سيف البحر ما يلي الخزر وأرمينية، فقال الرشيد فلم يبق لنا شيء فتحول من مجلسي، أي أنك طالبت بالدولة الإسلامية في العصر العباسي بكاملها، فقال الإمام: قد أعلمتك أنني إن حدتها لم تردها".

وجاء في مجمع البحرين مادةً فدك: "أَنْ عَلِيًّا حَدَّهَا فِي زَمَانِهِ بِقُولِهِ حَدَّ مِنْهَا جَبَلَ أَحَدَ، وَحَدَّ مِنْهَا عَرْيَشَ مِصْرَ، وَحَدَّ مِنْهَا سَيفَ الْبَحْرِ، وَحَدَّ مِنْهَا دُوْمَةَ الْجَنْدَلِ، وَهَذِهِ الْحَدُودُ التَّقْرِيبِيَّةُ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَنْذَاكَ".

ففديك تعبير ثانٍ عن الخلافة الإسلامية، والزهراء عليها السلام جعلت فدكاً مقدمةً للوصول إلى الخلافة فأرادت استرداد الخلافة عن طريقها كما قال علي بن الفاروقي أستاذ ابن أبي الحميد: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعّت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه.

فديك في لسان الشعراء:

لدعبل بن علي الخزاعي قصيدة في هذا الأمر (وهو من الشّعراء المعروفيين بالولاء والحب لأهل البيت عليهم السلام والمدافعين عنهم وإظهار مظلوميتهم وذكر مصائبهم عن طريق أشعاره المرموقة) عندما دخل على الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام م BRO فقال: يا بن رسول الله، إني قد قلت فيك قصيدة وألّيت على نفسي أن لا أنسدّها أحداً قبلك فقال عليه السلام: هاتها، وهي مائة وواحد وعشرون بيتاً وهي المعروفة بالقصيدة الثانية:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

إلى أن تعرّض إلى قضيّة الفيء والخمس وفديك وغضبها قال:

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

فلما بلغ إلى قوله هذا، بكى الإمام الرضا عليه السلام وقال له: صدقتك يا خزاعي.
ومن الشعراء المدافعين عن حريم أهل البيت وإظهار مظلوميتهم في قضيّة فدك الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان (الأمير أبو فراس الحمداني) كما جاء في أعيان الشيعة هو أمير السيف والقلم، كان شاعراً مجيداً، وبطلاً مقداماً، وكان

موالياً لأهل البيت، ومتهالكاً في حبهم، وباذلاً للنفس والنفيس دونهم، ومدافعاً عنهم عليهما السلام في أشعاره الرائعة.

فقد دخل أبو فراس بغداد وأمر أن يشهر خمسة سيف خلفه وقيل أكثر، ووقف في العسكر وأنشد قصيده الميمية التي تعرف بالشافية:

الحق مهتضم والدين محترم وفي آل رسول الله مقسم
يا للرجال أما الله منتصر من الطغاة؟ أما الله منتصر

ومن الشعراء المحبين لأهل البيت من تعرض إلى قضية فدك والفيء وغضبها، أبو الحسن علي بن عبد الله الوصيف الناشئ الصغير البغدادي ومن أشعاره المعروفة:

بال محمد عرف الصواب وفي أبياتهم نزل الكتاب
وهم حجج الإله على البرايا بهم وبحکمهم (وبجدهم) لا يستراب

ومن أشعاره المتضمنة لذكر الخمس والفيء والتّأسف على وقوعه في أيدي غيرهم عليهما السلام وكون هذه من إحدى مصائب أهل البيت.

بني أحمد قلبي لكم يتقطع بثيل مصابي فيكم ليس يسمع
فما بقعة في الأرض شرقاً وغرباً وليس لكم فيها قتيل ومصرع
ظلّمتم وقتلتم وقسم فيئكم وضاقت بكم أرض فلم يُحم موضع
وهناك الكثير من شعراء أهل البيت جزاهم الله خير الجزاء عن أهله، أنشدوا
أشعاراً بهذا المضمون، وتكتفينا أشعار دعبد الخزاعي أمام الإمام المعصوم عليهما السلام
وتتأثر الإمام عليهما السلام بالبكاء، ولو كان كلام الخزاعي خلاف الواقع لا أقل لبين له أن
فدكاً ليست لنا، وما فعله المخالف هو الصحيح، وحاشا الإمام علي بن موسى

الرضا أن يخطئ جدهُ أمير المؤمنين وجدته عليه السلام، وأنهما طلبا شيئاً ليس لهما، فهذا أمر غير معقول أن يصدر من أهل بيته النبوة وموضع الرسالة، فالقضية كانت عند أئمة أهل البيت عليهما السلام وأصحابهم وشيعتهم وعلمائهم جميعاً كالشمس في رابعة النهار، ولا زالت عقيدة الشيعة وعلمائهم في عصرنا إلى ظهور قائم آل محمد عليهما السلام كذلك وأنّ فدكاً غصبت من فاطمة، ومن لاحظ الأدلة التي ذكرنا لا يبقى لديه شك أو شك في أنها غصبت من فاطمة لظروف سياسية ومن باب تقديم مصالحهم الشخصية فإنَّ الملك عقيم، وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

قال الشيخ الطبرسي في الاحتجاج، روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهما السلام: «إنه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة فدكاً وبلغها، لاث خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتتها ونساء قومها تطاً ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله عليه السلام، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فنيطت دونها ملاءة، فجلست ثم أنت آنة أجهش القوم لها بالبكاء، فارتاح مجلس، ثم أمهلت هيئة حتى إذا سكت نشيج القوم، وهدأت فوراً لهم، افتتحت الكلام بحمد الله الثناء عليه، والصلة على رسوله، فعاد القوم في بكمائهم، فلماً أمسكوا عادت في كلامها وقالت: الحمد لله على ما أنعم، وله الشُّكر على ما ألم...».

ونحن نذكر بعض الموضع الحساسة من الخطبة ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الاحتجاج.

«... وأنت الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ﴿وَمَنْ أَحْسَنْ
منَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟! أفلأ تعلمون؟ بل قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية
أني ابنته. أيها المسلمون أغلب على إرثي؟ يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا
إرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلى عمدة ترككم كتاب الله وبندعوه وراء ظهوركم؟
إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاؤُودَ﴾، وقال: فيما اقتضى من خبر مجبي بن زكرييا إذ
قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدْنِكَ وَلِيًّا * يَرْثِنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وقال: ﴿وَأُولُو

الأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِيَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَقَالَ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذِّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ وَقَالَ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِيْنَ﴾ وَزَعَمْتَ أَنْ لَا حُظْوَةَ لِي وَلَا إِرْثٌ مِنْ أَبِي، أَفْخَصْكُمُ اللَّهُ بِآيَةِ أَخْرَجَ أَبِي مِنْهَا؟ أَمْ هُلْ تَقُولُونَ: أَهْلُ مَلَتِينَ لَا يَتَوَارَثُانِ؟ أَوْ لَسْتَ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مَلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ أَمْ أَتَمْ أَعْلَمُ بِخَصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمِّي؟ فَدُونُكُهَا مَخْطُومَةٌ مَرْحُولَةٌ تَلْقَاكُ يَوْمَ حَشْرَكُ، فَنَعْمَ الْحُكْمُ لِلَّهِ، وَالْزَعْيْمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسِرُ الْمُبَطَّلُونَ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، وَ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقْرٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ وَيَحْلِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾....إِلَخْ

لَمَا أَنْتَهَتْ مِنْ خَطْبَتِهَا قَالَ أَبُو بَكْرٌ لَهَا: وَأَنْتِ يَا خَيْرَ النِّسَاءِ، وَابْنَةُ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، صَادِقَةٌ فِي قَوْلِكَ، سَابِقَةٌ فِي وَفُورِ عَقْلِكَ، غَيْرُ مَرْدُودَةٌ عَنْ حَقْكَ، وَلَا مَصْدُودَةٌ عَنْ صَدْقَكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَكُفَى بِهِ شَهِيدًا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: نَحْنُ مَعَاشُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورُثُ ذَهَبًا وَلَا فَضَّةً وَلَا دَارِأً وَلَا عَقَارًا وَإِنَّا نُورُثُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ وَالنَّبُوَّةَ وَمَا كَانَ لَنَا مِنْ طُعْمَةٍ فَلَوْلَيْ الْأَمْرِ بَعْدَنَا أَنْ يَحْكُمْ فِيهِ بِحُكْمِهِ!! فَهَلْ تَرِينَ أَنْ أَخْلُفُ أَبَاكَ؟.

فَأَجَابَتْهُ فاطِمَةُ قَائِلَةً: «سَبَحَانَ اللَّهِ! مَا كَانَ أَبِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ صَادِفًا، وَلَا لِأَحْكَامِهِ مُخَالِفًا! بَلْ كَانَ يَتَّبِعُ أُثْرَهُ، وَيَقْفُو سُورَهُ، أَفَتَجْمِعُونَ إِلَى الْغَدَرِ اعْتِلَالًا عَلَيْهِ بِالرُّورِ، إِلَى أَنْ قَالَتْ: هَذَا كِتَابُ اللَّهِ حَكْمًا عَدْلًا، وَنَاطِقًا فَصَلَّا يَقُولُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ أَلَّ يَعْقُوبَ﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَوَرَثَ سُلَيْمَانُ دَأْوُدَ﴾، حَتَّى قَالَتْ: كَلَّا! بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَنُ عَلَى مَا تَصْفُونَ﴾.

قَالَ الشَّاعِرُ مُشِيرًا إِلَى خَطْبَتِهَا وَرَجُوعَهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لَمْ أُنْسَهَا يَوْمٌ وَافَتْ قَبْرَ وَالدَّهَا
 وَافَتْ وَقْدَ غَصْ بالأنصار مسجده
 فَأَسْدَلُوا دُونَهَا الأَسْتَارَ فَابْتَدَأَتْ
 كَانِثَاهَا هِيَ بِالآيَاتِ تَفَرَّغَ عَنْ
 لَمْ يَهْضُمُوا فَاطِمَةً إِلَّا وَقْدَ عَلِمُوا
 ثُمَّ انشَنَتْ عَنْ خَطَابِ الْقَوْمِ رَاجِعَةً
 قَالَتْ أَبَا حَسْنٍ مَاذَا الْقَعُودُ فَقَمَ
 تَرْضَى بِأَنَّ طَغَاءَ الْبَغْيِ تَهْضِمُنِي
 تَبَرَّزَنِي نَحْلَقِي مَنْتِي بِدِينِ أَبِي قَحَّا
 فَقَالَ فَاطِمَةً صَرَّاً فَهَنَّهِي شَجَنًاً
 إِنَّ الْكَفِيلَ لِمَأْمُونٍ وَرَزْقَكَ فِي
 وَإِرْثَكَ إِنَّ أَضَاعَتْهُ الْعَدَا حَنْقًاً
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ^(٤٤).

الهوامش:

- (١) الحشر: ٧-٦.
- (٢) الحشر: ٢.
- (٣) الأنفال: ١٢.
- (٤) الدر المنشور: ج ٨، ص ٩٩.
- (٥) نفس المصدر: ج ٥، ص ٢٧٣-٢٧٤.
- (٦) نفس المصدر: ج ٨، ص ١٠١.

- (٧) وهي قاعدة عقلائية مفادها الحكم بالبناء على ملكيّة المال من هو في يده، وقد أشار إليها أستاذنا آية الله الشيخ جواد التبريزي تفصيلاً في كتاب فدك: ٢٠، ٢٧.
- (٨) معجم البلدان للحمويي، ج ٤، ص ٢٣٨ باب الفاء والدال.
- (٩) فتوح البلدان للبلاذري، القسم الأول: ص ٣٣.
- (١٠) نهج الصياغة في شرح نهج البلاغة للشترى: ج ٥، ص ٣٢٤، نقلًا عن فتوح البلدان للبلاذري: ص ٤٦، ومعجم البلدان للحمويي: ج ٤، ص ٢٣٨.
- (١١) النساء: ١٠.
- (١٢) الوسائل، ج ٩، من أبواب ما يجب فيه الخمس، الباب ١، الحديث ١.
- (١٣) وفاء الوفاء للسمهودي، ج ٢، ص ١٥٣.
- (١٤) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٩٢٦.
- (١٥) نهج الصياغة في شرح نهج البلاغة للشترى، ج ٥، ص ٣٠٨، منهاج البراعة، ج ٢٠، ص ٩٤.
- (١٦) فدك، عبد الفتاح عبد المقصود، ص ٨٩٠.
- (١٧) ذكره السيد المرتضى في الفصول المتازة، ج ١، ص ٢٦، نهج الصياغة للشترى، ج ٥، ص ٣٢٩.
- (١٨) التوبة: ٣٤.
- (١٩) أبو هريرة شيخ المضيرة، ط ٣ دار المعرفة: ص ١٦٩.
- (٢٠) الأحزاب: ٥٣.
- (٢١) تاريخ الطبرى.
- (٢٢) إن قلت: قد يناقش المخالف في هذا بأن ما بقي لهما يكفي لسكناهما، أو يقول بأن دفن الشيختين لا يتزاحم مع سكانهما لأنهما في باطن التراب وهما يعيشان فوق القرى؟
 قلت: لو سلمنا ما ذكر مع ذلك فالأمر مشكل؛ لأنه قلنا بأن الدار حق مشاع بين الورثة فيحتاج إلى الإذن من بقية الورثة، والحق أن الحسن والحسين وزينب لهم الحق في الدار من جهة سهم أمّهم فاطمة عليها السلام ومن المسلم أنه لم يكن برضاهما خصوصاً القضايا التي جرت على أمّهم فاطمة وأبيهم أمير المؤمنين من بعد وفاة الرسول عليه السلام من حرق الدار وكسر الصّلْع وغضب الخلافة.



- (٢٣) وفاء الوفاء (تاریخ المدينه).
- (٢٤) المستدرک للحاکم، ج ٣، ص ١٦٢.
- (٢٥) السیرة الحلبیة: ج ٣، ص ١٦٢.
- (٢٦) تاریخ الطّبری، ج ٣، ص ٣٦١.
- (٢٧) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ج ١، ص ٣٠.
- (٢٨) البخاری، باب غزوہ خیبر، ج ٥، مسلم، ج ٥، ص ١٥٤، ومسند احمد، ج ١، ص ٤٤.
- (٢٩) الكشاف، ج ٤، ص ٢٢٠.
- (٣٠) شرح النهج، ج ١٦، ص ١٠٤ ط بیروت.
- (٣١) صحیح مسلم، کتاب الفضائل، باب ما سئل النبي، وصحیح البخاری، باب من تکفل عن میت دینا، وفي کتاب الخمس في باب ما قطع النبي ﷺ من البحرين.
- (٣٢) ص ٧٦، ح ٣٠.
- (٣٣) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، الجلد الرابع، ص ١٠١.
- (٣٤) کنز العمال، ج ٧، ص ٢٣، کتاب الشهادات، ح ١٧٧٨٦.
- (٣٥) ج ٥، ص ١٢٨، باب وجوب الحكم بشاهد ویین، کتاب الأقضیة.
- (٣٦) کنز العمال، ج ١٧، ص ١٨.
- (٣٧) ج ١٧، ص ١٨.
- (٣٨) ج ٧، ص ٢٤، کتاب الشهادات، ١٧٧٩٥-١٧٧٨٩.
- (٣٩) السیرة الحلبیة، ج ٣، ص ٣٦٢.
- (٤٠) شرح نهج البلاغة، الجلد ٤، ج ١٦، ص ١٠١-١٠٢، ط بیروت، دار إحياء التراث.
- (٤١) نفس المصدر: ص ١٠٥.
- (٤٢) تاریخ الطّبری، ج ٥، وابن أبي الحدید، ج ١٢، م ٣، ص ٩٤.
- (٤٣) أعيان الشیعة ج ٢، ص ٨.
- (٤٤) المصادر المعتمدة في هذا البحث: معلم الفتن ج ١ ص ٣١٤ لسعید آیوب، الإمامة والسياسة لابن قتيبة، الاحتجاج للطبرسی ج ١ ص ٩٧-٩٠، مجمع الروائد للهیشی ج ٧ ص ٤٩ عند تفسیر الآیة من سورۃ الإسراء، الأراضی لآلیة الله الشیخ محمد إسحاق الفیاض. ط التجف، فدک للشهید آیة الله الشیخ محمد باقر الصدر، وسائل الشیعة للحر العاملی علیه السلام، صحیح

البخاري، صحيح مسلم، كنز العمال للمتقى الهندي، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط مصر بيروت، كتاب فدك للسيد محمد حسن الموسوي القزويني، تفسير الكشاف للزمخشري، ج ٤، ص ٥٠٢، تفسير الأمثل ج ٥ ص ٣٩٥ و ج ١٨ ص ١٥٥-١٧٨، تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٢٨٤، تفسير الميزان ج ١٩ ص ٢٠٣، النص والاجتهاد ص ١١١و ١١٠، كتاب الخمس لآية الله الشيخ النوري الهمداني (دامت برకاته) ص ١٢١-١٤٥-١٨٣-٢١٣، سلسلة الآيات الباهرة في مناقب العترة الطاهرة لصاحب القلم.

اللَّهُمَّ فَاطِمَتْ لِي هَمَّا
وَهُنَّا لِي



فلسفة سکوت علیٰ علیہ السلام واستنکار الزهراء علیہ السلام

الشیخ ابراهیم الانصاری

هناك تساؤلات كثيرة تدور في الأذهان و تتداول على
الألسنة حول موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب علیہ السلام
قبيل أولئك الذين تقمصوا الخلافة بعد ارتحال رسول
الله علیہ السلام .

وهي تتلخص في:

- 1- علي علیہ السلام ذلك الرجل الذي قتل أبطال العرب
وناوش ذؤبانهم، هو الذي قدّ مرحباً وعمرو بن عبد ودد وهو
الذي كانت ضرباته وترأً، كيف يمكن تصوّر استسلامه
للغاصلين ومن ثم إخراجه من البيت قهراً، وتهديده بالقتل؟



٢- هل يمكننا أن نتصور أن الزهراء علیها السلام، وهي بنت رسول الله عليه السلام وفلاة كبره وبضعته أن تُضرب ويُكسر ضلعها ويُسقط جنينها برأي ومنظر من زوجها أمير المؤمنين علي علیه السلام؟ من غير أن يكون هناك أي ردة فعل منه علیه السلام في قبال هذه الجريمة العظمى؟

٣- ثم إن المسلمين عامّة هم الذين انتخبوه علیه السلام خليفة عليهم فلم أكبوا بعد ذلك على مخالفته وقاتلوا ثم قتلوا في محاربه ظلماً؟

٤- وأخيراً ما هي حصيلة السنوات الخمس التي استلم فيها علیه السلام إمرة المسلمين من الزاويتين العملية والنظرية؟

٥- وما هو سر سكوت الإمام البجبي علیه السلام وصلحه مع معاوية من ناحية وصراخ الإمام الحسين علیه السلام وخروجه على حكومة يزيد من ناحية أخرى؟ وكذا موافق سائر أئمتنا علیهم السلام ظاهراً.
وأيضاً عشرات من الأسئلة في هذا المجال.

ومن الطبيعي أن حل هذه الشبهات له الدور الحيوي المهم في مسيرة الإنسان المؤمن وموافقه الرسالية. فهل يمكننا الإجابة عليها وعلى غيرها من الأسئلة التي تدور حول نفس المحور؟

أقول:

إنَّ الغرض من كتابة هذه الكلمة المتواضعة هو الوصول إلى حلٍ مناسب بالنسبة إلى مثل هذه الشبهات ودفعها منطقياً كي تكون على بصيرة في ديننا ومذهبنا فنعانقه من دون أي تزلزل وتشكيك.

فأقول: قبل الورود في البحث ينبغي تقديم مقدمات:

الأولى:- الإسلام مدرسة متکاملة ومتراقبة:

الإسلام أطروحة متکاملة تتركز على أسس وتشتمل على قوانين إلهية ثابتة

لَا يَكُنْ أَنْ يَعْتَرِيهَا أَيُّ خَلْلٍ وَتَرْدِيدٍ، وَالْمَهْدَفُ مِنَ الْإِسْلَامِ هُوَ نَفْسُ الْمَهْدَفِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ أَعْنَى الْعَبُودِيَّةَ وَالرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ وَهُوَ إِيْصَالُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْكَمَالِ الْمَطْلُوبِ أَعْنَى الْقَرْبَ مِنَ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ وَهُوَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ. فَالْإِسْلَامُ لَيْسَ هُوَ إِلَّا تَجْلٌّ مِنْ تَجْلِيَاتِ الْحَقِّ الْمُطْلَقِ جَلَّ وَعَلَا فَلَا بدَّ أَنْ يَظْهُرَ عَلَى جَمِيعِ أَصْعَدَتِهِ وَزَوَّاِيَّاهُ وَهَذَا مِنْ لَوَازِمِهِ غَيْرِ الْمُنْفَكَةِ عَنْهُ.

الثانية:- أبعاد الإنسان الثلاثة:

وَحِيثُ إِنَّ لِلْإِنْسَانِ أَبعادًا ثَلَاثَةً الْبَعْدُ الْعُقْلَيُّ وَالْبَعْدُ النُّفْسِيُّ (الْجَوَانِحِيُّ) وَالْبَعْدُ الْعَمَلِيُّ (الْجَوَارِحِيُّ) فَالْإِسْلَامُ أَيْضًا قد رَكَّزَ فِي تَوْجِيهِهِ عَلَى هَذِهِ الْجَهَاتِ الْثَلَاثَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَلَا حَظِّهَا بَعْنِ الْأَعْتَابِ فَطَرَحَ لَهَا أَطْرَوْهَاتٍ وَبِرْمَجَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِرَنَاجِمًا يَنْتَسِبُ مَعَهُ وَهِيَ:

- ١ عقائد الإسلام التي تعامل الجانب العقلاني للإنسان.
- ٢ الأخلاق وهي ما تتعلق بشئون النفس الإنسانية.
- ٣ الأحكام العملية وهي القوانين المختصة بجوارح الإنسان وما يصدر منه من خير وشر.

وَلَا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ وَاطْلَاعٌ عَلَى الْإِسْلَامِ أَنَّ هُنَاكَ تِرَابِطًا قَوِيًّا وَعَلَاقَةً وَثِيقَةً بَيْنَ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الْثَلَاثَةِ بِحِيثُ يَسْتَحِيلُ التَّحْلِيلُ بِجَانِبِ مُغْضَّ الْنَّظرِ عَنِ الْجَانِبِ الْآخَرِ.

مَثَلًا:

إِعْطَاءِ الزَّكَاةِ كَوَاجِبِ عَمَلٍ يَتَوَقَّفُ عَلَى قَصْدِ التَّقْرِبِ إِلَيْهِ تَعَالَى كَعْقِيْدَةٍ وَفِي أَسْلُوبِ الْعَطَاءِ وَالْأَخْذِ لَا بدَّ مِنْ التَّوْجُّهِ إِلَى الْجَانِبِ الرُّوحِيِّ لِلْمَعْطِيِّ وَالْمَعْطِيِّ إِلَيْهِ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُظَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهُمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

وعلى هذا الأساس نقول: إله لا بد وأن يطبق الإسلام بمحاذيره وبأكمله من دون فصل بين الأبعاد الثلاثة أصلاً ومن يفكّر في تطبيق جانب واحد من الإسلام مع غضون النظر عن الجوانب الأخرى فتفكيكه شطط، ليس له أساس قويم بل يبني على الوهم والخيال.

وبعبارة أخرى:

الإسلام وحدة شاملة ومتکاملة ومتکاففة ومسجمة لن تتفرق ولن تتفكك أبداً، وتفكّكها يعني فنائها بالمرأة وتغيير ماهيتها إلى ماهية أخرى بل لو اختلفت الكمية والكيفية في قبول أو رد معالمه لتغير الماهية أيضاً فلا بد من مراعاة الكمية والكيفية في تلك الأبعاد الثلاثة لئلا ينجر الأمر إلى تضيّق جانب وضعف جانب آخر.

وذلك كالاوكسجين والهيدروجين فمن اللزام أن يتكونا معاً ليشكلا الماء كما أنه لا بد من رعاية النسبة بينهما كمما وكيفاً حصولاً على النتيجة فمع بروز أدنى اختلاف بين العنصرين سوف لا يبقى شيء يطلق عليه اسم الماء.

ومن هذا المنطلق نشاهد التأكيد البالغ على الإيمان بالكل لا بالبعض سواء الكتاب أو الرسل أو أي شيء يرتبط بالدين.

قال تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَيْنِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَرِيدُونَ أَنْ يُفَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾*

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣﴾.

الثالثة:- الدولة الإسلامية العالمية:

مضافاً إلى أنه لا بد من وجود دولة مقتدرة بأجهزتها القوية ورجالها المؤمنين، تستهدف التنسيق بين هذه الجوانب الثلاثة من الإسلام كي تُركّز هذه الشجرة الطيبة جذورها فيرتفع أساسها فتتوسع وتنشر أغصانها فتثمر فیأكل من ثمرها. فإذاً يستحيل أن نطبق الإسلام في حياتنا بمعنى الكلمة إلا مع تأسيس دولة عالمية تستوعب أو بالأحرى تتسلّط على جميع أرجاء البسيطة من غير استثناء لمنطقة دون أخرى فكل الأرض تكون تحت سلطة الإسلام وهذا لا ينافي وجود كفار فيها مادام الحكم للإسلام. فلا معنى لطرح دولة إسلامية في هذا المكان وذاك كدولة مستقلة تستهدف تطبيق بعض أو كل جوانب الإسلام عملاً ولا تحمل إيديولوجية الإسلام العالمي أو تجعل هذه الغاية في المراحل المتأخرة من أفكارها. بل لو نظرنا نظرة شاملة إلى الكون وعرفنا خالقه لوصلنا إلى حقيقة أخرى وهي أن الإسلام لا ينظر إلى البشرية منحصرة بل يستوعب ويُخْيِّم على كل زوايا الكون وجميع العالم من الإنس والجن حتى عالم الجنادات والنباتات والحيوانات وحتى في الكواكب الأخرى حيث إن كل تلك العوالم لها نوع من العلاقة بالإنسان.

الرسول عليه السلام ودولة إسلامية عالمية:

ومن هذا المنطلق شرع رسولنا محمد عليهما السلام في تأسيس دولة إسلامية من البداية تستهدف تطبيق الإسلام بجميع جوانبه وأبعاده وإزالة جميع الظواهر الزائفة الموروثة من المحاهليّة فكتب إلى ملكي الفرس والروم آنذاك كتاباً لأجل أن يهتديا وقومهما إلى الدين الإسلامي ويتحررا من عبودية غير الله. وقد استطاع الرسول عليهما السلام -بسعيه المتواصل ودعم من أخيه ووزيره علي عليهما السلام - عدد قليل من الصحابة المخلصين -أن يكتسب النجاح في المدة القليلة على رغم كل ما عاناه

من مصاعب ومشاكل وأذى «ما أودي نبيٌّ مثل ما أوديت» سواء من الكفار الملحدين أو من المنافقين الحاقدين. فقد انبعق نور الإسلام وانتشر صيته وتوسعت دولته إلى أقصى العالم حتى دخل الفرس والروم والحبشة وذلك لا على مستوى عامة الناس فحسب بل شمل حتى رجال الدولة وأصحاب المناصب المختلفة.

الإسلام كان غريباً غير مأولف:

بعد ما كان الإسلام غريباً وذلك لأنَّ القيم الإسلامية بطبعتها لا تنسجم مع الوضع الذي كان يسود الجاهلية وذلك لاشتمال الإسلام على الجانب التعبدِي الذي لا يلائم تلك الذهنيات التي لم تترسخ فيها سوى الدنيا و سوى المادة وما يحوم حول المادة، فقد انتشر الإسلام الحمدي في أنحاء البلاد وأخذت الأفكار الإسلامية تتمرّكز في الأذهان وتعثر على مكانتها في المجتمع وأخذ المسلمين يستأنسون بالإسلام شيئاً فشيئاً حتى صار تفزيذ حكم الله في مجتمعهم أمراً مأولفاً وصار المسلمون يتعاملون مع الإسلام تعاملًا طبيعياً بعد ما كان غريباً عندهم غير مأتوس به.

المفروض والواقع:

المفروض أن يستسلم الخليفة على عَلِيٍّ عَلِيُّهُ الْكَلَمُ ويُسِيرَ على نفس الأسلوب الذي سار عليه رسول الله ﷺ وينتقل الحكم من إمام إلى إمام حتى يأتي دور المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف فيما لله به الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. ولكن الواقع كان خلاف ذلك حيث تسلّم زمام الأمر من لا يليق به ولا أهلية له.

البداية السوداء:

بمجرد أن رُسِّخت قواعد خلافة أولى الخلفاء بعد رسول الله ﷺ اللأشريعية بدأ الوضع يتغيّر شيئاً فشيئاً، وبدأت المعادلات تنعكس.

واستمرَّ الوضع الجديد إلى أن وصل إلى مرحلة خطيرة حيث أخذ حُكَّام المسلمين ينسقون أفكارهم وأعمالهم مع الحضارات الدخيلة وعلى رأسها الروم والفرس فحاولوا تكييفَ أنفسهم مع المجتمعات الماحطة بهم وأخذوا في تنسيق برامجهم طبقاً لتلك الحضارات المزيّفة وذلك في جميع أبعادها حتى العقائدية والأخلاقية!!!(والناس على دين ملوكهم) وهؤلاء نسوا أو تغافلوا عن أن للإسلام حضارةٌ وإيديولوجيةٌ مميزةٌ تنبثق من الوحي والغيب وترتبط بالله الواحد القهار. وتدريجاً انقلب الإسلام الغريب عند الملل غير المسلمة المأنوس لدى المسلمين إلى إسلام مأنوسٍ لدى الكلّ حتى الكفار والمنافقين لا يستوحش منه أحد إلاّ المسلم الحقيقي!!

والحاصل أنَّ الجُوَّ العام الذي أوجده الخلفاء بين المسلمين كان مصبوغاً بصبغةٍ خاصَّةٍ تتلائمٌ وواقعِ المعاش آنذاك، ومسخه تماماً بل قلبه وجهاً على عقبٍ وحينئذ تحققت مصداقية قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتُلَ اثْقَلَتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرُّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٤).

فانحرفَ المسلمون وتغيّرتَ السنن وقلبتَ القيم، ومن ثمَّ خسرَ المسلمون تلك الفرصة الذهبية التي أوجدها رسول الله ﷺ وضحى من أجلها بأبرز أنصاره، وكانت هي المخسارة العظمى التي جرَّت العالم الإسلامي إلى الخسائر المتواتلة.

والتاريخ الإسلاميُّ خير دليل على ما ندعوه فمن أراد أن يتطلع على

جزئيات الأمر فليراجع التاريخ.

السقية وأثارها:

فهنا وقعت الجريمة العظمى وهي جريمة الانحراف والإغفال ومن ثم حرف المُغفلين وإغوايهم من زاوية وغرس شجرة النفاق ورعايتها من زاوية أخرى... ويالها من جريمة غباء قاسية!! تلك الفجيعة الفضيعة التي نشأت من السقية، فهي مبدأ كل عثرة وزلة فجميع الفروع الخبيثة ليست هي إلا من تلك الشجرة المشوومة.

البناء المعوج:

يقول أحد شعراء الفرس:

خشت أول جون نهاد بنا كج تا ثريّا ميرود بنيان كج

أي أنَّ البناء حيث وضع الأساس للبناء وضعاً معوجاً فسوف يعوج البناء مهما يرتفع إلى الثريا. ومن الواضح أنَّ الذنب والعتاب كلَّه يُوجه إلى أول من أسس أساس الظلم والجور ومن هذا المنطلق نشاهد التأكيد البالغ في الأحاديث - كالأحاديث التي تتحدث حول يوم الاثنين وأنَّه يوم نحس قبض الله عز وجل فيه نبيه وما أصيب آل محمد عليهما وآله وآله إلا في يوم الاثنين فيتشارم أئمتنا عليهم السلام به ويتبرك به عدوهم - وأيضاً الزيارات خصوصاً زيارة عاشوراء، وأشعار كبار شعراء الإمامية كدعبل الخزاعي وكبار العلماء كالعلامة الشيخ محمد حسين الأصفهاني قد يُؤثِّر بل حتى بعض علماء العامة على هذه الحقيقة وتفصيل هذا الأمر سوف نذكره في موضع آخر فانتظر.

أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ والخلافة:

وهذا الوضع أو بالأحرى الجريمة استمرت ربع قرن - وليس بقليل - إلى أن

استلم الحكم - وبعد اللتّي والتي - أمير المؤمنين علي عليهما السلام. استلمها بعد ماذا؟ بعد أن تغيّرت جميع القيم والأسس التي بناها الرسول الأكرم عليهما السلام.

فماذا يصنع علي عليهما السلام إذاً؟

غير أن يصرخ في وجه المسلمين الذين أرادوا أن يبايعوه:

«دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإنّ الآفاق قد أغامت والمحاجة قد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبتم بكم ما أعلم ولم أصحّ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسعكم وأطوعكم لمن ولি�تموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»^(٥).

قال ابن أبي الحديد: "ومعنى قوله: الآفاق قد أغامت والمحاجة قد تنكرت أن الشبهة قد استولت على العقول والقلوب وجهل أكثر الناس محاجة الحق أين هي، فأنا لكم وزير عن رسول الله عليهما السلام، أفت فيكم بشرعيته وأحكامه خير لكم متى أميراً محجوراً عليه مدبراً بتدبيركم، فإثني أعلم أنه لا قدرة لي أن أسير فيكم بسيرة رسول الله عليهما السلام في أصحابه مستقلاً بالتدبير لفساد أحوالكم وتعدد صلاحكم".

أقول:

بقيت تلك الجذور الخبيثة مترکزة رغم محاولات أمير المؤمنين علي عليهما السلام في أيام خلافته، وحيث قد اعتناد المسلمون على نظر خاص من المعيشة فلم يكن لهم أن ينسقوا معيشتهم وأفكارهم مع ما أراده أمير المؤمنين علي عليهما السلام بل لم يكونوا يستوعبوا أسلوب علي عليهما السلام في الحكم الذي كان هو أسلوب رسول الله عليهما السلام، فلم يتقبلوا عدالة علي عليهما السلام وقسطه وكما قال أحد هم "عدل على قتله"

التكليف المزدوج بعد ارتحال رسول الله عليهما السلام:

(السكت والصرخ)

مثال:

لو وقعت سرقة كبيرة في بيت فيه أطفال وفيه أموال كثيرة تهم السارقين لأنهم قد خطّطوا تخطيطاً مستقبلياً شاملاً لبناء مشروع يبني على هذه الأموال.. ولا يمكنهم الغض أو التغافل عنها أبداً، ومن ناحية أخرى تلك الأموال لها أهمية ل أصحابها وتشكل العصب الرئيسي في حياتهم مضافاً إلى الأشياء الأثرية الثمينة التي لا يمكنهم التخلّي عنها.

فيدور الأمر بين حالات ثلاث لها نتائج مختلفة:

- ١- الصراخ وإخبار الناس عن السرقة من أهل البيت جميعاً وبالنتيجة حرق البيت ومن فيه وما فيه.
- ٢- التزام السكوت والمهدوء من جميع العائلة وإسكات الآخرين وخلق جو إعلامي يؤكّد للناس أن البيت وما فيه لم يسرق بل قد بيع على هؤلاء في مقابل ثمن، فالبيت إذاً هو حُقُم الشرعي والقانوني وليس لصاحبه الأول المطالبة به أصلاً.
- ٣- التزام المهدوء من صاحب البيت وتحريض الأولاد على السكوت حفاظاً على البيت علماً بأن هناك من يُعلن عن السارقين (وهي الأم) وتصرخ في وجههم لأجل أخذ وثائق البيت ليس إلاً (ومفترض أنَّ الوثائق مسجلة باسمها). فهنا نواجه ازدواجية المواقف موقف الوالد والأولاد وموقف الأم والمفترض على الوالد أن يُهدي الكل، ولكن الأم لا تسكت حيث تطالب بحقها وهي الوثائق والمستندات، ولن تسمح بأن يسجل البيت باسم الغاصبين وإن أدى ذلك إلى موتها حيث يتراجّح ذلك الأهم على هذا المهم، حيث إنَّه من الطبيعي أن يرجع البيت في آخر الأمر إلى صاحبه وإن طال الأمد عليه.

الحفظ على الولاية:

مادامت الخلافة قد انحرفت عن المسير الأساسي الذي أكّد عليه رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة، ومادامت قد اغتصبت باحتيال وأسلوب خبيث، فلا يمكن إرجاعها بالسکوت والتسليم لما حدث، لأن العدو سوف يستغل هذا السکوت لصالحه إعلامياً وسوف يدعّي أن هذا السکوت دليل على الرضا، ومن ثمّ سوف يكون الغاصب وكأنّه هو المالك الحقيقي فيكتسب الشرعية في الوسط المسلم لا هو فحسب بل كل من يسير على خطاه إلى يوم القيمة!!!

وهذا هو التدمير الواقعي للإسلام أصلاً وفرعاً ولكن باسم الإسلام وإمرة المسلمين، ومن ناحية أخرى هناك خطورة ثانية لأصل الإسلام وهذا يتطلب السکوت والمدوء والتسيير، وفي نفس الوقت الإشراف ومراقبة ما سيحدث ومحاولة دفع الانحرافات الأساسية التي ترجع إلى أصل الإسلام، تلك الانحرافات التي يخطّط لها النظام الحاكم بين آونة وأخرى... من غير مساس وتعرّض للجهاز الحاكم، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، ذلك كله حفاظاً على الإسلام، فلا بدّ لعلي عَلَيْهِ الْكَلَمُ من السکوت والتسيير الظاهري معهم مadam الإسلام في أمان من شرّهم.

اللهم إلا إذا اشتد الخطر وصعب فحينئذ سوف يتطلب الشدة نوعاً ما.

صعوبة الموقف و حساسيته:

عند ملاحظة جوانب الشخصيتين شخصيّة الصديقة الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَمُ وشخصيّة أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ، وأيضاً عند ملاحظة مدى الارتباط والتعلق بينهما نعرف شدة البلاء الذي ابتليا به وعظمّة الامتحان الإلهي ومستوى التكليف السماوي المخول إليهما.

فلو أراد الله أن يتحقق الهدف -الذي هو الحفاظ على ظاهر الإسلام وهو

تكليف علي عليه السلام والمحافظ على واقع الولاية وهو تكليف الزهراء عليها السلام - فلا بد من أن توفر أمور كثيرة لو اختل أحدها سوف لن يتحقق الهدف.
فمن ناحية أمير المؤمنين عليه السلام لا بد من:

خلق جو إعلامي واضح ينادي بتصريح القول أن عليا عليه السلام ليس منعارضين بل هو من المسلمين الذين يبتعدون عن تعكير الجو وزرع الخلاف بين المسلمين، وهذا يتطلب:

- ١- التزام الهدوء والسكوت الكامل وعدم التعرض للحكم أصلًا.
- ٢- التساییر والتنسيق مع الخليفة وربما يقتضي ذلك الصلاة خلفه والجلوس في مجلسه.

ومن ناحية الزهراء عليه السلام ينبغي لها:
أن تخلق جوًّا مناقضاً تماماً لما أوجده علي عليه السلام، فتصرخ في وجه الطّاغة وتقف أمامهم وتفضحهم وتبيّن مثالبهم وتكشف عن جريتهم العظيمة، وفي نفس الوقت تدافع عن علي عليه السلام ك الخليفة للمسلمين، فتبين للناس فضائله ومناقبه وموافقه وذلك من غير أن يكون ذلك -أعني ولاية علي عليه السلام- هو الأساس في قضيتها ظاهراً (وإن كان هو الأساس بالفعل).

وهذا أمر صعب للغاية لا يتحقق إلا من خلال أمور:

- ١- خروج الزهراء عليه السلام من البيت ولا مانع مادامت هي من المطهرين الذين أذهب الله عنهم الرّجس.
- ٢- خلق أجواء مثيرة للأحساس (بكائهما وأنينها).
- ٣- أن لا يشترك العدو المتظاهر بالإسلام في تشيع جنازتها وأن تدفن جنازتها سرًا.
- ٤- أن تكون مجهولة القبر فلا يعلم بحلّه.

٥- وبالأخير عدم نشر وصيتها عليها السلام بل تبقى في مصحفها المبارك.

المعاناة:

وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فهل ي肯ه أن يتغافل عمّا سيحدث على بضعة الرسول - الزهراء عليها السلام -؟ وهل يمكن للإنسان أن يتصور شدة المعاناة التي كان يعانيها أمير المؤمنين على عليه السلام وكذلك مستوى صبره عليه السلام؟ كيف وهو يرى تراثه المنهوب! ويعرف عن ضلع الزهراء المكسور؟.

يقول عليه السلام: «أَمَا وَاللَّهُ لَقَدْ تَعْصِمُهَا ابْنُ أَبِيهِ قَحَافَةً، وَإِنَّهُ لِيَعْلَمُ أَنَّ حَلََّيْ مِنْهَا حَلٌَْ القَطْبُ مِنَ الرَّحَاءِ؛ يَنْحُدِرُ عَنِ السَّيْلِ وَلَا يَرْقُى إِلَيْهِ الطَّيْرُ فَسَدَّلَتُ دُونَهَا ثُوبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحَاءَ، وَطَفَقْتُ أَرْتَيْ بَيْنَ أَنْ أَصُولَ يَدَ جَذَاءَ أَوْ أَصِيرَ عَلَى طَخِيَّةَ عَمَيَاءَ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدُحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبِّهِ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبَرَ عَلَى هَاتَانِ أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَأْ أَرَى تَرَائِي نَهَبًا»^(٦).

ويقول عليه السلام في موضع آخر: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلَا ذَابٌ وَلَا مَسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلُ بَيْقٍ؛ فَضَنَتْ بَهْمَ عنِ الْمُنْيَةِ، فَأَغْضَبْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَاءِ، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ»^(٧).

الكافر:

أعتقد أن التكافؤ بين الزهراء عليها السلام وعلى عليه السلام الوارد في الأحاديث الكثيرة كالحديث التالي:

عن يونس بن طبيان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «لولا أن الله خلق أمير المؤمنين لفاطمة ما كان لها كفو على الأرض»^(٨).

لا يعني التكافؤ في الحياة الزوجية فحسب ولا يعني أيضاً أنهما مجمع النورين والبحرين بعد تفرقهما في عبد الله وأبي طالب حيث ورد في تفسير الآية:

محمد بن العباس عن محمد بن أحمد عن محفوظ بن بشر عن ابن شمر عن

جابر عن أبي عبد الله قال عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ 《مَرَاجِ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ》، قَالَ: «عَلَيْكُمْ وَفَاطِمَةٌ..»^(٩).

بل هناك أمر أَهْمَّ من ذلك وأرفع مستوى وهو التكافؤ في أداء التكليف الإلهي بحيث كل يكمل الآخر، وكل يؤدي تكليفه المتناقض مع تكليف الآخر ظاهراً، والمطابق معه واقعاً؛ فهو تكليف واحد، ولكن قد تجلّى وظهر في مواقفين متضادتين تماماً. ومن هنا نعرف السر في الحديث القدسي حيث يقول:

«لَوْلَا عَلَيْكُمْ لَمَا خَلَقْتُمْ فَاطِمَةَ إِلَّا..».

فَدَكُ هو المبرر لهذا الموقف:

ومبرر ثورتها هي فدك وهذه فدك لها بعدها رئيسياً:

أَحدهما: أَنَّهَا قرية في المحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة وهي أرض يهودية كانت تسكنها طائفة من اليهود، ولم يزالوا على ذلك حتى السنة السابعة حيث قذف الله الرعب في قلوب أهلها فصالحوا رسول الله ﷺ على النصف من فدك، وروي أَنَّه صاحبهم عليها كلها. وابتداً بذلك تاريخها الإسلامي، فكانت مُلْكًا لرسول الله ﷺ، لأنَّها ما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ثم قدَّمها لابنته الزهراء عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبقيت عندها حتى توفَّى أبوها عَلَيْهِ السَّلَامُ فانتزعها الخليفة الأول وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثروة الدولة يوم ذاك حتى تولَّى عمر الخلافة.

ثانيهما: أَنَّهَا هي الولاية بعينها أو من لوازمهما التي قد تجسدَت في ذلك اليوم، وهي عصب حياة الخلافة الإسلامية لا يمكن الاستقرار على منصة الحكم بدونها ومن حكمة رسول الله ﷺ أنه منح فدك لابنته الزهراء عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك حين نزل قوله تعالى 《وَاتَّهُدْنَا بِهِ مَنْ نَزَّلْنَا بِهِ وَمَنْ نَزَّلْنَا بِهِ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ..》^(١٠).

في مصباح الأنوار عن عطية قال: "لَا نَزَّلْنَا بِهِ مَنْ نَزَّلْنَا بِهِ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ دُعَا رَسُولُ

الله عليه وآله فاطمة فأعطها فدك".

عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت: «أكان رسول الله عليه وآله أعطى فاطمة عليه فدك؟ قال: كان رسول الله عليه وآله وقفها فأنزل الله وآت ذا القربي حقه فأعطها رسول الله عليه وآله حقها، قلت: رسول الله عليه وآله أعطاها؟ قال: بل الله تبارك وتعالى أعطاها»^(١).

فلو لم يفعل رسول الله عليه وآله ذلك مادا ترى سيحدث بعد ارتحاله؟!
كان الحاكم هو الذي يصطحبها بمبرر شرعي لا غبار عليه، وهو أنَّ فدك من بيت مال المسلمين الذي هو تحت تصرف الخليفة المنصوب من قبلهم فليس لأحد أن يطلب بها أصلًاً، وحينئذ لم يتواجد أيُّ مبرر لصرارخ الزهراء عليه ومواجهتها الحكم إلا دفاعاً عن زوجها، وهذا يعني أنَّ موقف زوجها هو موقفها لا فرق بينهما أصلًاً، وحينئذ يمكن لل الخليفة أن يسكنها ويرغمها بحججة أنها امرأة لا حق لها أن تتدخل في شؤون الحكم، أو يجبر عليها على إسكاتها وتهديتها، وإلا سوف يتخيَّل أيَّ قرار أراد ضدَّ علي عليه وضدَّ فاطمة عليه، وعلى فرض ما لو طلب علي عليه منها السكوت والتراجع فلا بد لها إذاً أن تهدأ لأنَّه حسب الفرض أنَّ صاحب الحق قد تراجع عن حقه فلا معنى للصرارخ والمجابهة منها بعد ذلك، وإن أصرَّت على ذلك فيمكن التعامل معها بالشدة وسوف لا يثير ذلك أحاسيس المسلمين لأنَّ هذا التعامل له مبرر شرعي وهو الحفاظ على الوحدة الإسلامية والوقوف دون شق عصا المسلمين.

وهل بإمكان الخليفة إعطائها فدك؟ كلام؟ لأنَّ ذلك يعني نجاح علي عليه ولقد عرف الخليفة هذا الأمر وهذا لما سمع خطيبتها شق عليه مقالتها فصعد المنبر وقال: «أيها الناس ما هذه الرعنة إلى كل قالة؟ أين كانت هذه الأمانة في عهد رسول الله عليه وآله؟ ألا من سمع فليقل، ومن شهد فليتكلم، إنما هو ثعالثة شهيدة ذنبه مرب لك فنته، هو الذي يقول: كروها جنعة بعد ما هرمـت، يستعينون بالضعفـة، ويستتصرون

بالنساء..»^(١٢).

أقول: أما الرعنة بالتخفيض أي الاستماع والإصغاء، والقالة القول، وثعلة اسم الشعلب.

ولكن: كل ذلك يتعاكش مع الفرض الآخر وهو مطالبة فدك - وهي المطالبة بالولاية في لباس آخر - إرجاع فدك إليها يعني التخلّي عن الولاية والخلافة وهو المطلوب الأوّل.

وعدم إرجاعها إليها يعني أنهم غصبوا حقها. والواضح عند كل المسلمين أنَّ الغاصب لا شرعية له ولا حق له بأن يحكم المسلمين خاصة لو كان قد غصب حق ابنة رسول الله ﷺ !!.

أخلست الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ!

إنَّ الكلمة الآتية كلمة علي عَلَيْهَا السَّلَامُ عند دفنه الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ . ويظهر للمتأمل فيها أمورٌ كثيرةٌ وحوادث جليلةٌ وكأنَّه عَلَيْهَا أراد بيانها ضمن السلام لتبقى مدى الدهر. ونحن ننقل النص الذي نقله المحدث الكليني قائلًا حيث يقول: "أحمد بن مهران رفعه وأحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار الشيباني قال: حدثني القاسم بن محمد الرازي قال: حدثنا علي بن محمد الهرمزاني عن أبي عبدالله الحسين بن علي عَلَيْهَا السَّلَامُ قال: (ما قبضت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ دفنتها أمير المؤمنين عَلَيْهَا السَّلَامُ سرًا وعفا على موضع قبرها ثم قام فحول وجهه إلى قبر رسول الله عَلَيْهَا السَّلَامُ فقال: السلام عليك يا رسول الله عَنِّي، والسلام عليك عن ابنتك، وزائرتك... إلى أن قال:

قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، وأخلست الزهراء فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله، أما حُزني فسرمد، وأما ليلى فمسهد، وهم لا يربح من قلبي أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم كَمَدِ مقيح، وهم مهيج سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستبئنك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها فأحْفَّها السؤال، واستخبرها

الحال، فكم من غليل متعلج بصدرها لم تجد إلى بُشَّه سبيلاً، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين، سلام مودع لا قال ولا سُمِّ، فإن انصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين.. واه واهَا والصبر أيمٌ وأجلٌ، ولو لا غلبة المستولين يجعل المقام واللبث لزاماً معكوفاً ولأعوالت إعواال الشكلي على جليل الرزية فبعين الله تدفن ابتك سراً وتهضم حقها وتمنع إرثها، ولم يتبعده العهد، ولم يخلق منك الذكر، وإلى الله يا رسول الله المشتكى وفيك يا رسول الله أحسن العزاء صلى الله عليك وعليها السلام و الرضوان»^(١٣).

«مرضت فاطمة عليها السلام مرضًا شديداً ومكثت أربعين ليلة في مرضها إلى أن توفيت صلوات الله عليها فلما نعيت إليها نفسها دعت أم أيمن وأسماء بنت عُمير، ووجهت خلف علي عليه السلام وأحضرته فقالت: يا ابن العم إنه قد نعيت إلى نفسي وإنني لا أرى ما بي إلا أنا لاحقة بأبيي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي، قال لها على عليه السلام: أوصي بـ «ما أحبت»^(١٤).

مفاجأة:

فما هي الحيلة التي ينبغي أن يتخذها الخليفة لإسكات بنت رسول الله عليه السلام? ليس هناك حل إلا الضرب والجرح والحرق ومن ثم القتل والشهادة، وهذا الأمر هو الذي سوف يفضح الخليفة ومن تبعه وشاعره كما فضحهم بين الأشهاد حين مارسو ذلك فضيحة لا خلاص منها إلى يوم القيمة.

الهدف = السكوت مع الصرارخ

وبالفعل قد تحقق الهدف المطلوب من هذا السكوت وذلك الصرارخ فبقي الإسلام والقرآن كأطروحة حديثة في صون من شر الجاهلية الثانية، وانكشفت جرائم من أراد بالإسلام سوءاً، وذلك بعد استشهاد بنت الرسول عليه السلام على أيديهم وهي مبغضة لهم غير راضية عنهم بتصريح الأحاديث الكثيرة التي نقلها الجمهور،

أبا بكر وصلّى الله عليه وآله.. الخ^(١٥)

بقيت أطروحة الولاية ثابتة كأطروحة ليست إلا، وأخذ الخالص من الموالين لأهل البيت ع يترصدون الفرصة المناسبة لتنفيذ تلك الأطروحة المباركة، أعني الولاية، وبدأ مفهوم الانتظار يترسّخ في قلوب الشيعة المخلصين حتى صار أفضل عبادة .. وكان هو المطلوب.

هذا: وقد استمرت غربة الإسلام الحمدي الأصيل، أي إسلام الغدير، قرونًا متواتلة ومررت على المؤمنين، وفي طليعتهم أئمة الشيعة ع، ظروف صعبة إلى للغاية وضّحوا ما ضّحوا من الأموال والأنفس الطاهرة، كل ذلك لأجل الحفاظ على أصالة الإسلام الحمدي (الذي هو إسلام الرّفض)، ومن منطلقه تبلورت مدرسة الانتظار والتّرقب، تلك المدرسة التي تمتلك روحية أخذ الثّار للحق إلى أن يأتي صاحب الثّار ولـي العصر ع.

ومن الواضح أنّ أئمتنا ع كلّهم كانوا يعيشون منتظرين للفرج ويحرّضون أصحابهم أيضًا على ذلك، وهم مع ذلك كانوا يسعون عملاً للتمهيد لتلك الدولة

منها: "حدّثني محمد بن رافع أخبرنا حجين حدّثنا ليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها أخبرته أنّ فاطمة بنت رسول الله ع أرسلت إلى أبي بكر الصديق، تسأله ميراثها من رسول الله ع ما أفاء الله عليه بالمدينة وفدهك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله ع قال: لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد ع في هذا المال، وإنّ والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ع عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ع ولاعملنّ فيها بما عمل بها رسول الله ع". فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، قال: فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله ع ستة أشهر فلما توفيت دفنتها زوجها علي بن أبي طالب ليلاً، ولم يؤذن بها



المباركة المأمولة، أعني دولة المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف.
وقد حقق أئمتنا عليهما السلام ذلك الهدف ضمن مجالين:

الأول: تربية نخبة من المؤمنين الخالص في كل عصر، لا أعني من الخالص ما يستنبطه البعض من الكلمة بل أعني أولئك الذين قد فهموا الإسلام - يعني الكلمة -، حقيقةً فهم بطبيعة الحال الغرباء بين الصديق والعدوّ وهم الحجّة على الآخرين وإن كان عددهم لا يتعذر أصابع اليد في أكثر الأزمنة. والجدير أنّ التاريخ يذكرهم بأسمائهم وأوصافهم.

الثاني: تثبيت الإسلام الخالص صريحاً أو إيماءً ضمن التراث العظيم من الأحاديث التي حافظ عليها السلف الصالح بقدر الإمكان حرفاً بحرف، بحيث لم يكن بإمكانهم فهمها فضلاً عن العمل بها لربما غفلوا عن محتواها أو فسّروها تفسيراً غير مرضيٍّ.

هذا واستمرّ هذا الوضع إلى أن انتهى عصر الغيبة الصغرى للمهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وبدأت الغيبة الكبرى وهو عصر اليتم وانتظار فرج آل محمد عليهما السلام.

ندعوا الله سبحانه أن يجعلنا من المنظرين الحقيقيين لوليّه المهدي المنتظر أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

الهوامش:

- (١) التوبة/١٠٣.
- (٢) البقرة/٨٥.
- (٣) النساء/١٥١، ١٥٠.
- (٤) آل عمران/١٤٤.
- (٥) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٧ باب ٩١ ص ٣٣.

- (٦) نهج البلاغة لابن أبي حميد ج ١ باب ٣ ص ١٥١.
- (٧) نهج البلاغه لابن أبي حميد ج ١١ باب ٢١١ ص ١٠٩.
- (٨) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٩٧ روایه ٦ باب ٥.
- (٩) بحار الأنوار ج ٢٤ ص ٩٧ روایه ١ باب ٣٦.
- (١٠) الإسراء ٢٦/٢.
- (١١) بحار الأنوار ج ٩٦ ص ٢١٢ روایه ١٨٤ باب ٢٥.
- (١٢) نهج البلاغه ج ١٦ باب ٤٥ ص ٢١٣.
- (١٣) الكافي ج ١ ص ٤٥٨ روایة ٣.
- (١٤) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٩١ روایه ٢٠ باب ٧.
- (١٥) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير الحديث ٣٣٠٤.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



حدیث لا نورٌ

اشیخ محمد علی خاتم

طالعنا كتب الحديث والتاريخ بما جرى على الأمة بعد
انتقال الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد خلفَ
من الأولاد ابنة واحدة وهي فاطمة الزهراء ؑ سريعة
الحاق به، وخلفَ عدداً من الزوجات.

ولعل أبرز قضية أخذت مأخذها لتنخر في جسد الأمة
الإسلامية هي قضية فدك فيراها البعض أنها أول ظلامة على
أهل البيت ؑ وعلى الدين، إذ بها تم تأسيس اللبنية الأولى
للتحرير في الدين وتأسيس لحرف قيادة المسلمين عن أهلها، ويراها آخرون
بأنها تطبيق لسنة الرسول ﷺ وتحمل أقصى غايات التبعيد بما جاء عن

الرسول ﷺ: «نَحْنُ مَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَّثُ مَا تَرَكَنَا هُدًى وَصَدْقَةً»^(١)، فَيَنْبَغِي عَلَى القائم بالأمر مقام الرسول ﷺ أَنْ يَسْعَى جَاهِدًا فِي تَطْبِيقِ مَقْولَتِه ﷺ، فَوْقَ النَّزَاعِ وَكَانَ مَدَارِه هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي اسْتَنَدَ عَلَيْهِ رَاوِيهِ الْوَحِيدِ وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ وَمَنْ تَبَعَهُ عَلَى مَرْجِ التَّارِيخِ... وَمَنْ هُنَا يَأْتِي مَحْتَوِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ، فَإِنَّا لَوْ جَارِيْنَا الْقَوْمَ وَسَلَمْنَا بِصَحَّةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى حَدِيثِ لَا نُورَّثُ فَهُلْ يَكُنْ قَبْوُلُ هَذَا الْحَدِيثَ أَوْ رَدًّا؟

وَهَذِهِ نَقَاطٌ نَسْتَمدُّ مِنَ اللَّهِ التَّوْفِيقِ فِي التَّوْقُفِ عَنْهَا لِنَخْلُصَ بِنَتْيَاجَةِ تَرْضِيِّ الْمَصْفِ الْمُتَأْمِلِ.

حَدِيثُ لَا نُورَّثُ خَبْرَ آحَادٍ:

لَا يَنْكِرُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ حَدِيثَ لَا نُورَّثُ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ الَّتِي تَفَرَّدَ أَبُو بَكْرٌ بِرَوَايَتِهِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَمَّا إِشْهَادُ عَدْدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ لِإِثْبَاتِ الْحَدِيثِ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي زَمْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -أَيُّ بَعْدَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ مِنْ قَضِيَّةِ فَدْكِ- وَهَذَا الإِشْهَادُ لَمْ يَكُنْ لَّمَّا طَالَتِ الْمَنَاقِشَاتُ حَوْلَ هَذَا الْحَدِيثِ بَعْدَ وَفَاتَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ إِلَى إِثْبَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَعَدَمُ إِشَهادِهِمْ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ يَوْجِبُ التَّوْقُفَ وَالتَّأْمِلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنْ لَمْ نَقْلُ بِأَنَّهُ يَوْجِبُ رَدًّا، وَالتَّأْمِلُ فِي شَهَادَتِهِمْ وَإِنْ كَانُوا أَرْبَعَةً^(٢) فَعَلَى هَذَا لَا تَكُونُ الرَّوَايَةُ مِنْهُمْ بِالسَّمَاعِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ مَقْبُولَةً.

رَدُّ شَهَادَةِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا:

وَبَعْدَ أَنْ تَفَرَّدَ أَبُوبَكْرٌ بِذِكْرِ هَذَا الْخَبْرِ أَصْرَرَتِ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهِ عَلَى أَنْ تَحْاجَّ أَبَا بَكْرٍ فِي صَحَّةِ الْخَبْرِ مُنْكِرًا مَنْعِهَا مِنْ حَقِّهَا قَائِلَةً: «أَفِي كِتابِ اللَّهِ تَرَثُ أَبَاكَ وَلَا أَرْثُ أَبِي»^(٣) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مَعَ الالْتِفَاتِ إِلَى أَنَّ الزَّهْرَاءَ عَلَيْهَا طَالَبَتْ أَوْلًا بِفَدْكِ عَلَى أَنَّهَا نَحْلَةٌ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْهَلَهَا أَيَّاً هَا أَيَّاً مِنْ حَيَاتِهِ وَشَهَدَ النَّحْلَةَ الشَّهُودُ الَّذِينَ جَاءُتْ

بهم لأبي بكر وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام وأم أيمن حفظها والحسن والحسين عليهما السلام ومع ذلك لم يقبل شهادة الجميع ولا يوجد شهود غيرهم فعندما انتقلت لطالب بفديك على أنها أرث فكانها تقول لأبي بكر: إن لم يثبت عندك أنها نحلة فأنا أستحقها إرثاً، فهنا نتسائل من أول الأمر هل ينبغي رد شهادة الزهراء عليهما السلام أم لا حتى لو جاءت لوحدها من دون أن تأتي بالشهود هل تقبل شهادتها أم لا؟ الجواب بكل بساطة إن شهادتها مقبولة حتى لو شهدت الأمة كلها على خلاف شهادتها، وما يدلل على هذه الدعوى أمور:

الأول: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا تَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٤) إذ لا يعقل بأن الله تعالى يعرض قوماً بجمعهم للخسف بمجرد دعاء جمع فيهم كاذب أو أنه سوف يكذب والعياذ بالله.

الثاني: أن الزهراء عليهما السلام في مرتبة من لا يُتهم بالكذب ولا يجوز عليه ذلك، وقد ورد عن علي أمير المؤمنين عليهما السلام أنه قال لأبي بكر: «لو شهد العدول على فاطمة عليهما السلام بفاحشة ما كنت صانعاً؟ قال: أحدهما^(٥)، قال: إذن تخرج عن الإسلام لأنك تركت شهادة الله لها بإذهاب الرجس عنها^(٦) وصدقتَ الخلق بإثباته فيها» وهذا واضح في إرادة إثبات عصمة الزهراء عليهما السلام، فإذا كانت معصومة مما يصدر عنها حق لا يعتريه البُّس والخطأ لأن المعصوم لا يكذب فإذا أدعى شيئاً فدعواه صائبة بلا شك^(٧) وبعد هذا لا فرق بين النص في القرآن على عصمة الزهراء عليهما السلام والنص على التحيلة.

ولعل هذا الكلام ثقيلاً على بعض الأذهان والقلوب فنكفي بشهادته عائشة حيث تقول: «ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها -أي فاطمة الزهراء عليهما السلام- إلا الذي ولدتها»^(٨).

الثالث: علم أبي بكر بصدقها وأن ساحتها مُنْزَهة عن الكذب وهذا واضح
من قوله: صدقت يا ابنة رسول الله عليه وآله وصدىق عليٍّ وصدقت أم أين^(٩) ثم
حرف مجرى القضية بجمع تبرّعه وألزمها بأن يأخذ فدكاً منها على أن يصنع فيها
ما كان يصنع فيها رسول الله عليه وآله، ولا نقف عند هذا الحد بل نقول: بأن أحداً
من المسلمين لم يشك في صدقها عليه ولم يتهمها بالافتراء على أبيها عليه وآله.
هذه الأمور الثلاثة تقنع من ردّ شهادة الزهراء عليه بأنها قلّك فدكاً وأنها نحلة
الرسول عليه وآله إليها وهذا إن لم يكذب الخبر فلا أقل يجعلنا نتوقف عنده.

تخصيص القرآن الكريم بحديث لا نورث:

ثم إنّه لو تعاضينا عمّا تقدم فإنه تبرز دعوى أن القرآن تعرّض إلى موضوع
 الإث وذكر مجموعة من الآيات الشريفة التي تشكل عمومات^(١٠) لباب الإرث
 يمكن أن تقيّدها السنة الشريفة وعلى هذا فإنه عندما جاء حديث لا نورث فهو
 يُعدُّ مختصّاً لعمومات القرآن الكريم فيكون المعنى أن كلَّ الناس يتوارثون إلا
 الأنبياء فهم لا يتوارثون وإذا ورثوا فإنهم يورثون العلم والحكمة، وهناك من
 ادعى أكثر من هذا فقال: بأن الأنبياء لا يرثون ولا يورثون بمعنى هذا الحديث.

فهل هذا الحديث صالح لتخصيص القرآن الكريم أم لا؟

الجواب: إنه غير صالح، وذلك لعدة أمور:-

منها: لو سُلِّمَ صحته فالتحصيص لا يتم، لأنّه خبر آحاد ولم يرو عن غيره
 وهو مع وحدته منكورة من قبل الكثير، أضف إلى هذا أن التّهّمة واضحة على
 راوي هذا الحديث لكونه طرفا في الدعوى إذ لم يتداعّ غيره مع الزهراء عليه
 بالاتفاق، وحتى لو لم نقل بأنه طرف في الدعوى فهو ادعاه للمسلمين وأنه يجب
 عليه أن يحفظ أموال المسلمين من الضياع والتلف فإن التّهّمة تبقى قائمة وهي
 غرض إضعاف جانب أهل البيت عليه حتى لا يتمكنوا من المنازعة في الخلافة

ولَا يمْلِي النَّاسُ إِلَيْهِمْ وَلَوْ كَانَ الْمِيلُ لِنَبِيلٍ زَخَارِفَ الدِّنِيَا فِي كُثْرَةِ الْأَعْوَانِ
وَالْأَنْصَارِ... وَلَا يُشَكُّ أَحَدٌ بِأَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمْ يَكُنْ طَالِبًا لِلْحَلَافَةِ عَلَى أَنَّهُ
يُسْتَحْقِهَا، وَإِنْ لَمْ تَقْبِلْ هَذَا فَإِنَّ التَّهْمَةَ لَا تَزَالْ قَائِمَةً إِذَا فِي إِنْكَارٍ كُونَ فَدْكَ إِرْثًا
لِلْزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامِ يُدْخِلُ الْمَنْفَعَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لَا لَأْنَهُ فَرِدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ لَأَنَّهُ
سِيَحْصُلُ عَلَى الْقَلِيلِ أَوِ الْفَتَاتِ مِنْهَا لِتَوْزِيعِ خَيْرَاتِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بَلْ لَأْنَهُ قَائِمٌ
مَقَامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فَلَمْ كَانْ خَاصًا بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامِ لِلْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي يَرْوِيهِ
هُوَ نَفْسُهُ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامِ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَطْعَمَ نَبِيًّا طَعْمَهُ فَهِيَ لِلَّذِي يَقُومُ
مَقَامَهُ مِنْ بَعْدِهِ»^(۱۱) فَتَأْمَلُ.

منها: لو سُلِّمَ صَحَّةُ الْحَدِيثِ فَالْتَّخْصِيصُ لَا يَتَمَّ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ وَارِثُ
رُوْحَانِي وَجَسْمَانِي، أَمَّا الرُّوْحَانِي فَهُمْ مَنْ يَرْثُونَ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ (الْمُتَمَثِّلُ فِي
الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَالشَّرِيعَةِ)، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»
مَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يَرْثُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ دِينَارًا وَلَا درَهْمًا، وَأَمَّا الْوَارِثُ الْجَسْمَانِي فَهُمْ
الْأَقْرَبُاءُ الَّذِينَ يَرْثُونَ مَا يَرْثُهُ الْعُلَمَاءُ إِنْ كَانُوا أَهْلًا لِذَلِكَ وَيَرْثُونَ الْمَالَ بِقَضَى
عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ^(۱۲).

منها: القُولُ بِتَخْصِيصِ الْكِتَابِ قَطْعِيٌّ الصَّدُورُ بِالْخَبَرِ الْوَاحِدِ ظَنِّي الصَّدُورِ
لِأَنَّهُ حَاكِمٌ أَوْ وَارِدٌ عَلَى أَصْلَةِ الْعُمُومِ وَالْإِطْلَاقِ، فَإِنَّ الزَّهْرَاءَ عَالِمَةٌ بِهَذَا الْأَمْرِ
وَمَعَ ذَلِكَ احْتَجَّتْ بِالآيَاتِ الْعَامَّةِ بَعْدَ ذِكْرِهِ حَدِيثٌ لَا نُورٌ؛ ذَلِكَ لِعَدَمِ اعْتِرَافِهَا
بِوَثَاقَةِ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى يَعْتَدِمَ عَلَى رَوَايَتِهِ.

منها: إِنْ آتَيْتِ إِرْثَ سَلِيمَانَ**﴿وَوَرَثَ سُلَيْمَانُ دَاؤُودَ﴾** وَيَحِيَّ**﴿فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾*** يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ أَلِّ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبًّا رَضِيًّا^{*} شَاهِدَانَ عَلَى
تَوْرِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَصْغِي إِلَى دُعَوَى خَرُوجِ تَوْرِيَثِهِمَا مِنْ تَحْتِ «نَحْنُ مَعَاشُ
الْأَنْبِيَاءِ لَنُورٌ» خَرُوجٌ تَقْيِيدٌ لِأَنَّ الْحَدِيثَ الْمُذَكُورُ عَامٌ يَأْبِي عَنِ التَّقْيِيدِ إِنَّهُ يَدْلِي

على أن خاصية النبوة مانعة عن التوارث وأن لا شأنية للنبي ﷺ أنه يورث، فلا يقبل بعد هذا تقييداً فـإِمَّا أَنْ نَقْبِلُ التَّقْيِيدَ وَنَرْفَضُ الْآيَتَيْنِ أَوْ نَرْفَضُ التَّقْيِيدَ وَنَأْخُذُ بِالْآيَتَيْنِ وَهُوَ الْمُتَعِّنُ^(١٣).

دلائل حديث لا نورث:

وإذا لم يُقبل بما تقدّم وبقي الإصرار على إمكان تخصيص آيات الإرث بحديث لا نورث، فإننا نسأل هل لهذا الحديث دلالة تامة تفيد التخصيص أم لا؟ والجواب عن هذا السؤال من عدّة جهات:

المجهة الأولى: يحتمل احتمالاً معتدلاً به أن المراد ليس أن الأنبياء ليس لهم الحق في التوريث بل إن الأنبياء لا يسعون في إبقاء شيء زائد في أيديهم حتى يورثوه، وهذا من قبيل قول الفقير نحن معاشر القراء لا نورث هذا لا يعني حكاية الفقير عدم حقهم في التوريث بل المعنى هو أنه لا يوجد عندهم ما يصدق عليه بأنه ميراث، ولا يخفى على المتأمل أن في هذا إطراء على الأنبياء وأنهم زاهدون فيكون عندئذ الحديث خارجاً عن محل الكلام من رأس.

وإذا لم نحتمل هذا لكان في هذا الحديث نقض للغرض من تشريع التوريث إذ لا توجد مزية في استثناء الأنبياء من ذلك، ويؤيد هذا ما ذكر من خلال الأمثلة التي كانت لأمور خطيرة حيث قال في تتمة الحديث: «نَحْنُ مَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورُّتُ ذَهَبًا وَلَا فَضَّةً وَلَا دَارَا وَلَا عَقَارًا» مما يعني أن الأنبياء ليسوا من يكنز الذهب والفضة أو يجمع العقار حتى يورثوه، ولو كان المراد هو عدم استحقاق أولاد الأنبياء للإرث لنبيه بذكر الأفراد الخفية للأمور الحقيقة فلا دلالة على المطلوب.

المجهة الثانية: في الحديث جملة وهي «إِنَّا نُورُثُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ وَالنَّبُوَّةَ» وهذه تصرُف كون المراد من الإرث -في حديث لا نورث- هو الإرث

المعروف فهي تدل على أن الأنبياء لا يسعون في جمع حطام الدنيا فيرحلون عن الدنيا وليس عندهم شيء يورث إلا ما كانوا قد سخروا وجودهم إليه وهو الإيمان والحكمة والعلم. فلا دلالة على المطلوب.

المقدمة الثالثة: لم يُؤلف من النبي ﷺ أن يعظم نفسه فتكون النون عندئذٍ في لا نورٌ هي نون جمع لا نون تعظيم لشخصه العظيم، فيكون مراده أن ما يتركه جماعة المسلمين صدقة حال حياتهم فهو لا يورث بعد موته وشخصه الكريم داخل في جماعة المسلمين، وإن قيل بأنه لا مزية للرسول ﷺ عن المسلمين قلنا بوجودها في أن أولاده لا يأكلون من الصدقات التي أوقفها ﷺ حتى لو افتقروا بخلاف بقية المسلمين. فلا دلالة على المطلوب.

المقدمة الرابعة: أنه جاء في الحديث جملة «لا نورٌ ما تركناه صدقة» وفي هذه الجملة احتمالان أحدهما أن ماجعلناه صدقة حال حياتنا فهو غير داخل في التركة فلا يورث بل يبقى صدقة كما جعلنا، وهذا الاحتمال ترجحه القرائن فهو موافق لما هو مرتکز في الأذهان ويساعد عليه ما ذكرنا في المقدمة السابقة، وأما الاحتمال الآخر وهو الذي يراه غيرنا من أن «ما تركناه صدقة» جملة مستأنفة فيكون المعنى أنّا لا نورٌ وأن أيّ شيء يبقى من ملكتنا بعد وفاتنا فإنه يصير صدقة، وهذا وإن كان محتملاً فهو مفترض إلى المرجح فيتعين الأول لمكان الترجيح المذكور، وإن لم يُقبل الترجح فإن اللفظ يصير بجملة لا دلالة له على المطلوب. وبهذا يتضح أن الحديث لا دلالة له على المطلوب وإن لم يُسلم بما ذكر فهي محتملات على أقل تقدير لا يتعين غيرها مالم يتم دفعها.

هل حديث لا نورٌ محاولاً للاعتماد؟

ثم لو تنزلنا وقلنا بإمكان التخصيص وقلنا بتمامية دلالة الحديث على المطلوب، فإنّا لا نرى كون هذا الحديث محاولاً للاعتماد حتى نرتب عليه الأثر،

وذلك لأمور منها:

١- دفن الرسول ﷺ في الحجرة التي كان يستقبل فيها الناس^(١٤) تصرف من قبل الدافن في أموال المسلمين التي هي صدقة لهم كما هو الفرض فأين الحديث من هذا الفعل الذي كان برأي من المسلمين وسمع، ولم ينكره أحد حتى راوي حديث لا نورٌ.

٢- تفرّد أبو بكر بنقله، وأما دعوى شهادة غيره على الحديث فإن شهادتهم هذه وقعت في زمن عمر فلم يشهدوا بها في زمن أبي بكر، فإذاً أنهم سمعوا الحديث من الرسول ﷺ مباشرة وإنما أنهم اعتمدوا على نقل أبي بكر فكأنهم يررون الحديث عنه والأول غير محتمل لوجوب إظهار علمهم بذكر الحديث في تلك الظروف الحارّة بعد وفاته ﷺ وإلا فهم مقصرون ومذنبون لعدم إظهار العلم وعدم نصرتهم ل الخليفة الرسول ﷺ وعدم السعي في إنقاذ الأمة من أول الفتنة التي وقعت عليها، وعدم صون الدين من النقص والتحريف، وعلى الثاني - أي أنهم اعتمدوا على نقل أبي بكر - فلا يعني هذا تكثير المخبرين بالخبر الواحد لرجوع الجميع إليه، ثم إن ابنة الرسول ﷺ أولى بالتصديق من أبي بكر فلم يرروا خبر النحلة عنها، ومن ثم لا يصح القول بأن سكوتهم وسكتوت الأمة دالٌ على صحة حديث لا نورٌ لجواز القول بأنهم والأمة كذلك سكتوا عن تكذيب الزهراء ؑ وعلي ؑ والعباس ؑ، ولا سيما أن المشاحداث قد طالت وكثرت المراجعات "وكان أدنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وتذكيرها ما نسيت وصرفها عن الخطأ ورفع قدرها عن البداء وأن تقول هجراً أو تجور عادلاً أو تقطع واصلاً، فإذا لم نجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور واستوت الأسباب، والرجوع إلى أصل حكم الله في المواريث أولى"^(١٥).

أضف إلى هذا أن السكوت عن تخطئة رأس الدولة خصوصاً في هذا الظرف

المساس بجعل المعترضين عرضة للقتل وإلا فالحبس ولا أقل الاستحياء، فالسكوت ليس بحجة تشفى الغليل ولن يستغنى من دليل.

٣- عدم علم أصحاب الشأن بهذا الحديث بل تكذيبهم له في مواطن عديدة، إلا أن يدعى افتراقهم على الرسول ﷺ، ولن يقول شيء من هذا إلا مارق عن الدين، ونسجل تعجبنا الشديد في إسرار الرسول ﷺ بهذا الحديث إلى أبي بكر وهو ليس له من الإرث شيء وأصحاب الإرث لا يعرفون به، ثم إنه لم يعرّفنا التاريخ أن النبي ﷺ كان يعتمد الاجتماع الخاص مع أبي بكر وأنه كان يخبره بأسراره ومهام أمره.

٤- أخذ الصدقة من بنت النبي ﷺ قهراً جهاراً، وترك زوجاته ﷺ في تلك البيوت التي هي صدقة، ولو بررنا هذا الفعل بما روي كذباً عنه ﷺ «لا يقتسم ورثتي دناني، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عالي فهو صدقة»^(١٦)، فلا نعلم وجهاً لإكرام بنت الرسول ﷺ بهذا الشكل بأن يكون لزوجات أبيها مسكنًا لأنّه من النفقه وليس للزهراء ﷺ ذلك، وهن للزهراء ﷺ مؤنة، ولا أعلم كيف الحال بالزهراء ﷺ لو لم تكن متزوجة فإذا أنها ترقب من يسكنها عندها من نساء النبي ﷺ أو تخرج لتسأجر داراً إذ لاحق لها في دار أبيها!

٥- مخالفة الخبر لتصريح القرآن وعدم إمكان التخصيص به كما تقدم ببيانه.

٦- إنكار الزهراء ﷺ هذه الرواية بذكر الآيات دليلاً على عدم تصديقها للخبر أو أنها رأت بأن الخبر عام فخصصته بالآيات.

٧- رفع الكلمة (صدقة) الواردة في الحديث على الإخبار، فالزهراء ﷺ فهمت إرادة الرفع على أن (صدقة) خبر، فأنكرت ذلك عليه، وأما نصب هذه الكلمة على الحالية فهو احتمال جيد لكن لا مرجح له بعد إجمال التحرير وعدم نقله لنا خصوصاً بعد وقوع الكلمة في آخر الكلام مما يقتضي السكوت عليها.^(١٧).

وترجح قراءة النص لكونها تناسب عمومات القرآن فيه تأمل لاحتمال إرادة التخصيص على فرض ثبوت الخبر، وأما كون قراءة النصب تفضي إلى لغوية الخبر بعد انعدام الفائدة منه لإضافاته عندئذٍ إلى حكم يشترك فيه الأنبياء وغيرهم فيه تأمل لاحتمال إرادة النزاهة وسبق الأنبياء في فعل الخيرات وعدم اهتمامهم بحطام الدنيا فهم لا يتربون شيئاً يورث لكثرة الصدقات والعطايا، إضافة إلى أنه توجد فائدة لهذا الحديث -على قراءة النصب- وهي أن ما يتربونه الأنبياء حال حياتهم فهو صدقة لا يأكل منها أولادهم حتى لو افتقروا واحتاجوا لحرمة الصدقة عليهم تعظيمًا لهم ورفعه لقدرهم، فيكون هذا إعطاء خصوصية للأنبياء.

وإن قلتَ بأنَّ هذَا صرْفٌ لِمَعْنَى الْإِرْثِ عَنْ ظَاهِرِهِ فِي الْمَدِيدِ.

قلتُ بأنَّ الْقُرْآنَ قد استخدم ذلك فهو أولى بأن يُشكل عليه حيث يقول:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطْئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ مع أنَّهم لم يرثوا بطريق شرعي بل وصلت إليهم تلك الأرض.

٨- إصرار الزهراء عليها السلام وزوجها عليه السلام والعباس عليه السلام في مواطن عديدة على

المطالبة بهذا الإرث وكان منهم ذلك في زمن الأول والثاني كما جاء في مسلم ^(١٨)
والبخاري ^(١٩).

٩- إنه -أبو بكر- حكم في بغلة الرسول عليه السلام عندما اختلف فيها أمير المؤمنين عليه السلام والعباس عليه السلام- كما يدعى- فحكم فيها على أنها إرث للأمير عليه السلام ولو كانت البغلة إرثاً فلِمْ يورث فاطمة فدكاً عندئذٍ أو يأخذ البغلة منهما ليصرفها في مصالح المسلمين، ولو كانت صدقة فكيف حلَّتْ لعلي عليه السلام فهو وإن لم يكن ولداً للرسول عليه السلام لكن الحسينين والزهراء عليه السلام أولاد الرسول فتعود الحرمة لاستفادتهم من هذه الصدقة.

١٠ - أنّ أبا بكر خصّ هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما
بعض متروكات النبي ﷺ .^(٢٠)

١١ - كون الخبر جارٍ على خلاف المعمود، ذلك أنّ أهل التاريخ اعتادوا على
نقل كل ما جرى من أحداث "على خلاف المعمود بين الناس وخرج عن سنن
عاداتهم، سيما إذا وقع في كل عصر وزمان وتوفّرت الدواعي إلى نقله وروايته، ومن
المعلوم لكل أحد أنّ جميع الأمم على اختلافهم في مذاهبهم - يهتمون بضبط أحوال
الأنبياء ﷺ وسيرتهم وأحوال أولادهم، وما جرى عليهم بعد آبائهم وضبط
خصائصهم وما يتفرّدون به عن غيرهم، ومن المعلوم أيضاً أنّ العادة قد جرت من يوم
خلق الله الدنيا وأهلها إلى زمان انتفاضة مدتها وفتقها بأن يرث الأقربون من الأولاد
وغيرهم أقاربهم وذوي أرحامهم وينتقلوا بأموالهم وما خلفوه بعد موتهم، ولا شكَّ
لأحد في أنّ عامة الناس عالمهم وجاهلهم وغافلهم وفتّهم ولوكهم ورعاياهم يرغبون
إلى كل ما نسب إلى ذي شرف وفضيلة، ويتركون به، ويحرزه الملوك في خزائنهم
ويوصون به لأحبّ أهلهم، فكيف بسلاح الأنبياء وثيابهم وأمتاعهم؟... فلو كان ما تركه
الأنبياء من لدن آدم - على نبينا وأله وعليه السلام - إلى الخاتم ﷺ صدقة لقسمتْ
بين الناس بخلاف المعمود من توارث الآباء والأولاد وسائر الأقارب^(٢١) ، ولوجدتْ
عصا موسى وخاتم سليمان وسيفه في أكبر متاحف العالم في يومنا هذا.

١٢ - لم تعرف البشرية بهذا الحكم إلا في عهد أبي بكر وبعد وفاة
الرسول ﷺ وعن طريق حديث لا نورث فقط، وهذا يُبرز تساولاً وهو أنه مع
فرض صحة الحديث فإن الأنبياء السابقين إما أنّ كل واحد منهم بين هذا الحكم
أو لا؟ والأول باطل لمخالفته الظاهر إذ كيف يخفى على جميع أهل الملل والأديان
ولم يسمع به أحد إلا أبا بكر. أضف إليه أنه لم ينقل لنا التاريخ خبر قوم تنازعوا
في ما بينهم على تركة نبيّهم التي جعلت صدقة لهم. والثاني باطل أيضاً لأنّا نسأل

عن حال ورثة الأنبياء فهل رضوا بقول القائمين بالأمر مقام الأنبياء فخالفت ابنة أفضل الأنبياء في ذلك، أم أن المنازعـة كانت سـنة عند جميع ورثة الأنبياء إما بين بعضهم البعض وإما بينهم وبين القائمين بالأمر مقام الأنبياء فالزهراء عـلـيـها لـم تـخـرـج عن هذه السنة^(٢٢).

١٣ - وإن لم يُقبل شيء مما تقدم فإنـا نـجـزـمـ بـأنـ رـاوـيـ الـخـبـرـ نـفـسـهـ يـكـذـبـ الـخـبـرـ،ـ وـذـلـكـ عـنـدـمـاـ أـوـصـىـ بـأـنـ يـدـفـنـ بـجـانـبـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـلـهـ فـيـ الـحـجـرـ الـخـاصـةـ الـتـيـ كـانـ يـسـتـقـبـلـ فـيـهـ النـاسـ،ـ فـأـبـوـ بـكـرـ أـوـصـىـ بـأـنـ يـدـفـنـ فـيـمـاـ كـانـ صـدـقـةـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ كـافـةـ،ـ إـلـاـ أـنـ يـدـعـىـ بـأـنـهـ قـدـ أـخـذـ إـلـذـنـ مـنـ كـبـارـ الـمـسـلـمـينـ رـجـالـاـ وـنـسـاءـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ وـخـارـجـهـاـ،ـ وـأـخـذـ إـلـذـنـ مـنـ أـوـلـيـاءـ الـقاـصـرـينـ مـنـ أـوـلـادـ الـمـسـلـمـينـ،ـ وـلـمـ يـشـبـيـتـ ذـلـكـ أـلـبـتـةـ.

بعد هذا السرد فإني لا أعتقد بوجود مجال لاعتماد هذا الحديث، فإن لم نقل بأنه مدسوس ومكذوب على النبي عـلـيـهـ وـآلـهـ وـلـهـ فهو لا أقل ليس محلـاـ لـلاـعـتمـادـ.

ضـبـجـةـ حـوـلـ إـرـثـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـلـهـ:

ولـكـ بـعـدـ هـذـاـ يـاـ طـالـبـ الـحـقـيـقـةـ أـنـ تـفـتـحـ عـيـنـيـكـ بـأـوـسـعـهـمـاـ مـتـعـجـبـاـ مـاـ يـصـنـعـ بـدـيـنـ الـمـصـطـفـيـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـلـهـ وـعـتـرـتـهـ الـطـاهـرـيـنـ التـجـبـاءـ،ـ وـلـاـ غـرـوـ إـنـ تـسـائـلـتـ قـائـلـاـ:ـ لـمـاـ هـذـهـ الضـبـجـةـ حـوـلـ إـرـثـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـلـهـ فـيـرـاثـهـ لـمـ يـكـنـ بـذـلـكـ الـقـدـرـ الـكـيـرـ الـذـيـ يـسـتـحـقـ ذـلـكـ؟ـ وـالـجـوابـ فـيـ نـقـاطـ ثـلـاثـ:

الأولى: صـرـفـ قـضـيـةـ فـدـكـ وـحـرـفـهـاـ مـنـ كـوـنـهـاـ نـحـلـةـ إـلـىـ أـنـهـاـ إـرـثـ.

الثـانـيـةـ: ما ذـكـرـهـ اـبـنـ أـبـيـ الـحـدـيدـ عـلـىـ لـسـانـ أـحـدـهـ أـنـ الـمـرـادـ مـنـ ذـلـكـ هوـ "ـأـلـاـ يـتـقـوـيـ عـلـيـهـ عـلـيـهـ بـحـاـصـلـهـ ،ـ وـغـلـظـهـ عـلـىـ الـمـنـازـعـةـ فـيـ الـخـلـافـةـ،ـ وـلـهـذـاـ أـتـبـعـاـ ذـلـكـ بـمـنـعـ فـاطـمـةـ وـعـلـيـهـ وـسـائـرـ بـنـيـ هـاشـمـ وـبـنـيـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ حـقـهـمـ فـيـ الـخـمـسـ فـإـنـ الـفـقـيرـ الـذـيـ لـاـ مـالـ لـهـ تـضـعـفـ هـمـتـهـ وـيـتـصـاغـرـ عـنـ نـفـسـهـ وـيـكـونـ مـشـغـلـاـ بـالـاحـتـراـسـ وـالـاـكـتسـابـ عـنـ

طلب الملك والرياسة^(٢٣).

الثالثة: "لو أرجع أبو بكر فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعى لزوجها الخليفة، وزحزحه عن مقامه ولم يكن يمنعه الاعتذار والموافقة بشيء لأنه قد أسجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعى كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود"^(٢٤). ويعلّق ابن أبي الحديد على هذا الكلام بأنه كلام صحيح.

تساؤلات:

ونقف هنا على بعض التأملات:

١- قال ابن حزم^(٢٥): "وصيئته عليه ولله بجميع ما ترك بقوله الثابت يقيناً، إننا معاشر الأنبياء لا نورث ماترکاه صدقة، وهذه الوصية صحيحة بلا اشكال لأنه أوصى بصدقة كل ما يترك إذا مات"، ونجيبه بأن الوصية لاتنفذ إلا في الثالث وفاما عند المسلمين وما زاد عليه فيتوقف على إجازة الورثة وهي غير محربة قطعاً باحتجاج الزهراء، إضافةً إلى هذا أن حدث لا نورث غير محرب فضلاً عن التيقن بشبوبته، هذا مع منع ظهور العبارة في الوصية.

٢- قال النووي^(٢٦): "الصواب الجزم بأنه زال ملكه عليه ولله، وأن ما تركه فهو صدقة على المسلمين لا يختص به الورثة، وكيف يصح غير ما ذكرته مع قوله عليه ولله: لا نورث ما تركاه فهو صدقة، وهذا نص على زوال الملك"، ونجيبه بأنه لو سلمنا معك فيما تقول فكيف نفسّر بقاء زوجات الرسول عليه ولله في بيوتهن وعدم إخراجهن منها.

٣- إن قيل بأنه عند الشيعة لا ترث المرأة من العقار، فكيف تطالب الزهراء عليه ولله بالميراث المتمثل بفديك؟، فإنه يقال بأن هذا عارٍ عن الصحة لأن ما ثبت عندنا أن الزوجة ترث من كل شيء عدا العقار مع حفظ حقها، أما البنت فترث من كل شيء وهذا صريح القرآن ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ

حَظٌّ الْأُثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَّا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يَبْوَيْهِ لِكُلٍّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا السُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ^(٢٧).

٤- يقول الجاحظ^(٢٨): "والعجب كل العجب أن كل صنف ممن خالفنا في الميراث يرد أحاديث مخالفة مما هو أصح إسناداً من روایة أبي بكر، فإذا صاروا إلى ميراث النبي ﷺ خصوا الكتاب بخبر لا يداني بعض ماروهه!" وأعجب من هذا إنكار مقالة من لا يُشك في عدالتها وظهورها بُعْنَية تصديق مقالة من يُشك في عدالته وصدقه!!

٥- ورد عن النبي ﷺ: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء»^(٢٩) فهذا الحديث على فرض ثبوته فإنه يثبت علم عائشة الغزير، وهو وإن تضمن الإهمال من جهة غير عائشة^(٣٠) إلا أنه يثبت العلم لزوجة من زوجات الرسول ﷺ نتيجة التصاقها به ﷺ، ولو ردّ هذا الخبر لاحتواه على كلمة حميراء^(٣١) فإن محتواه لا يختلف فيه اثنان من العامة فمن هنا نسجل الاعتراض ونقول: بأنه إذا كانت عائشة قد أصبحت عالمة بأمور الشريعة وحفظت الكثير من المسائل عن الرسول ﷺ نتيجة مجالستها إليه ﷺ فابنة الرسول كذلك على أقل تقدير، ومع ذلك لم تحفظ مسألة مهمة عن الرسول ﷺ تخصّها! ويزيد في العجب أن عليها^{عليها} لم يعلماها هذه المسألة، ولم يعنها عن الخروج والاحتجاج على أمر باطل! بل يحضر بنفسه ويشهد معها على أمر ليس من الدين في شيء وهو باب مدينة علم الرسول ﷺ^(٣٢) وأحد المبشررين بالجنة!

٦- بعد كل هذا أقف وقفه الحيران لأقول بأن الزهراء ليست قاتلة للرسول ﷺ حتى تمنع من إرثها، وليس ذمية ليكون الكفر مانعاً من إرثها^(٣٣)، وليس ملوكه مسترقة حتى تمنع من إرثها... فلماذا منعت!

الخاتمة:

وفي ختام هذه الكلمات أقول: إن لزم الشيعة بحديث تفرد به خصومهم لزم المخالفين ما تفرد به الشيعة بروايتها.

وإنه لأمر غريب جداً أن يثبت حديث قد ملئ بالمغصات وأطبقت طائفة بأكملها على إنكاره وتسالم مؤيدوه بعلة كونه خبراً أحد، ويُنكر حديث الغدير الثابت عند الفريقين وادعينا عليه التواتر فلم يتم الإصرار على أمرٍ بعيد عن الصحة وترك الحق اليقين الظاهر للعيان و التشكيك فيه!

وكيف ما كان فإن لم تقبل هذه المناقشة فهي تبقى احتمالات معتد بها مدرومة بالمرجحات لا يصار إلى غيرها ما لم يتم إسقاطها، وترجح غيرها بلا ذكر الدليل فهو ترجيح بلا مرجح، والتنزل الأخير في هذه المناقشة إن لم يكن التسليم بما ذكر من مناقشات، هو أن هذا الحديث يبقى بجملة وغير صالح للاستدلال به.

ويطيب لي أن أزيد ما تقدّم بتعليق الخبر صاحب البحار على هذا الحديث حيث يقول: "ولعمري لا أشك في أن من لزم الإنصاف وجانب المكافحة والاعتساف، وتأمل في مدلول الخبر، وأمعن النظر يجزم قطعاً بكتبه وبطلانه".^(٣٤)

ولله الحمد والمنة.

الهوامش:

(١) مسندي أحمد بن حنبل ٤٦٣/٢.

(٢) هم: طلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ١٣٨/١.

(٤) سورة آل عمران ٦١/٣.

(٥) أي أقيم عليها الحد.

- (٦) إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيذْهَبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيَطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ سورة الأحزاب ٣٣/٣٣.
- (٧) فدك في التاريخ ١٩٠.
- (٨) المستدرك للحاكم النيسابوري ١٦٠/٣ وعلق عليه بقوله: "هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".
- (٩) شرح ابن أبي الحديد ٣٤٨/١٦.
- (١٠) النحل ١٦/١٦، مريم ١٩/٥-٦، النساء ٤/٧-١٢، ١١-١٢.
- (١١) سنن أبي داود ٣٥/٢.
- (١٢) منهاج الصالحين للشيخ الوحيد الخراساني ١/٢٨٥.
- (١٣) استفده من أحد أساتذتي.
- (١٤) اشتهر بين الناس أن النبي ﷺ دفن في حجرة عائشة لما أخرجه البخاري بسنده إلى عائشة (صحيح البخاري ٤١٢/١) أنها قالت: "إن كان رسول الله ﷺ ليعتذر في مرضه: أين أنا اليوم؟ وأين أنا غداً؟ استبطأ ليوم عائشة، فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري ودفن في بيتي"، فنقل ابن كثير التواتر على ذلك (السيرة النبوية ٥٤١/٤) إلا أن الحق أنه ﷺ دفن في حجرة خاصة كان يستقبل فيها الناس وليس حجرة عائشة ويدل على ذلك:
- صغر حجرتها بحيث لا يسع لدفن ثلاثة أشخاص فيها بدليل ما جاء في البخاري (صحيح البخاري ١٧٤/١، ١٤٢/١) من قول عائشة: "كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاً في قبلي، فإذا سجد غزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتها".
 - أنها بعد دفن عمر بن الخطاب كانت إذا دخلت شدّت ثيابها عليها حياءً من عمر، وهذا يفيد أنها لم تكن تلك حجرتها وإنما كانت تشد ثيابها ليلاً ونهاراً ومن باب أولى عدم اضطجاعها ليكون هذا حالها حتى موتها! ويدل عليه ما في مسندي أحمد (مسند أحمد بن حنبل ٢٠٢/٦، المستدرك ٦٣/٣) علق عليه الحاكم: "صحيح على شرط الشيفيين، ولم يخرجاه" وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦/٨: "رواه أحمد، رجاله رجال الصحيح"، حيث روي عنها أنها قالت: "كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله ﷺ وأضع ثوابي، وأقول إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر معهم فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة على ثيابي حياءً من عمر".

- أنها أوصت بحجرتها إلى عبدالله بن الزبير فلو كان فيها الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر لم يجز لها الإيضاء بما ليس لها حق فيه أو بيعه حيث قيل بأنها باعتها إلى معاوية، وهذا ما جاء في سنن البيهقي ٣٤/٦، والطبقات الكبرى لابن سعد ١١٨/٨، عن هشام بن عروة: "كان عبدالله بن الزبير يعتقد بركة ما لا يعتقد بها أحد من الناس... أوصت له عائشة بحجرتها واشتري حجرة سودة..."، وجاء في الطبقات الكبرى ١٦٤/٨ عن أبي سبره، قال: "... فأخبرني بعض أهل الشام أن معاوية أرسل إلى عائشة... واشتري من عائشة منزلها يقول بائعة وثمانين ألف درهم، ويقال بائعي ألف درهم: وشرط لها سكناها حياتها...".

إلى غير ذلك مما ذكره الشيخ علي آل محسن في موقعه الرسمي على صفحة الإنترنت تحت عنوان مقالات - هل دفن النبي ﷺ في بيت عائشة؟.

(١٥) هذا ما ذكره (الباحث في رسائله ٣٠٠) نقلناه من كتاب الغدير للأميني ٢٣٠/٧.

(١٦) الموطأ لابن مالك ٩٩٣/٢.

(١٧) هناك كلام حول كلمة (صدقية) الواقعة في الحديث، فهل تقرأ بالنصب أم بالرفع، فعلى الأول تكون حالاً لـ(ما)، ويكون المعنى أَنَّا لَا نورُّ المتروكات التي كانت صدقة فَمَّا مَلَمْ تكن صدقة في حياتنا فهي إرث للورثة وهذا يوافق رأينا.

وعلى الثاني - قراءة الرفع - تكون خبراً لـ(ما) فتكون جملة (ما تركناه) جملة مستأنفة، وهذا يوافق رأي العامة.

(١٨) صحيح مسلم ١٥٢/٥-١٥٦.

(١٩) صحيح البخاري ٤٢/٤-٤٤ وكتاب ٢١٠/٤ وكذا ٢٤/٥ وغيرها.

(٢٠) دلائل الصدق للمظفر ٤٠-٤٠، الشافي للسيد المرتضى ٤-٥٧/١٠٢.

(٢١) بحار الأنوار ٣٦٥/٢٩.

(٢٢) بحار الأنوار ٣٦٦/٢٩.

(٢٣) شرح ابن أبي الحميد ١٦/٣٦٣.

(٢٤) شرح ابن أبي الحميد ١٦/٣٩٥.

(٢٥) الحلّي ٩/٣١٣.

(٢٦) روضة الطالبين ٥/٣٩٦.

(٢٧) سورة النساء ٤/١١.

- (٢٨) حکاه السيد المرتضی فی الشافی ٤/٨٤، وابن أبي الحدید ١٦/٣٨٣.
- (٢٩) تفسیر الآلوسي ٣/١٥٥.
- (٣٠) تفسیر الآلوسي ٣/١٥٥.
- (٣١) کشف الخفاء للعجلوني ١/٣٧٥.
- (٣٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٣٩٦، بحار الأنوار ١٠/١٢٠.
- (٣٣) وهذا قد أشارت إلیه الزهراء علیها السلام في خطبتها المعروفة: «أم تقولون أهل ملتين! أولست أنا وأبی من ملة واحدة».
- (٣٤) بحار الأنوار ٢٩/٣٩٦.





فضائل فاطمة الزّهراء علیها السلام

اشیخ عظیل ابراسیم المحتوی

إنّ البشرية لم تشهد ولن تشهد إلى يوم القيمة امرأة ذات مقام رفيع عالٍ مثل فاطمة الزّهراء علیها السلام، على صغر سنّها، فإذا جئت إلّيها علیها السلام من جهة النّسب فأبوها سيد الأنبياء وحاتّهم محمد علیه السلام، وأمّها سيدة نساء زمانها خديجة سلام الله عليها، التي بذلت كلّ ما تملك من أجل الرّسالة الغراء التي جاء بها زوجها، ومنحته مكانتها الاجتماعية وأموالها في سبيل تحقيق هدفه وهو نشر الدين الإسلامي، وإذا جئنا إلى زوج السيدة الزّهراء علیها السلام فهو سيد الوصيّين أمير المؤمنين علیها السلام، وإذا جئنا إلى ابنيها فهما سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسن علیهم السلام، وإذا جئنا إلى

مقامها فإنّ أقلام الدنيا كلّها تجفّ إذا ما سعت إلى إحصاء فضائلها علیها، كيف لا! وقد قال فيها أبوها علیها: «فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني، يرضى الله لرعاها ويغضب لغضبها، وهي سيدة نساء العالمين»^(١).

من هي تلك المرأة التي لو أوذيت لتأذى لآذاها سيد المرسلين وأشرف النّبيّين، بل أعظم من ذلك هو أنّ الله يرضى لرعاها ويغضب لغضبها؟ يا الله! إنّها كلمات جداً عظيمة، فإذا أردت معرفة رضا الله من غضبه عمن كان في زمن فاطمة علیها فانظر إلى رعاها عنه أو غضبها عليه تعرفه أفي الجنة هو أو في النار. لقد أصبحت الصديقة علیها هي المعيار والميزان لرضا الله وغضبه وسخطه، وإذا تسألنا هل أنّ إعطاءها هذه المنزلة اعتباط أم ماذ؟ يأتيك الجواب: كلا، وألف كلا؛ لأنّ فاطمة الزهراء علیها لم تكن إنسانة عاديّة بل هي حوراء إنسية كانت نوراً قبل بعثة الرسول علیه السلام أودع الله ذلك التور في شجرة من أشجار الجنة، وحينما عرج بالرسول علیها إلى السماء أكل من تلك الشجرة فصارت النطفة في صلبه، وحينما أنزل إلى الأرض واقع خديجة علیها، ف تكونت فاطمة علیها من تلك النطفة التي أصلها من الجنة، ومن جانب آخر أنها علیها قمة في الإيمان والإخلاص والرضا والتسليم.

ومن الابتكارات الجميلة ما قدّمه مؤسسة جليل للتحقيقات الفكرية، ومؤسسة صائب للنشر الفكري، في الجمهورية الإسلامية، تحت عنوان: أربعون حديثاً في فضل فاطمة علیها على لسان عائشة، منها: عرض الإقرار ببعض فضائل سيدتنا فاطمة علیها على لسان مخالفتها، وفي أسانيدهم ومؤلفاتهم وصحابهم ومسلماتهم، نذكر بعض هذه الروايات مع توثيق مصادرها:

الرواية الأولى: قالت عائشة: كان النبي علیه السلام إذا قدم من سفر قبل نحر فاطمة وقال: «منها أشم رائحة الجنة»^(٢).

الروّاية الثانية: قالت عائشة: كان النبي ﷺ كثيراً ما يقبل عُرُف فاطمة عليها السلام^(٣).

الروّاية الثالثة: رُوي عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام من مجلسه، وقبل رأسها، وأجلسها مجلسه، وإذا جاء إليها لقيته وقبل كل الآخر، وجلسا معاً^(٤).

الروّاية الرابعة: وروت عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة، لأنّي لما أُسرى بي إلى السماء أدخلني جبريل الجنّة، فناولني منها تفاحة فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما نزلت وقعت خديجة، ففاطمة من تلك النطفة، وهي حوراء إنسية، كلّما اشتقت إلى الجنّة قبلتها»^(٥).

الروّاية الخامسة: كذلك روت أنّ النبي ﷺ أجاها على اعتراضها على تقبيله ابنته فاطمة عليها السلام، فكان من ذلك قوله: «فتاولت ثمرة من ثمارها -أي من ثمار الجنّة-، فأكلتها فصارت نطفة في صلبي فلما هبطت إلى الأرض وقعت خديجة فحملت بفاطمة، فإذا اشتقت إلى رائحة الجنّة شمت رائحة فاطمة. يا حمراء! إنّ فاطمة ليست ك النساء الآدميّين، ولا تعتل كما يتعلّن»^(٦).

الروّاية السادسة: عن عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله، وكانت إذا دخلت عليه رحّب بها وقام إليها فأخذ بيدها وقبلها، وأجلسها في مجلسه^(٧).

الروّاية السابعة: عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مروط^(٨) مرجل من شعر أسود، فجاءه الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا»^(٩).

الروّاية الثامنة: روت عائشة أنّ النبي ﷺ قال: «يا فاطمة أبشرى، فإنّ الله اصطفاك على نساء العالمين، وعلى نساء الإسلام وهو خير دين»^(١٠).

الروّاية التاسعة: وعنها كذلك أنّ رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابنته فسارة فبكّت، ثم سارّها فضحت.

قالت عائشة: فقلت لفاطمة: ما هذا الذي سارك به رسول الله فبكّيت، ثم سارك فضحت؟ قالت: «سارني فأخبرني بموته فبكّيت، ثم سارني فأخبرني أني أول من يتبعه من أهله فضحت»^(١١).

الروّاية العاشرة: عن عائشة أنّ النبي ﷺ قال لفاطمة: «إن جبريل أخبرني أنه ليس إمرأة من نساء العالمين أعظم رزية منك»^(١٢).

الروّاية الحادية عشرة: عنها قالت: «ما رأيت قط أحداً أفضل من فاطمة غير أبيها»^(١٣).

الروّاية الثانية عشرة: عن يحيى بن عبادة عن أبيه، عن عائشة: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة، إلا أن يكون الذي ولدها -أي أنجبها، وهو أبوها ﷺ-^(١٤).

الروّاية الثالثة عشرة: عن جمیع بن عمیر أنّ عائشة تضجرت من عمتھ لما سألتها: الله أنت، مسیرک إلى علي ما كان؟ (أي يوم الجمعة)، فأجابتھا: دعینا منك، إنه ما كان من الرجال أحب إلى رسول الله من علي، ولا من النساء أحب إليه من فاطمة^(١٥).

الروّاية الرابعة عشرة: قالت عائشة: كنت عند رسول الله فذكرت علياً، فقال: «يا عائشة، لم يكن قط في الدنيا أحب إلى الله منه ومن زوجته فاطمة ابنتي، ومن ولديه الحسن والحسين. تعلمين يا عائشة أي شيء رأيت لابنتي فاطمة ولبعلها؟ قالت: فأخربني يا رسول الله، قال: يا عائشة إن ابنتي سيدة نساء أهل الجنة، وإن بعلها لا يقاس بأحد من الناس، وإن ولديه الحسن والحسين هما ريحاناتي في الدنيا والآخرة، يا عائشة أنا وفاطمة والحسن والحسين، وأبن عمي علي، في غرفة يضاء أساسها رحمة الله تعالى، وأطرافها رضوان الله وهي تحت عرش الله»^(١٦).

الروأة الخامسة عشرة: قالت (يعني عائشة): إنّ رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، من آذها فقد آذاني»^(١٧).

الروأة السادسة عشرة: عن عائشة أنّ فاطمة بنت النبي أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله مما أفاء الله عليه بالمدينة وفده، وما بقي من خمس خيبر شيء، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت^(١٨) على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، فلما توفيت دفنتها زوجها عليّ ليلاً ولم يؤذن بها^(١٩) أبا بكر^(٢٠).

الروأة السابعة عشرة: عنها كذلك: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيمة نادى مناد: يا معشر الخالقين، طأطروا رؤوسكم حتى تجوز بنت محمد»^(٢١).

الروأة الثامنة عشرة: عن عثمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على رسول الله ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً وهي تقول: والله لقد عرفت أنّ علياً وفاطمة أحب إليك من أبي ومني! مرتين أو ثلاثة. فاستأذن أبو بكر -وكأنه أخرج من أخلاق ابنته مع رسول الله ﷺ- فأهوى إلى عائشة قائلاً: يا بنت فلانة! ألا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله^(٢٢).

وهذه الروايات -حسب ما ذكرت- معظمها، بل كلّها على لسان عائشة بنت أبي بكر، ومن مصادر العامة، وهي تبيّن مكانة فاطمة عليها وأنّها حوراء إنسية، فليس من السهل أن يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، إلا لأنّها جسدت كمال الخليفة في الأرض المجعلة من قبل الله -تبارك وتعالى- حيث قال: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»^(٢٣)، كيف لا وهي ابنة أشرف الخلق على وجه الأرض من الأولين والآخرين، وخريجة مدرسة الذي قال الله تعالى -في صفاته: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(٢٤)، وهذا الوصف صادر من الله الذي خلقه: «ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

خَلْقَهُ^(٢٥)، وعليه فهو قام الوصف، فالزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا نتاج تربيته ورعايته وتأديبه، وأبوها نتاج تأديب الله -جَلَّ وعزَّ-، حيث يقول الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَدْبَنِي رَبِّي، فَأَحْسَنْ تَأْدِيبِي»^(٢٦)، فنفهم من ذلك أنَّ أدب فاطمة الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا نتاج من أدب الله.

وإذا نظرنا في الروايات التي مررت عن عائشة -وبالأخص الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة- وحبُّ أبيها إليها، واحترامه إليها، ومبادلتها إياه الحب، نجد أنها تحترم أبيها وتحبه قام الإجلال، ولا تجد في خطابها مع أبيها إلا الأدب والاحترام والإجلال، وفي هذا المجال ننقل ما أفاده سماحة الشيخ محمد رضا النعماني، حيث يقول: «ومع ذلك بقيت محتفظة بقدسيَّة النبوة وأدابها، تنظر إلى أبيها كنبيٍّ قبل أن تنظر إليه كأب، فلم تقل له: يا أبا، وإنما: يا رسول الله، مما دعا رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يقول لها: «قولي: يا أبا؛ فإنَّها أحى للقلب»، فقد روى القاضي أبو محمد الكرخي في كتابه عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «قالت فاطمة: لما نزلت

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٢٧)، هبَتْ رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أقول له: يا أبا، فكنتُ أقول: يا رسول الله، فأعرض عنِّي مرةً أو اثنين أو ثلاثة، ثم أقبل علىَّ فقال: يا فاطمة إنَّها لم تنزل فيكِ، ولا في أهلكِ، ولا في نسلكِ، أنتِ مني وأنا منكِ، إنَّما نزلت في أهل الجفاء والغليظة من قريش من أصحاب البذخ والكبر، قولي: يا أبا؛ فإنَّها أحى للقلوب، وأرضى للرب»^(٢٨)، وبهذا تعطي الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا درساً بليغاً في مستوى وطبيعة العلاقة بين القائد وأبنائه، فهي كما شهدنا لم تغلب عاطفتها كبنت، على ما لقام النبوة من جلال واحترام، وقدّمت إيمانها بأبيها كرسول رب العالمين على كونها بنتاً له خوفاً من أن يكون نداوها له بيا أبيي مشمول بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، وجاء الرَّسُول ليؤكد حقيقةً تحمل الكثير من المعاني، وتدلل على ما للزَّهْرَاءِ من مكانة سامية عند الله ورسوله، فيقول لها: يا فاطمة إنَّها لم تنزل فيكِ، ولا في أهلكِ، ولا في نسلكِ؛ لأنَّكِ جزءٌ من الشخصية النبوية (أنتِ مني وأنا منكِ)، فلا يشملك الخطاب

(قولي: يا أبه؛ فإنها أحبي للقلب، وأرضى للرب)»^(٢٩).

أخلاقيها مع زوجها:

نراها علیها الصلی اللہ علیه وآله وسلم الزوجة المثالية، من احترامها لزوجها، وقيمها بواجباتها اتجاهه، فلو تبحث في سيرتها مع زوجها في كتب السير تجد أنها ضرب من الخيال لما تسمع أو تقرأ من علو تلك السمات الأخلاقية بين الزوجين، كيف لا وقد تربت في منبع الأخلاق، حيث قال أبوها علیه السلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣٠).

كانت علیها الصلی اللہ علیه وآله وسلم - وهي بنت النبوة الخاتمة - تقوم بكل شؤون بيته، حتى قال علي علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه لرجل من بنى سعد: «ألا أحدثك عنّي وعن فاطمة، إنّها كانت عندي وكانت من أحبّ أهله إليه - إلى النبي علیه السلام -، وأنّها استقرت بالقرية حتى أثر في صدرها، وطاحت بالرّحى حتى مجّلت يداها»^(٣١)، وكَسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأُوقدت النار تحت القدر حتى ذَكَرت ثيابها، فأصابها من ذلك ضرر شديد»^(٣٢).

واستمرّت وحيدة في إدارة شؤون بيتهما فترة طويلة من الزمن، يُرهقها الاستقاء بالقرية، والطّحن بالرّحى، وغير ذلك من شؤون البيت، وفي يوم من الأيام رأى النبي علیه السلام فاطمة علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه وعليها كساء من جلد الإبل وهي تطحن بيديها وتறّع ولدها، فدمعت عينا رسول الله علیه السلام، فقال: «يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلوها الآخرة، قالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعماته، والشكر على آياته، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وكان رسول الله علیه السلام قد علم علياً وفاطمة ما على كل واحد منهما من واجبات تجاه الآخر: فقضى على فاطمة بخدمة البيت ما دون الباب، وقضى على علي بما خلفه»^(٣٣).

وعن أبي جعفر علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه قال: «إن فاطمة علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه ضمنت لعلي علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه عمل البيت والعجين والخبز و قم البيت» وَضَمِنَ لَهَا علیها الصلی اللہ علیه وآله وسليمه مَا كَانَ خَلْفَ الْبَابِ نَقْلَ الْحَطَبِ وَأَنْ يَجِيءِ بِالطَّعَامِ، فَقَالَ لَهَا يَوْمًا يَا فَاطِمَةَ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: وَالَّذِي عَظَمَ حَقَّكَ

مَا كَانَ عِنْدَنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ إِلَّا شَيْءٌ أَثْرَتْكَ بِهِ، قَالَ أَفَلَا أَخْبَرْتَنِي؟ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَايِي أَنْ أَسْأَلَكَ شَيْئًا، فَقَالَ: لَا تَسْأَلِي أَبْنَى عَمْكِ شَيْئًا إِنْ جَاءَكَ بِشَيْءٍ عَفْوًا وَلَا فَلَا تَسْأَلِيهِ»^(٣٤).

وعاشت مع علي عليهما السلام الذي عاش معها روحه وعاش معها جهاده، ولم يكن البيت تقليدياً في روحه وحياته، وإن كان تقليدياً في أقل مراتب التقليد في أثاثه ومساحته، لقد جعلت من بيتها حضناً ومهداً للرسالة، ومنزلة إسلاميةً يفيض بالخشوع والرحمة، وتألق فيه القيم الإسلامية، جعلته بيتاً للله وللطهارة، وللحق، وللعدل، والرحمة، والمحبة، من خلال: روحانيتها، وعبادتها، وزهدها، وفكراها، وعقلها، واستقامتها التي منحتها لهذا البيت، فصار جوهراً جواً إسلامياً متاماً، بحيث استطاع علي عليهما السلام أن يجد فيه الراحة والسعادة والانطلاق والانفتاح^(٣٥).

تربية أولادها:

لقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام الأم المثالية لأبنائها فقد ربّتهم أحسن تربية على الأخلاق الإسلامية السمحاء من العطاء والتضحية والكرم والتسامح والإيثار، فكانت تؤثر على نفسها حتى في الدعاء، فقد نقل الشيخ جعفر كاشف الغطاء في كتابه: "وكانت الزهراء عليهما السلام لا تدع لنفسها، فقال لها الحسن عليهما السلام: «يا أماه! لم لا تدعين لنفسك؟ فقالت: الجار ثم الدار»"^(٣٦)، فكانت لا تنسى حتى جيرانها، إذ كانت تؤثرهم على نفسها، وهناك رواية عظيمة الفائدة نقلها الشيخ أيضاً في نفس الكتاب، قال: "وفي رواية من دعى لأخيه بظاهر الغيب نودي من العرش ولك مائة ألف ضعف، وإن من دعى لأخيه المؤمن بظاهر الغيب نودي من عنان السماء، ولك بكل واحد مائة ألف، وفي رواية أنه ينادي في السماء الأولى بمائة ألف، وفي الثانية بمائة ألف، وفي الثالثة بثلاثمائة ألف، وفي الرابعة بأربعين ألف، وفي الخامسة بخمسين ألف، وفي

السادسة بستمائة ألف، وفي السابعة بسبعمائة ألف ضعف»^(٣٧).

فالزّهراء عَلَيْهِ الْكَلَام تعلّمهم الأخلاق الفاضلة كما تعلّمهم الصبر والإيثار، وقد نزلت فيهم الآيات الكريمة من سورة الإنسان: ﴿وَيَطْعُمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُنَا مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، بسبب إيهارهم بإفطارهم ثلاثة أيام مسكون ليلة، ولبيتهم أخرى، ولأمير ثلاثة، فافتتحت فاطمة الزّهراء وأبناؤها وبعلها كلّ بقرصه على من جاءهم، وأفطروا على شربة ماء، والآية تصف إيهارهم بأنه لوجه الله، وأنّ خوفهم كان من الله من يوم كان على الكافرين عبوساً قمطريراً، فهم عَلَيْهِ يطيرون بأرواحهم إلى ملكوت السماء والقرب إلى الله بجناح الرّجاء ﴿نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، وجناح الخوف ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾؛ فجاء منها الحسن عَلَيْهِ وهو كريم أهل البيت عَلَيْهِ، وهو يكظم غيظه عن ذلك المسافر الذي أتى من الشام، فقال الشامي: أنت ابن عليّ بن أبي طالب؟، فقال الإمام عَلَيْهِ: «نعم، وكان جالساً بين أصحابه والشامي فوق دابته فشتم الإمام عليّ عَلَيْهِ، فقال الإمام عَلَيْهِ بما معناه: «يا هذا، أظنك قد جئت من سفر متعب فاتزل عندنا، فإن كنت جائعاً أطعمتك، وإن كنت تحتاج إلى مأوى آويتك»، فهذا ابنها الحسن عَلَيْهِ، ولا أنسى ابنها الحسين عَلَيْهِ الذي يبكي من أجل أعدائه؛ لأنّهم سيدخلون النار بسببه، انظر إلى الرحمة والعطف إلى أيّ درجة قد وصل، وأختهم عَلَيْهِ حينما تسلّم قاتم التسليم لربّها راضية بقضاء الله وقدره باشتشهاد أخوتها وأبنائها وأهلهما، فتأتي إلى أخيها مضرجاً بدمائه فترفع جثمانه قليلاً متوجهاً به إلى السماء قائلة: «اللهم تقبل منا هذا القرابان»، وأيّ قربان هذا؟!، إنّه الإمام، حجّة الله على الأرض، ناهيك عن موافقها عَلَيْهِ في مجلس ابن زياد ويزيد بن معاوية -لعنة الله عليهم أجمعين- من شجاعتها وصلابتها أمام أعنى طاغية في زمانها واقفة شامخة صلبة لا

تهزّها العواصف رضاً بقضاء الله، بل تقول حينما سأها يزيد قائلاً: أرأيت صُنْعَ الله
بأخيك، قالت: لم أرَ إِلَّا جيلاً، فانظر إلى ذلك الإيمان وتلك الصّلابة! نعم إنّها تلك
الشبلة من تلك اللبوة أمّها فاطمة الزّهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ حينما وقفت أمام من ادعى كونه
خليفة لأبيها الأعظم عَلَيْهِ السَّلَامُ سالباً إِرثَهَا مغتصباً حقّها، فوقفت له أمام النّاس تتكلّم
بلسان أبيها يتفجر العلم من جوانبها، ولكلّهم ﴿وَجَهَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتُهَا
أَنفُسُهُم﴾^(٣٨)، فهذا ما ربت وعلّمت الزّهراء عَلَيْهَا أَبْنَاءَهَا؛ إنّها مدرسة الإيمان،
والصبر، وكظم الغيظ، والشجاعة، والإيثار، والفضاحة، ونعمّا هي من مدرسة.

الصّابرة الرّاضية:

من الأمور المهمة والتي تكون ذات أهمية كبيرة في معرفة درجة إيمان الفرد
المسلم مسألة الرضا، فمقام الرّضا يحتاج إلى معرفة ويقين حتّى يصل إليه الإنسان
ويكون من الرّاضين بما قسم الله تعالى، حتّى يصل في النهاية إلى مرحلة إيمانية
عالية جداً، وكما ورد في دعاء كميل: «وَتَعْلَمُنِي بِقِسْمِكَ راضِيًّا قانِعاً»، أي أنّ
الإنسان المؤمن يطلب من الله تعالى أن يوصله إلى مقام الرّضا منه -جلّ وعلا-
في كلّ ما يقسمه له سواء من خير أم بلاء أم غير ذلك، ومع هذا كله فلقد ورد في
عدد من الأحاديث المرويّة عن أهل بيته العصمة عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ رأس طاعة الله الصبر
والرضا عن الله -تبارك وتعالى -.

فلقد جاء في الحديث الشريف عن عليّ بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «الصّبر
والرّضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحبّ أو
كره، لم يقضِ الله هُوَ لَهُ لِمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِه إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ»^(٣٩)، كما ورد في بعض
الأخبار أنّ الله عند حسن ظنّ عبده المؤمن به، إضافة إلى أنّ الله -سبحانه- لا
يختار لعبده إِلَّا مَا فيه خيره ومصلحته، وإن خفيت تلك المصلحة على العبد
لمحدوديّته وقصوره عن الإحاطة بصالحه ومفاسده، وجاء في حديث آخر عن أبي

عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ أَعْلَمَ النَّاسَ بِاللهِ أَرْضَاهُمْ بِقَضَاءِ اللهِ»^(٤٠).

ولقد عاشت الزهراء عليها الحقبة الزمنية القاسية من تاريخ الإسلام، حقبة الفقر والعسر والمعاناة الشديدة، ولم تكن هذه الحالة خاصة بأحد، بل عمت جميع المسلمين، فلم يكن من اليسير أن يتوفّر لكل بيت أو فرد طعام يوم من زاد بسيط يسد رمقهم، وسجّل التاريخ صوراً لا تكاد توصف لما كان يعانيه المسلمين من ضنك العيش وقلة ما في اليد، والذي يظهر من النصوص المختلفة أن معاناة البيت النبوي كانت مضاعفة؛ بسبب الوضع الاقتصادي العام الذي كان يعيشه المسلمون وهم جزء منه، والموقع القيادي الذي كان يعتليه، فالنبي القدوة عليه وآله كان يؤثر غيره حتى بلقمة العيش البسيطة «وَيَؤثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاَةً»^(٤١)، ويشهد إلى ذلك أيضاً ما روي عن سبب نزول سورة الدّهر، والتي عكست صورة عن الوضع الاقتصادي الصعب، والمعاناة الشديدة لأهل بيته النبوة الظاهر، وقد نالت الزهراء عليها قسطاً وافراً من تلك المعاناة. يروي جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرج رسول الله عليه وآله يريده فاطمة عليها وأنا معه، فلما انتهينا إلى الباب وضع يده فدفعه، ثم قال: «السلام عليكم، فقالت فاطمة: عليك السلام يا رسول الله، قال: أدخل؟، قالت: ادخل يا رسول، قال: أدخل أنا ومن معي؟، قالت: يا رسول الله ليس على قناع، فقال: يا فاطمة خذني فضل ملحتك فقنعني به رأسك، فعلت، ثم قال: السلام عليكم، فقالت: وعليك السلام يا رسول الله، قال: أدخل؟ قالت: نعم ادخل يا رسول الله، قال: أنا ومن معي؟ قالت: أنت ومن معك. قال جابر: فدخل رسول الله عليه وآله ودخلت أنا وإذا وجه فاطمة أصفر كأنه بطن جرادة، فقال رسول الله عليه وآله: ما لي أرى وجهك أصفر؟، قالت: يا رسول الله الجوع»^(٤٢).

لقد روى رسول الله عليه وآله ابنته الظاهرة على أبسط ألوان العيش، والاقتصر على الحد الأدنى من ضروريّات الحياة، والابتعاد عن كل ألوان الترف، ومواساة

الطبقة الفقيرة من المسلمين، يروي ابن شاهين في مناقب فاطمة، وأحمد في مسندي الأنصار بإسنادهما عن أبي هريرة وثوبان أنّهما قالا: كان النبي ﷺ يبدأ في سفره بفاطمة ويختتم بها، فجعلت وقتاً سترة من كساء خيرية لقدمه أبيها وزوجها، فلما رأه النبي ﷺ تجاوز عنها وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر، فنزع عن قلادتها وقرطيها ومسكنيها ونزع عن السترة فبعثت به إلى أبيها وقالت: «أجعل هذا في سبيل الله، فلما أتاه، قال ﷺ: قد فعلت، فدأها أبوها -ثلاث مرات- ما لآل محمد وللدّنيا فإنّهم خلقوا للأخرة وخلقت الدنيا لهم».^(٤٣)

وإذا جئنا إليها ﷺ وما لاقت من أذى في عهد أبي بكر وما كان من هجومهم عليها في دارها، وتسقيط جنينها، وسلب ميراثها -فدرك من أبيها، وسحب زوجها الإمام علي عليه السلام، فصبرت على ذلك بعد أن واجهتهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، فرأى أن كل كلامها لا يُسمع، وحججها وبراهينها لا تقبل رجعت إلى بيتها كامدة واجدة في نفسها عليهم، بسبب ما لاقت من أذى وسلب حق مفوضة إلى الله تعالى - أمرها، راجعة إليه في حكمه، راضية بما قدر عليها، حتى فارقت روحها الحياة ساخطة على من ظلمها.

نعم، إنّها الزهراء ﷺ تعطينا أكبر وأفضل الدروس في الأخلاق والإيمان، تعطينا أن كل المشاكل التي تطرأ على الإنسان يجب عليه مواجهتها ومقاومتها، ومحاولة إزالتها وحلّها بما يرضي الله عزّوجلّ ويتوافق مع حكمه وتشريعه، لا ييأس من حلّها إذا رأها كبيرة وعظيمة، وإنّما يسجل موقفاً إيجابياً نحوها، هذا أولاً، وثانياً: إن مواجهة المشاكل والمصائب بما يرضي الله لا يُشكّل خروجاً عن التسلّيم والرضّا بقضاء الله، فلنكن قد أخذنا هذا الدرس من الزهراء ﷺ.

علمها ﷺ:

الزهراء ﷺ عالمة، ومصدر علمها هو منبع الرسالة أبوها ﷺ، وإن علم

أبيها هو من ذات العلم والمعرفة الذي لا ينفذ علمه ﴿وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(٤٤)، وقال تعالى في
سورة التجمّع ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَيِّ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَمَهُ شَدِيدُ
الْقُوَى﴾^(٤٥)، فإذا كان علم أبيها من علم الله الذي لا ينفذ، وهي ابنته التي قال
فيها: فداها أبوها -كما مرّ سابقاً- فهل يدخل عليها بعلمه؟، وهي التي قال فيها:
«يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها»، ولا يبلغ إنسان هذه المرتبة الرفيعة بأن
يرضى الله لرضاه ويغضب لغضبه وهو جاهل، بل حتّى لو حمل شيئاً بسيطاً من
العلم، وإلا فإنَّ سائر الناس غير فاطمة علیها السلام عندهم علم، فما الفرق بينها وبينهم
لكي تُفضل بهذه المرتبة؟، هذا ليس إلا لأنَّها علیها السلام حازت مرتبة من العلم لا
يعلمها إلا الله ورسوله وبعلها علیها السلام، ناهيك أنها تفوق الناس من جوانب أخرى من
القرب الإلهي، ويدرك لنا الشيخ محمد رضا النعماني في كتابه (فاطمة والخلافة)،
فيقول: «ويبدو أنَّها تلقت المعرفة عن أكثر من طريق، نذكر منها: الطريق الأول:
عرفت الزهراء علیها السلام بأنَّها (المحدثة)، إذ كانت الملائكة تحدثها، ولم تذكر النصوص
حدود ذلك، وأنواع العلوم التي تصلها عن هذا الطريق، ولعل السبب هو عدم قدرة
الناس على استيعاب وفهم هذا الأسلوب من التلقّي المعرفي المستند إلى الغيب. الطريق
الثاني: التلقّي العام فيما تسمعه من أبيها علیها السلام أو بعلها علیها السلام، وهي تشارك في ذلك
مع بقية المسلمين، وتحتختلف عنهم في قدرتها على الاستيعاب الشامل الدقيق لما يقولون
ويقصدون. الطريق الثالث: وهو التلقّي الخاص المروي عن أئمَّة أهل البيت علیها السلام، فمن
الإمام الصادق علیها السلام كما في كتاب بصائر الدرجات، قال علیها السلام: «وخلفت فاطمة مصحفاً،
ما هو من القرآن، ولكنه من كلام الله أنزله عليها، إملاء رسول الله علیها السلام وخط
علی علیها السلام». وعن أبي بصير قال: «دخلت على أبي عبد الله علیها السلام، فقلت له: إني
أسألك -جعلت فداك- عن مسألة ليس لها أحد يسمع كلامي، فرفع أبو عبد

(٤٦) «الْيَوْمَ الْقِيَامَةُ»

الله عليه السلام سترًا بياني وبيان يبيت آخر فاطلע فيه ثم قال: يا أبا محمد سل عما بدأ لك قال: قلت: جعلت فداك إن الشيعة يتحدون أن رسول الله عليه السلام علم عليا عليه السلام ببابا يفتح منه ألف باب، قال، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد علم والله رسول الله عليه ألف باب يفتح له من كل باب ألف باب، قال، قلت له: والله هذا لعلم! فكانت ساعة في الأرض، ثم قال: إنه لعلم وما هو بذلك، ثم قال: يا أبا محمد وإن عندنا الجامعه، وما يدرىهم ما الجامعه، قال، قلت: جعلت فداك! وما الجامعه؟، قال: صحيفه طولها سبعون ذراعاً بنراع رسول الله عليه السلام وإملاء من فلق فيه وخط على يمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه، حتى الأرش في الخدش، وضرب بيده إلى، فقال: تاذن لي يا أبا محمد، قال، قلت: جعلت فداك إنما أنا لك اصنع ما شئت، قال، فغمزني بيده، فقال، حتى أرشن هذا - كانه مغضب -، قال، قلت: جعلت فداك! هذا والله العلم، قال: إنه لعلم وليس بذلك، ثم سكت ساعة، ثم قال: إن عندنا الجفر، وما يدرىهم ما الجفر، مسنك شاة أو جلد بغير، قال، قلت: جعلت فداك! ما الجفر؟، قال: وعاء أحمر أو أدم - أديم - أحمر فيه علم النبئين والوصيin، قلت: هذا والله هو العلم، قال: إنه لعلم وما هو بذلك، ثم سكت ساعة ثم قال: وإن عندنا لمصحف فاطمة عليه السلام، وما يدرىهم ما مصحف فاطمة، قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاثة مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرفة واحد إنما هو شيء أملاما الله وأوحى إليها، قال، قلت: هذا والله هو العلم، قال: إنه لعلم وليس بذلك، قال، ثم سكت ساعة ثم، قال: إن عندنا لعلم ما كان وما هو كائن، إلى أن تقوم الساعة، قال، قلت: جعلت فداك! هذا والله هو العلم، قال: إنه لعلم وما هو بذلك، قال، قلت: جعلت فداك! فاي شيء هو العلم؟، قال: ما يحدث بالليل والنهر الأمر بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيمة».

فإذا كان عند أهل البيت عليهما السلام الجامعه، والجفر، والمصحف، ونعلم أن فاطمة

أرقى درجة من أبنائهما، فإذا ما مقدار علمها عليهما السلام!

عبادتها عليهما:

إذا عرفنا مكانة الزّهراء علیها العلميّة وما لها من مقام رفيع من العلم -كما سلف ومرّ-، فعلى قدر علمها تكون عبادتها وإخلاصها وتفانيها في جنب الله - تعالى-، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٤٧)، فنجد في عبادتها علیها (القوّة والجهد والافتتاح على الله تعالى)، فقد كانت تعني معنى القرب من الله وقيمة التضرّع بين يديه، والبكاء من خشيته، وهذا ما جعلها تعيش الروحانية كأصفى ما تكون؛ لأنّ العبادة عند الزّهراء علیها لم تكن مجرد حالة تقليدية وطقوس باردة يمارس من خلالها الإنسان حركات جوفاء فارغة، وإنّما هي حالة يعيش فيها الإنسان عمق الإخلاص والمحبة لله -سبحانه-، وهذا يعني أنّه كلّما عبد الإنسان ربّه أكثر كلّما اقترب منه أكثر، وكلّما أحسنَ بعظمة الله أكثر استحضر نعمته أكثر وعاش معه وانفتح على الحياة وعلى عباده أكثر فأكثر. وإنّ مشكلة النّاس أئمّهم بين من لا يعبد الله لأنّه لا يعيش الله في قلبه وعقله إشراقةً تمكنه من الانفتاح عليه بالعبادة وعلى المجتمع بالمسؤوليّة، وبين من يعبد الله عبادة مغلقة لاوعي فيها ولا روح لها، وإنّما هي عادة اعتادها لا يشعر بها بالروحانية ولا الحبّ لله، وبالتالي فإنّه لن يتعلم أن يحبّ النّاس جيداً؛ لأنّ من لا يحبّ الله لن يفلح في حبّ النّاس، وأماماً من أحبّ الله فلا يمكن أن يبغض عيال الله، والخلق كلّهم عيال الله.

عبادتها كمّا وكيفاً:

- ١- يروى عن الحسن البصري أنّه قال: ما كان في هذه الأّمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتى تتورّم قدماها^(٤٨).
- ٢- وتنذر القضية إلى ما هو أبعد من ذلك، فهذا ابنها الإمام الحسن علیه السلام يحدّثنا قائلاً: «رأيت أمي فاطمة علیها قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة

ساجدة حتى أتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين وتسمّيهم وتكرر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني الجار ثم الدار^(٤٩).

فاطمة مثقلة بهموم البيت والحمل والأولاد، ومتقلة بمسؤولياتها الإسلامية في الواقع الاجتماعي، وهي مع ذلك كله ومع ضعف جسدها نراها تعبد الله حتى تتورّم قدماتها وتتجدد لنفسها الوقت لتقوم الليل وتحبّيه بذكر الله وعبادته، وهي تختر الليل لمناجاتها؛ لأنّه من أعظم الأوقات التي تنطلق فيها روح الإنسان من ذاته، وتحلّق في أجواء العبود المعشوق، وهل كانت تدعو لنفسها وتطلب لذاتها شيئاً كما يفعل الكثيرون متّا عندما يقومون بالليل أو النّهار ليعبدوا الله؟ كلام فالمسألة كانت عندها تسير في اتجاه آخر، فهي تستغلّ أجواء الليل وهدوءه وروحه من خلال ما يفتحه أمام العبد من آفاق تسمو بروحه، تستغلّ ذلك لتدعوا للمؤمنين والمؤمنات، ولا تدعو لنفسها بشيء. تفكّر بالمؤمنين والمؤمنات، هذا إنسان مريض وتلك إنسانة مريضة، وهذا إنسان ابتلاه الله بالفقر، وذلك ابتلاه ببعض المصائب أو المعاصي... تستحضر كل ذلك وتدعوا الله هؤلاء ليقضي حوائجهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ويشفي مرضاتهم، ويفكّ أسرارهم، ويسدّ جوعتهم... وكان ذلك يشغلها عن الدّعاء لنفسها، ولذلك يقول ابنها الحسن علّيّه السلام يتحسّس آلامها: «يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك؟، ويكون الجواب الرّائع: يا بني الجار ثم الدار^(٥٠).

الخاتمة:

إنّ العقول الجبارة وأصحاب الأفكار الواسعة والعلوم الجمة، والعلماء الربانيون والأولياء المكرّمون ليقفون إجلالاً وتعظيمًا أمام شخصيّة سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء علّيّها السلام، لما لها من المقام العالي والمنزلة الرّفيعة، ويعجزون عن

إدراك حقيقة مقامها عليهما السلام، وإن كان مقامها -من جهة أخرى- أوضح وأجل وأسطع من شعاع الشمس، وطبيعة الحال فقلد أبهري وأعشت عيني هذا النور؛ فذكرت بعض ما وصلني، ولعلّي لم أصف ذلك البعض بوضوح لما له من إحاطة بي، فكيف يصف المحاط ما هو أوسع منه ويحيط به.

الهوامش:

- (١) إرشاد القلوب -الحسن بن محمد الديلمي، ج ٢، ص ٢٣١.
- (٢) ينابيع المودة لنذوي القربي، للشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ج ٢، ص ٦٠، وص ٣٢٢ ح ٩٣٤.
- (٣) الجامع الصغير للحافظ السيوطي الشافعي، ج ٢، ص ٢٩٤ -الفتح الكبير للنبهاني، ج ٢، ص ٣٦٨، والعرف: أعلى الرأس.
- (٤) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١١٣.
- (٥) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج ٥، ص ٨٧.
- (٦) مقتل الحسين عليهما السلام، للخوارزمي الحنفي، ج ١، ص ٦٣-٦٤.
- (٧) المستدرك على الصحيحين، للحاكم التيسابوري الشافعي، ج ٣، ص ١٥٤.
- (٨) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزّر به، وتتلفع به المرأة.«المعجم الوسيط، مادة: مرط».
- (٩) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة. ورواه الحاكم في المستدرك، ج ٣، ص ١٤٧.
- (١٠) مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٠٤-١٠٥، وعنه بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٦، ح ٣٩.
- (١١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩٠٤، ح ٩٧.
- (١٢) فتح الباري للعسقلاني، ج ٨، ص ١١١.
- (١٣) الإصابة، ج ٤، ص ٣٧٨-مجمع الروايد ومنبع القوائد للهيثمي الشافعي، ج ٩، ص ٢٠١ - السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ١٠٧.
- (١٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ليوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر، ج ٤، ص ٣٧٧، من حاشية الإصابة.

- (١٥) أمالى الطوسي، ص ٣٨٣، ح ٣١، الباب التاسع.
- (١٦) الفضائل، لابن شاذان، ص ٩٦٩-الكافى للكلبى، ج ٨، ص ١٥٦.
- (١٧) مودة القرى للهمداني، ص ١٠٣.
- (١٨) أي: غضبت.
- (١٩) أي: لم يخبر.
- (٢٠) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٧٧-وذكره الطبرى، ج ٣، ص ٢٠٨-والبيهقي في السنن الكبرى، ج ٦، ص ٣٠٠-والسيد المرتضى في الشافى، ج ١٣١، جميعهم باختلاف يسير عن صحيح البخاري.
- (٢١) مودة القرى للهمداني، ص ١٠٣.
- (٢٢) مسند فاطمة عليه السلام للحافظ السيوطي الشافعى، ص ٥١، ح ١٠٩.
- (٢٣) سورة البقرة: ٣٠.
- (٢٤) سورة القلم: ٤.
- (٢٥) سورة السجدة: ٦-٧.
- (٢٦) سنن النبي، للسيد الطباطبائى، ص ١١، نقلًا عن البحار، ج ١٦، ص ٢١٠.
- (٢٧) سورة التور: ٦٣.
- (٢٨) فاطمة والخلافة، ص ٢٠.
- (٢٩) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٠.
- (٣٠) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٢.
- (٣١) أي: ثخن جلدتها في العمل بالأشياء الصلبة.
- (٣٢) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٢-صحيح أبي داود، ج ٣٣، في باب التسبيح عند النوم، طبع المطبعة الكسلية.
- (٣٣) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٦-كنز العمال، ج ٦، ص ٢٩٥.
- (٣٤) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٣٤. فاطمة والخلافة، للشيخ محمد رضا العماني، ص ٢٧-٢٦.
- (٣٥) الزهراء القدوة، للسيد محمد حسين فضل الله، إعداد أحمد الخشن، دار الملاك، ص ٨٨.
- (٣٦) كشف الغطاء عن مهمات الشريعة الغراء، ص ٣٠٩.
- (٣٧) كشف الغطاء، ص ٣٠٩.

- (٣٨) نفس المصدر.
- (٣٩) أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦.
- (٤٠) أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦.
- (٤١) سورة الحشر: ٩
- (٤٢) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٦٢- و قريب منه في حلية الأولياء، ج ٢، ص ٤٢
- (٤٣) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٦
- (٤٤) سورة الأنعام: ٥٩.
- (٤٥) سورة التّاجم: ٣-٥
- (٤٦) بيت الأحزان للقمي، ص ١٧. «فاطمة والخلافة»، للشيخ محمد رضا التعماني، ص ٤٠-٤٢
- (٤٧) سورة فاطر ٢٨
- (٤٨) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٤- و عوالم الزهراء علیها السلام، ص ٢٢٤ ..
- (٤٩) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٥٣- و عوالم الزهراء، ص ٢٢٥ نقلًا عن علل الشرائع.
- (٥٠) كتاب الزهراء القدوة، للسيد محمد حسين فضل الله، إعداد أحمد المخشن، ص ١٧٥-١٧٧.



الصَّدِيقَةُ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

الشِّيخُ حَسَنُ مُحَمَّدُ الْزَّاكِيُّ

إضاءة

عندما يكتب أحد عن سيرة العظماء أو عن شذرات من عظمتهم، يبقى أسير ضعفه ومحدوديته، إلا أنه لا سبيل لنيل شيء من معرفتهم إلا أن نطرق أبوابهم وننتظر شيئاً من زادهم وبصيصاً من أشعة أنوارهم الزاهية.

نعم، أحببت أن أطرق عن العلاقة الوثيقة بين ثقلين جمعاً كل العظمة والعزة والحكمة؛ بين سيدة نساء العالمين

وكتاب الله المجيد. «إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيهِمُ الثَّقَلَيْنِ كَاتِبَ اللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ» والزهراء البتوط عليها السلام في الحقيقة تشكل النّواة المباركة لثقل أهل البيت الأعظم عليه السلام، حيث

ورد عن مولانا الإمام العسكري عليه السلام: «نَحْنُ حَجَّجْنَا اللَّهَ عَلَى الْخَلْقِ وَجَدْنَا فَاطِمَةَ حَجَّةَ اللَّهِ عَلَيْنَا»^(١)، وفهم التّقلّل الأكبير لا يتسنى لنا إلا بالرجوع إلى المخاطب به «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مِنْ خُوْطِبَتِهِ»^(٢). فقول الرّسول عليهما السلام الذي اشتهر بين العامة والخاصة أنه قال: «إِنَّمَا يَأْفَاتِهِنَّا لِغَضَبِ فَاطِمَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَازَمَتِ الرِّوَايَةُ الشَّرِيفَةُ بَيْنَ رِضاِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضاِ فَاطِمَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِ فَاطِمَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَهَذَا فِي نَفْسِهِ لِأَمْرِ عَظِيمٍ خَطِيرٍ الْمَزْلَمَةِ»^(٣). وغير خاف على المؤمنين مكانة الكتاب العزيز وعلو منزلته، وهو كلام الله بين أيدينا «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»^(٤).

وكذلك ليس بخاف ما للشقين من مشتركات عدّة يشتراك فيها القرآن والصدّيقه الزهراء عليهما السلام من الهدایة والإندار والعالمية والرحمة الطهارة والتذکير «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»^(٥) «وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْبَشَرِ»^(٦) والكلام على هذا المنوال سيكون في ثلاثة مقامات بإذن الله:

١- القرآن الكريم والصدّيقه الزهراء عليهما السلام.

٢- الصّديقة الزهراء عليهما السلام والقرآن الكريم.

٣- القرآن والصدّيقه عليهما السلام مظهر الشفاعة والمظلومية.

المقام الأول: القرآن الكريم والصدّيقه الزهراء عليهما السلام

القرآن كلام الله المنزل على نبيه المرسل كثيراً ما نزل في عظمة هذه السيدة الجليلة عليهما السلام فلا عجب ولا عجب ما ورد عن رسول الله عليهما السلام حيث يقول: «أَنْعَجَبُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَرْبَاعَهُ رِبْعٌ فِيهَا أَهْلُ الْبَيْتِ، وَرِبْعٌ قَصْصَ أُمَّالِ، وَرِبْعٌ فَرَائِضٌ، وَرِبْعٌ أَحْكَامٌ، وَاللَّهُ أَنْزَلَ فِي عَلِيٍّ كَرَامَ الْقُرْآنِ» أخرجه البحرياني في تفسيره البرهان^(٧).

ومن الواضح أنّ هذه الشّذرات السّريعة آتية الذكر لن تشمل جميع الآيات

التي تعرّضت مشيرةً إلى الصّدّيقه الطّاهرة علیها السلام، لكنّها ترکز على أمّهاتها وأشهرها حيث لا يمكن للكثير من المفسرين أن يتعدّى هذه الآيات وال سور التي تعرّضت إلى مقام سيدة نساء العالمين دون الإشارة إلى مصادقها الأوّل أو سبب التّزول في سيدتنا الصّدّيقه فاطمة الزّهراء علیها السلام.

١- آية التّطهير:

وهي الآية التي حملت الشّهرة الواسعة في اختصاص نزولها في حق بيت الطّاهرة علیها السلام، وقد نالت ما نالت من أرجحات العلماء وتركيزهم على مضامينها الرّفيعة وسبب نزولها وما شابه ذلك.

حيث قال الله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُظْهِرَكُمْ تَطْهِيرًا» فقد ورد عن الرّسول الأكّرم صلوات الله عليه وآله وسلامه في هذه الآية: «إنما نزلت فيّ، وفي أخي، وفي ابني، وفي ابنة، وفي تسعه من ولد ابني الحسين خاصّة، ليس معنا أحد غيرنا»^(٨) عن أمير المؤمنين علیها السلام عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه.

فكانت هذه الآية الدليل الّلامع في بيان عصمة السيدة الزّهراء علیها السلام وأهل بيته الرّسالة علیها السلام.

وقد أوجز سماحة السيد علي الميلاني دام ظله حاصل معنى آية التطهير وفق الأحاديث، وبينها كالتالي:

”الأول: إنّ المراد من (أهل البيت) في آية التطهير هم النّبى علیه السلام وعليه السلام وفاطمة والحسن والحسين علیهم السلام، لا يشركم أحد، أمّا الأزواج فالأحاديث نصّت على أنّ النّبى علیه السلام لم يأذن بدخول واحدة منهنّ تحت الكساء، أمّا غيرهنّ فلم يأمر الرّسول علیه السلام فاطمة علیها السلام بأن تجيء بأحد غير زوجها وولديها علیهم السلام.

الثّاني: إنّ الآية نزلت في واقعة معينة، ولاعلاقة لها بما قبلها وما بعدها، ويشهد إلى ذلك مجيء الضمير مذكراً في (عنكم) و(يظهركم) دون عنكنّ ويطهرنّ!! أضف

إلى هذا وجود الاتصال بين ما قبل آية التطهير وما بعدها، فلو رفينا الآية لايختل الكلام أصلًا.

وأنطف ما جاء في الحديث لأم سلمة (أنت من أزواج رسول الله)، فإنّه يعطي التّفصيل -مفهوماً ومصداقاً- بين العنوانين (أهل البيت) و(الأزواج)^(٩).

٢- آية المباهلة:

آية المباهلة من الآيات الدالة والبراهين الواضحة على أحقيّة هذه الرسالة الحمدية، كما أنه لا مجال للمشككين والمدلّسين أن يعبثوا في بيان مصاديقها الواضحة والتي في صدارتها فاطمة الزهراء علیها السلام ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وقد تضمّنت معانٍ سامية لحلّ الزهراء علیها السلام في قلب رسول الله علیه السلام ومدى أهميّتها في سبيل الدفاع عن بيعة الدين القويم، فما معنى خروجها مع أبيها وبعلها وابنيها؟!

قال في الكشاف: "إإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضمّ الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حين استجرأ على تعریض أعزّته وأفلاذ كبده وأحبّ الناس إليه ذلك، ولم يقتصر على تعریض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى هلك خصمه . . .".

ثم إنّ كلمة (نساءنا) وما تحمل من دلالات واضحة على مكانة الزهراء الإلهية، فخرّوجها مع أهل بيتها مع الاطمئنان والسكينة إلى مواجهة نصارى نجران في تلك المباهلة يجلّي تلك القلوب الطاهرة التي تجلّيهازيارة الجامعة «السلام على محالّ معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله، وحفظة سر الله». وما ورد عن عائشة أنّها قالت: "أسر النبي علیه السلام إليها شيئاً ففضحكت، فسألتها

فقالت عليه السلام: قال عليهما السلام: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين، فضحكـتـ لـلـذـلـكـ» يـؤـكـدـ أـنـ تـلـكـ السـيـادـةـ الإـلهـيـةـ الرـاقـيـةـ لـلـسـيـدـةـ الجـلـيلـةـ عـلـيـهـاـ قدـ قـتـلـتـ فـيـ يـوـمـ المـبـاهـلـةـ بـأـجـلـىـ صـورـهـاـ».

فيـؤـكـدـ ذـلـكـ مـوـقـعـيـةـ الزـهـرـاءـ عـلـيـهـاـ فـيـ قـيـامـ هـذـاـ الدـيـنـ،ـ وـبـذـلـ كـلـ غالـ وـنـفـيـسـ لـنـصـرـةـ الرـسـالـةـ الـحـمـدـيـةـ،ـ وـبـذـلـكـ نـالـتـ هـذـهـ السـيـادـةـ الـعـالـمـيـةـ عـلـىـ نـسـاءـ الـعـالـمـيـنـ.

وـالـلـطـيفـ أـنـ لـدـنـاـ تـعـلـيـقاـ لـآـيـةـ اللـهـ الشـيـخـ جـوـادـيـ آـمـلـيـ دـامـتـ بـرـكـاتـهـ عـلـىـ رـوـاـيـةـ نـزـولـ الـوـحـيـ عـلـىـ فـاطـمـةـ الزـهـرـاءـ عـلـيـهـاـ بـعـدـ رـحـيـلـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـاـ السـلـامـ،ـ وـالـتـيـ أـوـرـدـهـاـ الـكـلـيـنـيـ خـالـدـيـ فـيـ الـكـافـيـ الشـرـيفـ «إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ لـمـ قـبـضـ نـبـيـهـ عـلـيـهـاـ السـلـامـ دـخـلـ عـلـىـ فـاطـمـةـ عـلـيـهـاـ مـنـ وـفـاتـهـ مـاـ لـاـ يـعـلـمـ إـلـاـ اللـهـ عـزـوجـلـ،ـ فـأـرـسـلـ اللـهـ إـلـيـهـاـ مـلـكـ يـسـلـيـ غـمـهـاـ وـيـحـدـثـهـاـ...»^(١١) قـائـلاـ حـولـ مـقـامـ مـوـلـاتـنـاـ الصـدـيقـةـ عـلـيـهـاـ:ـ «ـأـنـ تـصـيرـ عـالـمـيـاـ،ـ

ـأـنـ تـكـونـ عـالـمـيـاـ،ـ عـلـيـكـ أـنـ تـسـعـيـ وـتـجـهـدـ وـتـصـبـرـ كـمـاـ سـعـيـ النـبـيـ نـوـحـ عـلـيـهـاـ طـيـلـةـ ٩٥٠ـ عـامـاـ حـتـىـ خـاطـبـهـ الـمـوـلـىـ الـقـدـيرـ فـيـ كـتـابـهـ الـعـزـيزـ «ـسـلـامـ عـلـىـ نـوـحـ فـيـ الـعـالـمـيـنـ»^(١٢)ـ،ـ فـالـنـبـيـ مـوـسـىـ عـلـيـهـاـ بـتـامـ سـعـيـهـ وـجـهـهـ لـمـ يـرـدـ فـيـ الـقـرـآنـ فـيـ حـقـهـ آـيـةـ لـلـعـالـمـيـنـ،ـ وـالـنـبـيـ إـبـرـاهـيـمـ عـلـيـهـاـ وـمـاـ قـامـ بـهـ مـنـ عـمـارـةـ بـيـتـ اللـهـ الـحـرـامـ،ـ وـمـجـاهـدـهـ إـلـىـ الـأـصـنـامـ «ـحـرـقـوـهـ وـأـنـصـرـوـاـ اللـهـتـكـمـ»^(١٣)ـ،ـ مـعـ كـلـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ آـيـةـ لـلـعـالـمـيـنـ!

ـفـلـوـ أـرـادـ أـحـدـ أـنـ يـكـونـ آـيـةـ لـلـعـالـمـيـنـ،ـ يـعـنـيـ إـمـاـ أـنـ تـكـونـ لـهـ كـلـمـةـ بـيـنـ الـأـوـلـيـنـ وـالـأـخـرـيـنـ،ـ وـإـمـاـ أـنـ يـكـونـ لـهـ سـعـيـ كـسـعـيـ نـبـيـنـاـ نـوـحـ عـلـيـهـاـ تـسـعـةـ قـرـونـ وـنـصـفـ،ـ لـأـنـ الـقـرـآنـ أـوـرـدـ هـذـاـ السـلـامـ بـشـكـلـ خـاصـ إـلـىـ النـبـيـ نـوـحـ عـلـيـهـاـ،ـ بـيـنـمـاـ قـالـ فـيـ مـوـسـىـ عـلـيـهـاـ «ـسـلـامـ عـلـىـ إـبـرـاهـيـمـ»^(١٤)ـ «ـسـلـامـ عـلـىـ مـوـسـىـ وـهـارـوـنـ»^(١٥)ـ.

ـوـلـكـنـ وـفـقـ كـلـامـ الرـسـوـلـ الـمـعـظـمـ عـلـيـهـاـ السـلـامـ فـيـ الـصـدـيقـةـ الزـهـرـاءـ عـلـيـهـاـ سـيـدةـ نـسـاءـ الـعـالـمـيـنـ مـنـ الـأـوـلـيـنـ وـالـأـخـرـيـنـ،ـ مـاـذـاـ؟ـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ عـدـلـاـ لـلـقـرـآنـ الـكـرـيمـ فـكـانـتـ الـكـلـمـةـ

ـالـجـامـعـةـ «ـ(١٦)ـ»ـ.

٣- آية الاطعام:

أنزل الله فيهم هذه الآيات الشريفة ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِلَى قَوْلِهِ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ليوضح مدى شأن العائلة العلوية الفاطمية، فلو أتينا إلى هذه الآية من سورة الإنسان فهي قد أوضحت عدة خصائص للسيدة الصديقة الزهراء عليها السلام والكوكبة الصالحة من بعلها وبنيها عليهما السلام:

١. إطعام الطعام مع أشد الحاجة إليه لثلاث فئات من المجتمع. (الإيثار).

٢. إرادة وجه الله بشكل مخلص في هذا الإطعام . (الإخلاص).

٣. عدم انتظارهم لشكر الناس وجزاءهم. (بل هي الرحمة في قلوبهم).
والروايات في هذا الشأن ليست بقليله التي تبيّن أن من أول آيات سورة الإنسان، وتصحيف الأبرار، وتبشيرهم بالجنة ونحو ذلك إنما نزلت في علي عليه السلام وأهل بيته عليهما السلام، ومرادنا قد اتضح من أن سعي السيدة الزهراء عليها السلام مشكور عند رب العالمين، فلم تتردد في أن تبيت ثلات ليال بدون أي طعام، والأشد من ذلك أن تصبر الأم وهي ترى ولديها وقد تشفافيا من المرض وليس لها طعام.

٤- سورة الكوثر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١٧).

أخرج أصحاب عدد من التفاسير نزول هذه السورة بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول عليهما السلام وإليك عدداً منهم:

١. البيضاوي في تفسيره، عند تفسير الكلمة: الكوثر، قال: "وقيل: أولاده".

٢. الفخر الرازمي، في تفسيره الكبير، قال: "الكوثر أولاده عليهما السلام؛ لأن هذه السورة إنما نزلت ردّاً على من عابه عليهما السلام بعدم الأولاد، فالمقصى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قُتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق

من بنى أمية في الدنيا أحد يعبأ به^(١٩).

ولايختفى أن هناك الكثير من الأقوال في المراد من الكوثر في الآية المباركة، من الخير الكثير وكثرة الأولاد والشفاعة ونهر في الجنة، إلا أن صاحب الميزان رجح كونها دالة على فاطمة عليها السلام وذريتها عليها السلام حيث قال عليها السلام: "والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليها السلام ذريتها عليها السلام، وهذا في نفسه من ملامح القرآن الكريم فقد كرر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعاد لهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من التواب وآفني جموعهم من المقاتل الذريعة"^(٢٠).

٥- سورة القدر:

قال حدثنا محمد بن القاسم بن عبيد معنعاً عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ الْلَّيْلَةَ فاطِمَةَ عليها السلام، وَالْقَدْرُ اللَّهُ، فَمَنْ عَرَفَ فاطِمَةَ عليها السلام حَقَّ مَعْرِفَتِهَا فَقَدْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنَّمَا سَمِّيَتْ فاطِمَةَ عليها السلام; لِأَنَّ الْخَلْقَ فَطَمُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا - أَوْ مِنْ مَعْرِفَتِهَا الشَّكُّ مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ -، وَقَوْلُهُ: وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، يَعْنِي خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مُؤْمِنٍ، وَهِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُؤْمِنُونَ يَعْلَمُونَ عِلْمَ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَالرُّوحُ الْقَدِيسُ هِيَ فاطِمَةَ عليها السلام يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ يَعْنِي حَتَّى يَخْرُجَ الْقَائِمُ عليه السلام»^(٢١).

هذا، وقد ذكرت رسالة (فاطمة الزهراء عليها السلام ليلة القدر) أربعة عشر وجه من أوجه الشبه بين فاطمة الزهراء سيدة النساء عليها السلام وبين ليلة القدر، وإجمالها كما يلي:

- ١- ليلة القدر وعاء زماني للقرآن الكريم، وفاطمة الزهراء عليها السلام وعاء مكاني.
- ٢- ليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، كذلك الزهراء عليها السلام فهي الفاروق بين الحق والباطل.
- ٣- ليلة القدر معراج الأنبياء لكسب العلوم والفيوضات الإلهية، كذلك



فاطمة الزّهراء عليها السلام فهي مرقة النبوة ومعرفتها مراج الأنباء.

- ٤- ليلة القدر هي خير من ألف شهر، كذلك تسبّب فاطمة الزّهراء عليها السلام في كل صلاة بآلف صلاة وبعجائبها تضاعف الأعمال كليلة القدر.
- ٥- ليلة القدر ليلة مباركة، ومن أسماء فاطمة الزّهراء عليها السلام (المباركة).
- ٦- علو شأن ليلة القدر ومقامها الشامخ بين الليالي، كذلك الزّهراء عليها السلام، وأنه لولاها لما خلق الله محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه وعلي عليها السلام كما ورد في الخبر الشريف.
- ٧- كما أن ثواب العبادات في ليلة القدر يتضاعف كرامة لها، كذلك حب الزّهراء عليها السلام يوجب تضاعف ثواب الأعمال، وإذا كانت ليلة القدر منشأ الفيوضات الإلهية، فكذلك الزّهراء عليها السلام والتوصّل بها.
- ٨- القرآن هو النور ونزل في ليلة القدر ليلة النور، وفاطمة عليها السلام هي النور فهي ليلة القدر كما في تفسير آية التّور: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٩- ليلة القدر ليلة السعادة، وفاطمة عليها السلام سر السعادة.
- ١٠- تقدّست ليلة القدر وما قبلها من الأيام والليالي وما بعدها كرامة لها وتعظيمًا لمقامها، كذلك الزّهراء عليها السلام يُحترم ذريتها ويُقدّسون عند الأمة كرامة لها وحبًا بها ولغير ذلك.
- ١١- ليلة القدر ليلة الخلاص من النار والعتق من جهنّم، كذلك فاطمة عليها السلام تفطم شيعتها من النار وتلتقطهم من الحشر كما يلتقط الطير الحب الجيد.
- ١٢- ليلة القدر سر من أسرار الله، وكذلك الزّهراء عليها السلام فهي من سر الأسرار.
- ١٣- ليلة القدر سيدة الليالي، وفاطمة الزّهراء عليها السلام سيدة النساء.
- ١٤- لقد جهل قدر ليلة القدر، وكذلك فاطمة الزّهراء عليها السلام بنت الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه فقد جهل الناس قدرها، كما أنها مجھولة القبر إلى ظهور ولدتها القائم من آل محمد عليه السلام ^(٢٢).

وللباحث المتعطش أن يغور في كتب التفسير ليشفى غليله من المعرفة الفاطمية، فله أن يقصد الزهراء علیها السلام في آية المودة، وآية «وَأَتَ ذَا الْقُرْبَى»، والزهراء علیها السلام في سورة الرحمن، وسورة النور، وسورة البقرة، وفي سورة الرعد وسورة ياسين.

وقد أجاد السيد محمد على الحلو في جمع ما نزل من القرآن في شأن الزهراء بين دفتين.

المقام الثاني: الصديقة علیها السلام والقرآن الكريم

ونركز هنا على اهتمام الزهراء علیها السلام بالقرآن الكريم، ومدى علاقتها الوثيقة التي تربطها به، وذلك ليس بمستغرب عنها وقد نشأت في بيت الوحي والتزيل، فهم أهل القرآن بل هم القرآن الناطق. وقد جاء في الرواية الشريفة «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مَنْ حَوْطَبَ بِهِ»^(٢٣).

فضل القرآن والتشوّق إليه:

ومما وصل إلينا في بيان العلاقة الرصينة بينهما، ما قالته سيدة النساء علیها السلام: «حُبِّبَ إِلَيْيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: تَلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢٤).

وأيضاً جاء عنها: «قَارئُ الْحَدِيدِ، وَإِذَا وَقَعَ، وَالرَّحْمَنُ، يَدْعُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَاكِنَ الْفَرْدَوْسِ»^(٢٥).

فما يربط شخصية عظيمة كشخصية سيدة الزهراء علیها السلام بكتاب الله رباط يحمل أسمى معاني الأنس والاستياض بهديه ونوره، فلا غرو أن يكون القرآن الكريم من أوائل ما يغرس في قلب سيدة الزهراء علیها السلام، بل من الموجهين لتلاوته والاستئناس به والأخذ بهديه، وقد جاء في هذا المنحى ما نقل عن الزهراء

البتول عليه السلام في رثاء أبيها:

فغبت عنّا فكلّ الخير محتجب
قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا
عليك تنزل من ذي العزة الكتب^(٢٦) فكنت بدرًا ونورًا يستضاء به

وصف القرآن:

«...وَمَعْنَا كِتَابُ اللَّهِ الْنَّاطِقُ، وَالْقُرْآنُ الصَّادِقُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ وَالضَّيَاءُ الْلَّامُ، يَبْيَّنُ
بصَائِرَهُ، مُنْكَشِّفَةً سَرَائِرَهُ، مُتَجَلِّيَّةً ظَوَاهِرَهُ، مُغَبَّطَةً بِهِ أَشْيَاعِهِ، قَائِدًا إِلَى الرُّضْوَانِ اتَّبَاعَهُ،
مُؤَدِّيًّا إِلَى التَّجَاهَةِ اسْتِمَاعَهُ، بِهِ تَنَالُ حَجَّاجُ اللَّهِ الْمُنْورَةُ، وَعَزَّاتُهُمُ الْمُفَسَّرَةُ، وَحَارِمَهُ الْحَذْرَةُ،
وَبَيْنَاتُهُ الْجَالِيَّةُ، وَبِرَاهِينُهُ الْكَافِيَّةُ، وَفَضَائِلُهُ الْمَنْدُوبَةُ، وَرَخْصَهُ الْمَوْهُوبَةُ، وَشَرَائِعُهُ الْمَكْتُوبَةُ»

فأَوَّلٌ ما شرعت في هذه الفقرة -من الخطبة الفدكية- ببيان المعية والرابطة المقدّسة بين أهل البيت عليهما السلام والقرآن الكريم، وأخذت توصّف السيدة الجليلة عليهما السلام بعد ذلك عظمة هذا القرآن، وما يثله القرآن من حالة النورية والضياء مع البيان الكامل لآيات الله، ويؤكّد ذلك ما ورد عن أبي عبد الله عليهما السلام: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدهم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمهم»^(٢٧) وما ورد «القرآن ربيع القلوب» باعتباره نورًا يشع على قلوب البشرية، وكلّ يأخذ على قدر وعائه وشفافية قلبه، وإلا فذلك الرّين الذي جاء في كتاب الله العزيز ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢٨).

الاستشهاد بالقرآن والاستدلال به:

«هذا كتاب الله حكماً وعدلاً وناطقاً فصلاً يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ أَلِ
يَعقوب﴾، ﴿وَوَرَثَ سُلَيْمانَ دَاؤُودَ﴾».

والاستشهاد بآيات الله على لسان الصديقة الزهراء عليها السلام مع بالغ أهميتها، إلا أنها ومقامها لو كان عند القوم أدنى إيمان لما كانت تحتاج إلى الاستشهاد بآيات الله

وهي آية التصديق والصدقية الكبرى، إلا أن الزهراء عليهما السلام فكانت في مقام بيان الحجة على هؤلاء الناس، والدفاع عن راية الإسلام المتمثلة في الإمامة الإلهية، كما أرادت بيان أن المرجع الأخير والحكم العدل هو كتاب الله العزيز، والاهتداء بهديه في أي فتنة نفتنه بها.

فحرى بنا أن نستهدي بهدى القرآن، ونحكم القرآن في ما نختلف فيه ونستنطقه في قضيائنا المعاصرة، لنكون في واقعنا وحياتنا قرآنين، ويصدق علينا في يوم القيمة أننا فاطميون، كما جاء عن ابن عباس عن أمير المؤمنين عليهما السلام عن رسول الله عليهما السلام: «فيقول الله (يافاطمة) انطلقي فمن اعتصم بك فهو معك في الجنة، فعند ذلك يود الخالق أنهم كانوا فاطميين»^(٢٩).

الوصية بكتاب الله:

«إذا أنا متُّ، فتولّ غسلِي، وجهزني، وصلّ عليّ، وأنزلني قبري... فأكثر من تلاوة القرآن والدعاء، فإنّها ساعة يحتاج الميت فيها إلى أنس الأحياء، وأنا أستودعك الله تعالى»^(٣٠) نعم تلك وصيّة الأولياء والمعصومين عليهما السلام، وإن دلت على شيء فإنّما تدلّ وصيّة الزهراء عليهما السلام على مكانة القرآن، ومحوريته في فكرها وتركيزها.

وأمّا ما أرادت بيانه عليهما السلام فإنّها تريد أن توصي بمجاجتنا إلى القرآن في كل مفصل من مفاصل حياتنا، بل في أهم الأوقات لاسيّما حين نزول الميت للقبر، ولم تطلب فقط التلاوة بل الإكثار من التلاوة، ومن جهة أخرى تعبّر مولاتنا عليهما السلام عن علاقة الأنس بين روحها الظاهرة وهذا الكتاب العزيز، فهي كلمة الله وهذا القرآن كلام الله.

المقام الثالث: القرآن والصدقية عليهما السلام مظهر الشفاعة والمظلومية

لم تكن الصدقية مظهراً للحلقة المقدسة بين النبوة والإمامية فحسب، بل كانت

القرين الحميم لكلام الله في مظهي الشفاعة والهجران، فكما أنّ كتاب الله المجيد ورد أَنَّه شافع فإنَّ الزَّهْرَاء عَلِيَّةُ السَّلَامُ من أبرز مظاهر الشفاعة يوم المحكمة الكبرى.

أمّا في شفاعة القرآن فتعالوا إلى نهج البلاغة لنرى ماذا قال أمير المؤمنين عَلِيٌّ فِيهِ: «واعلموا أَنَّه شافع مشفع، وقاتل مصدق، وإنَّه مَنْ شفع له القرآن يوم القيمة شُفع فيه، وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ القرآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّه يَنادِي مَنَادِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: إِلَّا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مِبْتَلٍ فِي حَرَثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ، فَكُونُوا مِنْ حَرَثَةِ وَأَتَابِعِهِ...»^(٣١).

فهذا النداء الذي سيسمع، والمخصوص لحرثة المقول القرآنية، سيسمع نفسه ولكنْ هناك نداءً مخصوصاً لشفاعة سيدة نساء العالمين عَلِيَّةُ السَّلَامُ إلى شيعتها ومحبّيها والبازلدين في حبّها وحبّ أبيها عَلِيٌّ وَآلُهُ.

فعن الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ عَلِيَّهُ وَآلُهُ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مَنَادٍ يَا مَعْشِرَ الْخَلَّاقِ غَضِبُوا أَبْصَارَكُمْ وَنَكَسُوا رُؤُوسَكُمْ، حَتَّى تَمَرَّ فَاطِمَةُ بُنْتُ مُحَمَّدٍ، فَتَكُونُ أُولَئِكَ مِنْ يَكْسِي، وَتَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ الْفَرْدَوْسِ اثْنَا عَشَرَةَ أَلْفَ حَوْرَاء... ثُمَّ يَعْثُثُ اللَّهُ مَلْكًا لَهَا لَمْ يَعْثُثْ لَأَحَدٍ قَبْلَهَا وَلَا يَعْثُثْ لَأَحَدٍ بَعْدَهَا، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: سَلِيْفٌ، فَتَقُولُ: هُوَ السَّلَامُ، وَمِنْهُ السَّلَامُ، قَدْ أَتَمْتَ عَلَيَّ نِعْمَتَهُ، وَهَنَانِي كَرَمَتَهُ، وَأَبَاحَنِي جَنَّتَهُ، وَفَضَّلَنِي عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ، أَسْأَلُهُ وَلِدِي وَذَرِيَّتِي، وَمَنْ وَدَهُ فِي وَحْفَظِهِمْ بَعْدِي، فَيُوحِي اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْمَلَكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ مِنْ مَكَانِهِ، أَخْبَرُهَا أَنِّي قَدْ شَفَعْتُهَا فِي وَلِدَهَا وَذَرِيَّتِهَا، وَمَنْ وَدَهُ فِيهَا وَحْفَظْتُهُمْ بَعْدَهَا. فَتَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِي الْحَزْنَ، وَأَفْرَغَ عَيْنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْنِ مُحَمَّدٍ عَلِيَّهُ وَآلُهُ وَسَلَّمَ»^(٣٢).

وهكذا اشتراك الصدقة في المظلومية التاريخية الكبرى والتي استمرت إلى هذه القرون، نعم اشتراك مع القرآن العظيم في سخية الهجران والمظلومية ولعلّ من أبرز مظاهر المظلومية في الثقلين واضحة في وجوه عديدة، منها ما نال القرآن ومنها ما نال قرينه، ولا يمكن هنا أيضاً أن نحصر مظلومية أحد هما به، بل إنَّ ظلم

أحدّها يعني في نفس الأمر ظلم الثقل الآخر، وهذا إنما يتضح جلياً لو التفتنا بأدّنى التفات إلى حديث الثقلين و«تمسّكم بهما».

صور من الهجران:

- التعدي على القرآن الكريم في تفسيره بما لم ينزل به الله من سلطان، وذلك عبر أهواء بعض من تلبّس بالعلم، فأخذ يدلّس في التفسير وأسباب النزول لأهدافٍ جدُّوضيعة، وهكذا ما نال السيدة الزهراء عليها السلام من مظلومية تبقى على مدى التاريخ ولعلَّ أبرز ما يندى له الجبين حتى عصرنا الحالي ألا يكون هناك قبر معروف لسيدة النساء في هذا العالم! وأكبر من هذا أنَّه قد يأتي على بعضهم من يتّشهَّد الشهادتين ولا يعرف أنَّ رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ابنة تسمى فاطمة عليها السلام!!
- حالة البعد عن جوهر القرآن والعمل بدساتيره، مع التركيز على طباعته وتجويده وتلاوته، والمتاجرة به وذلك باسم حفظ وخدمة القرآن!!، وهكذا فإنَّ ادعاء محبة أهل البيت عليهم السلام ليس كافياً بل لابد من التبرّي من أعداء الزهراء عليها السلام، وتشخيص جبهات الحق والباطل.

نعم، تشخيص جبهة الحق تعالى التي قد بيّنها أمير المتكلمين في نهجه عليه السلام:

«بِهِمْ عِلْمُ الْكِتَابِ وَبِهِ عِلْمُوا، وَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا»^(٣٣).

- حالة الهجران للقرآن من عموم الناس، وحصره في بعض الحالات كالحزن أو البركة أو ما شابه ذلك. ﴿يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي لَتَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وهجراننا عن مفاهيم وروايات ومعارف الزهراء عليها السلام وأهل بيتها عليهم السلام من أهم أسباب ابتلاءاتنا كما اشتهر على لسان الشيخ بهجت رحمه الله. فلا يكفي ادعاء المحبة والولاء من دون تحصص كل سلوكياتنا وقناعاتنا لتكون وفق ما أرادها حجج الله على عباده.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَهُوَنَّ بِالْقُرْآنِ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى أَنفُسِنَا كَرْبَ
السِّيَاقِ، وَجَهْدِ الْأَئْنِينِ، وَتَرَادُفِ الْمُخَارِجِ إِذَا بَلَغَتِ النُّفُوسُ التَّرَاقَ وَقَيْلَ منْ رَاقَ،
وَثَبَّتَنَا عَلَى وَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ وَالْبَرَاءَةُ مِنْ أَعْدَاءِهِ يَا كَرِيمَ.

الهوامش:

- (١) الأسرار الفاطمية للشيخ المسعودي ص ٤١٠.
- (٢) وسائل الشيعة ٢٧: ١٨٥ كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، الباب ١٣، الحديث ٢٥.
- (٣) ذخائر العقبى ص ٣٩، مسند فاطمة ص ٥٢، ينابيع المودة ص ١٧٤.
- (٤) التّحلل ٨٩/١٦.
- (٥) الفرقان ١/٢٥.
- (٦) المذكّر ٣١/٧٤.
- (٧) بحار الأنوار ج ٣٥ ص ٣٥٥ باب ١٤ ح ٦.
- (٨) كمال الدين ١: ٢٧٨، باب ٢٤، ذيل الحديث ٢٥.
- (٩) مع الدكتور السالوس في أية التطهير، السيد علي الحسيني الميلاني ص ١١٩.
- (١٠) زبدة التفاسير ج ١ ص ٤٩٧.
- (١١) أصول الكافي ج ١ ص ٢٤، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر... ح ٢.
- (١٢) الصافات ٧٩ / ٣٧.
- (١٣) الأنبياء ٦٨ / ٢١.
- (١٤) الصافات ١٠٩ / ٣٧.
- (١٥) الصافات ١٢٠ / ٣٧.
- (١٦) (صحيفة أفق الحوزة بذكرى شهادة السيدة فاطمة الزهراء س عام ١٤٣٣هـ/ بتصرف في الترجمة).
- (١٧) الكوثر ١ / ١٠٨.
- (١٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ مخطوط/ ص ١١٥٦.
- (١٩) التفسير الكبير/ ج ٣٠/ تفسير سورة الكوثر.
- (٢٠) الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص: ٣٧١.

- (٢١) تفسير فرات الكوفي، ص: ٥٨٢.
- (٢٢) فاطمة الزهراء علیها سرّ الوجود للسيد عادل العلوی ص ٦٣.
- (٢٣) بحار الأنوار ج ٢٤ ص ٢٣٨.
- (٢٤) كنز العمال، للمتفقى الهندى الصوфи الحنفى المتوفى ٩٧٥ هـ ج ١ ص ٥٨٢.
- (٢٥) شعب الإيمان، للبيهقي الشافعى المتوفى ٤٥٨ هـ.
- (٢٦) شرح ابن أبي الحديد ١٦:٢١٢.
- (٢٧) شرح أصول الكافي للمازندرانى ج ٢ ص ٣٠٢.
- (٢٨) المطففين ٨٣/١٤.
- (٢٩) تفسير فرات الكوفي ٤٤٦.
- (٣٠) بحار الأنوار للمجلسي ج ٧٩، ص ٢٧.
- (٣١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٩١.
- (٣٢) مسائل علي بن جعفر ٣٤٥.
- (٣٣) نهج البلاغة ٤٣٢.

إِنَّا لَأَعْطَيْنَاكَ الْوُرْ



دور الزَّهْراء عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَكَاملِ الْبَشْرِيَّةِ

أَشْيَخُ عَبْدِ الرَّوْفِ حَنْ التَّرْبَعِ

المقدمة

عندما خلق الله سبحانه البشر وسخر لهم هذا العالم ليتكاملوا ويترشدوا فيه، لم يبخل عليهم بإرسال من يبلغهم سبل الهداية ووسائل الخير، فبعث إليهم الأنبياء والرسل والأئمة الأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكان دورهم بارزاً وجلياً، فتقدّموا الناس وقادوا زمام أفتادتهم نحو السعادة الأبديّة، وإضافة إلى ذلك تألق دورٌ من سنسخ دور النبوة وإن لم يُسمّ باسمها، وينبض بروح الإمامة ولو لم يكن عينها، دورٌ إذا أردت أن تقيسه بميزان فلن يتخلّف ثقله عمّا

ينهض به كبار أولياء الله وقادة البشر الإلهين العظام، إنّه دور الوليّة الظاهرة والكاملة الزّاهرة فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما وعلى آلهما، وبالرّغم من قصر عمرها الشّرّيف، والظّروف الصّعبة التي اكتنفت حياتها، وطبيعتها الأنثوية إلا أنّ ذلك لم يمنعها من الوصول إلى أقصى مدارج العلياء، وأن تكون الأسوة والمثال الذي تستلهم منه البشرية عالم عزّها ورغدها، فما هو كنه هذا الدور؟ وما هي طبيعته وسرّ وجوده؟ وما هو الأثر المترتب عليه؟

يحاول هذا المقال أن يدخل غمار هذه التساؤلات ويستعرض بعض الخطوط والعناوين التي تعين في التوصل إلى إجابة شافية عليها.

نطاق محدود

ينبغي التأكيد بأدئ ذي بدء أن الوقوف على الدور التفصيلي الدقيق الذي نهضت به الصديقة الظاهرة علیها السلام ليس بالأمر اليسير المتوفّر بالنحو المطلق، بل تجاهله بعض المعوقات التي تحول دون الإلمام الكافي ببعض جزئيات وخفايا شخصيتها المباركة علیها السلام، من قبيل:

- أ- إنّ شخصيّة السيدة الزّهراء علیها السلام -بل شخصيّة المعصوم بنحو عام- لا يُعرف كنهها بعد المثالق تعالى إلا المعصوم، فمهما بلغنا من الشأن لن يتسلّى لنا ولعلّونا القاصرة الإحاطة بمقامها وخصائصها علیها السلام، ولذا ورد في أحد أوجه تسميتها بفاطمة: «وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ فَاطِمَةً لِأَنَّ الْخَلْقَ فُطِمُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا»^(١).
- ب- عدم تناسب الوالصل إلينا من سيرة الزّهراء علیها السلام مع حجم وعظمة قدرها وموقعها، وهو لا يعكس إلا النّذر القليل من حياتها الملية بالعطاء، ولعمري إنّه أمرٌ باعثٌ على العجب والمحيرة، فحرّيٌّ من نطق في حقها الآيات^(٢) وتفتنت في بيان علوّ شأنها الروايات^(٣) أن تسطّر حول مناقبها وتضاعيف حياتها عشرات الكتب وألاف الروايات والنقولات التاريخية.

ج - وجود نوع من الحركة الممنهجة المضادة^(٤)، هدفها تشويه أو تزوير كل ما يتعلّق بفضائل أهل البيت علیهم السلام، وخاصةً بما يرتبط منها بأمير المؤمنين علیهم السلام أو بفاطمة علیهم السلام، وترأسها معاوية، وكانت تعمل جاهدةً على طمس كراماتهم وأثارهم علیهم السلام ومحوها من أذهان الناس، وأحياناً تلجأ إلى سرقة تراثهم ولصقه بغيرهم من مخالفتهم، أو القيام بتشويهه بما يورث النقص والملامة عليهم وعلى سمعتهم^(٥)، وذلك عبر التوسل بشراء ذمم بعض الرواية وإغراقهم بوضع الأحاديث المكذوبة أو المغلوطة، ومن خلال استغلال فرصة منع تدوين الحديث عند العامة، والذي استمر زهاء قرنٍ من الزمن، وإلا ما معنى القول أن الزهراء علیهم السلام لم تسمع من الرسول علیه السلام - وهي التي كانت لصيقته به وكثيرة الجلوس والتسامر معه حتى أثار ذلك حفيظة بعض زوجاته - إلا ثمانية عشر حديثاً^(٦) والصحيح منها اثنان^(٧) لا غير !!!

ولكن لا يعني هذا عدم إمكان التعرّف - ولو إجمالاً - على بعض الجوانب البارزة من حياة الصديقة علیهم السلام ودورها الشريف، فهي كالشمس المتألقة في وسط النهار تشرق وتوصل شعاعها إلى الجميع وإن زاحتها بعض السحب المعترة.

فائد الشيء لا يعطيه

لا ريب في أنّ الذي يلعب دوراً في تطوير الناس وتربيتهم وتكاملهم أن يكون متقدّماً عليهم في السلوك وحائزًا على الملائكة العالية التي تؤهله للقيام بوظيفته ومهّته، لأن فائد الشيء لا يعطيه، ولذا فعند البحث عن دور الزهراء علیهم السلام في الأخذ بيد البشرية إلى ذروة الكمال لا بد من ملاحظة أمرين:

الأول:- إنّ فاطمة الزهراء علیهم السلام قد وصلت إلى قمة الكمال الإنساني:

وهو أمرٌ متفقٌ ومتسلّمٌ عليه بين المسلمين، ويظهر لأدنى مراجعة إلى المصادر

الإسلامية لدى الفريقيين، ونطقت بضمونه جملة من الروايات، منها ما ورد عن النبي ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ أَبْشِرِي فِيَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَعَلَى نِسَاءِ إِلْسَامٍ وَهُوَ خَيْرُ دِينٍ»^(٨).

وقيل للإمام الصادق ع: قول الرسول ﷺ: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، أي سيدة نساء عالمها؟ قال: «ذاكَ مَرِيمُ، وَفَاطِمَةُ سَيِّدَةِ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأُوَلَّينَ وَالآخِرِينَ»^(٩).

ومن جهة بلوغها القدر وعزازة النظير لم يكن لها كفؤٌ خليقٌ بها من حيث الكمال -بعد الخاتم ﷺ- إلا الأمير ع، فقد جاء في الفقيه: وقال ع: «لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ فَاطِمَةَ لِعِلِّيٍّ مَا كَانَ لَهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كُفُوْ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ»^(١٠).

الثاني: - إِنَّهَا عَلَيْهَا قَدْوَةُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ مَعًا:

فلا يفهم من سيادتها لنساء العالم أنها عَلَيْهَا قدوة هن فقط، بل الاستنارة بهديها يحتاجه الجميع، ويستفيد منه النساء والرجال على حد سواء، كما أن درب السعادة والكمال في الإسلام ليس مقصوراً على جنس دون آخر، ولا يتفرّع إلى شعب وأجزاء، وإنما هو عامٌ للنوع الإنساني، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَهُنَّ يَتَّهِيدُونَ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْشَأْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١٢).

ويكن اكتشاف جامعية هداية الزهراء ع لكافة الناس أيضاً من خلال الروايات الخاصة، من بينها ما عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن محمد بن النعمان عن سلام عن أبي جعفر ع في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلَ إِلَيْنَا...﴾ قال: «إِنَّمَا عَنِّي بِذَلِكَ عَلَيْهَا وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَينُ، وَجَرَتْ بَعْدَهُمْ فِي الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ الْمَدْحُورُ ثُمَّ يَرْجِعُ الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ فِي النَّاسِ

فَقَالَ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا هُنَّ يَعْنِي النَّاسُ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يَعْنِي عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحَسِينَ وَالْأَئِمَّةَ عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ ﴿فَقَدِ اهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾^(١٣).

الزَّهْرَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ والاصطفاء الإلهي

لا غرو أن خلق الله تعالى لعباده رافقه تكليفٌ ودورٌ مناطٌ بكلٍّ فرد منهم، ويصبح الجميع على إثره مسؤولين عنده سبحانه، وهو تكليفٌ عامٌ وشاملٌ على طول التاريخ، إلا أن هناك مجموعة من البشر نظراً لعلم الله تعالى بحالتهم المعنوية وصبرهم وطاعتهم المنقطعة النّظر وأهليتهم لأداء المسؤوليات الثقيلة والنوعية - أناطَ بهم دوراً خاصاً زائداً على مسؤولياتهم العامة، فاصطفاهم واختارهم من بين خلقه لتحمل هذا الدور، ليغدوا من خلاله حُجَّاجاً منه على عباده، وبما أن الزهراء علیها السلام واحدة ممن نال هذا الشرف الرّفيع، يصبح من اللازم الوقوف على ماهية اصطافتها وهدفها، لارتباطه الوثيق بتكامل الناس وهداية قلوبهم، فالاصطفاء الإلهي له أحياء وأغراض متعددة، يمكن تصنيفها -بزاوية ما- إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول:- اصطفاء النبوة: وهو للذين بعثهم لتبلیغ رسالته وبيان أحكامه وتهذیب الناس، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١٤).

الصنف الثاني:- اصطفاء الوصاية أو الإمامة: وهو للذين يتبعون وظيفة الأنبياء علیهم السلام ويخلفونهم ويكملون مسيرتهم، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أُرْتَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾^(١٥).

الصنف الثالث:- اصطفاء المهام الخاصة: وهو للذين يبعثهم الله تعالى لوظيفة معينة وظرف محدد، كقيادة المجتمع أو العسكر وأمثال ذلك، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ

لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَائِلُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا
وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ
بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ ﴿١﴾.

الصنف الرابع: - اصطفاء الولاية والمحجة الكبرى: وهو من هم حق الولاية على الناس - غير الأنبياء والأوصياء عليهما السلام - ويذخرون لأمر إلهي كبير وخطب جسيم ليكونوا آية أخرى يتم بها مشروع النبوة والإمامية، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٧).

ويمتاز جميعها بأن أفرادها مؤيدة ببراهين ساطعة وآيات باهرة، وذلك ليحصل لهم الوثوق والتصديق، وتتم حجتهم على الناس.

واصطفاء السيدة الزهراء عليها السلام هو من الصنف الرابع، لأنها بالتأكيد ليست نبياً ولا إماماً، لكنها حائزة على مقام الولاية، وهي واحدة من الحجج المفترضة الطاعة، وتحلى بصفاتهم، كالعصمة والعلم اللدني الخاص، والجاه الرفيع والمنزلة المقربة، وبعبارة أخرى: لها ما للأنبياء والأئمة عليهم السلام من مقامات سوى الاختلاف في الوظيفة والدور، والدليل على ذلك:

ما أسلف من وصوتها إلى ذروة الكمال الإلهي وأنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، ونزيد عليه بما ورد بعدة مضامين عن الرسول عليهما السلام:
 «يا فاطمة إن الله تعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك»^(١٨)، وطبعي أن من كان هذا حالها أن تُحسب من المقربين والصديقين، وهو كاف أيضاً للدلالة على عصمتها؛ لأن رضا الله تعالى وغضبه يستحيل أن يقترن ويجتمع بنحو مطلق مع رضا وغضب من يخطئ أو يتبع هواه وما شاكل ذلك، وبالتالي فهي تعبر آخر عن العصمة.

على أنّ مفاد ذلك يمكن استفادته من العديد من الروايات الأخرى أو الآيات، من قبيل آية التطهير: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾**^(١٩)، بتقريب أنّ المراد من الرّجس هو مطلق التلوّث وأمراض القلب وارتكاب الذنب الذي يقابل مطلق الطهارة، وهي **عليها - بلا ريب - واحدة من أهل الكساء الذين نزلت في حقهم الآية**^(٢٠).

وأمّا من ناحية علمها فإنّم يفِ ما تقدّم للإشارة إليه - ولو من باب الأولوية - فبالإمكان استيعاؤه من بعض الروايات، مثل ما ورد عن أبي بصير عن أبي عبد الله **عليه السلام**: «... وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَبِيهِ بَصِيرٍ: أُوصِيكُمْ بِكَاتِبِ اللَّهِ وَأَهْلِ بَيْتِي، فَلَيْسَ سَأْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا حَتَّى يُورَدُهُمَا عَلَى الْحَوْضَ فَاعْطَانِي ذَلِكَ، وَقَالَ: لَا تُعْلَمُونَهُمْ أَعْلَمُ مَنْكُمْ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ لَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ بَابِ هُدَى وَلَنْ يُدْخِلُوكُمْ فِي بَابِ ضَلَالٍ، فَلَوْ سَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يُبَيِّنْ مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ لَادْعَاهَا آلُ فُلَانَ وَآلُ فُلَانَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهُ فِي كَاتِبِهِ تَصْدِيقًا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾** فَكَانَ عَلَيْهِ الْحَسْنُ وَالْحُسْنَى وَفَاطِمَةُ **عليها السلام** فَادْخَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَحْتَ الْكِسَاءِ فِي يَتِيمَةٍ ...»^(٢١).

ونجد أنّ لسانها لا يفرق بين الزهراء **عليها السلام** وبين سائر الحجاج **عليهم السلام** - كالرسول **عليه السلام** والأئمة **عليهم السلام** - في المقامات والمرجعية إلى الناس، فيبقى التنوع في الأدوار هو المائز لا غير.

والخلاصة: إنّ اصطفاء الله تعالى للزهراء **عليها السلام** يُنبئ عن تكليفها بدورٍ كبيرٍ زائدٍ عن تكليف العباد المتعارف ليعود في الأخير إلى منفعتهم وتكاملهم.

بقي أن نسأل: ما هو هذا الدور؟ وما هو كنهه؟ والجواب: إنّ القرآن في قصة مريم **عليها السلام** قد أشاح وكشف عن جانبٍ مهمٍ في سرّ اصطفائها، والحال أنها تشتراك مع الزهراء **عليها السلام** في طبيعة الاصطفاء، والروايات كثيرةً ما تربط بين مسألة اصطفاء السيدة مريم **عليها السلام** وبين اصطفاء السيدة الزهراء **عليها السلام** - والمظنون أنّ ورود قصتها في

القرآن وتسليط الآيات عليها هو من أجل لفت العناية وتوجيه الأنظار إلى الزهراء عليهما السلام - وبناءً على ذلك فإنه بمقدورنا تَعْدِيَة ما يستفاد من دور مريم عليهما السلام والغرض من اصطفائها إلى الزهراء عليهما السلام، وتصبح معه القصة والآيات المتعلقة بها مشيرة ظاهراً إلى شخص مريم عليهما السلام ولكنها في الواقع هي بمثابة التوجيه إلى شخص الزهراء عليهما السلام أيضاً.

ف عند قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمٌ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾**^(٢٢) ورد عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليهما السلام: «... اصطفاها مرتين، أما الأولى فاصطفاها أي اختارها، وأما الثانية فعندها حملت من غير فحل فاصطفاها بذلك على نساء العالمين»^(٢٣)، وعقب الطبرسي عليه السلام حول هذا الأمر: "قال أبو جعفر عليهما السلام: معنى الآية اصطفاك من ذريّة الأنبياء، وطهرك من السفاح. اصطفاك لولادة عيسى عليهما السلام من غير فحل. وخرج بهذا من أن يكون تكريراً، إذ يكون الاصطفاء على معنيين مختلفين"^(٢٤).

وبنفس السياق ذكر عن مولانا الإمام الكاظم عليهما السلام في كلام له مع الرشيد: «... إن الله نسب المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى خليله إبراهيم عليهما السلام بأمه مريم البكر البنول التي لم يمسها بشر في قوله {وَمَنْ ذُرِّيَّهُ دَاؤُدْ وَسَلِيمَانٌ وَأَيُوبُ وَيُوسُفُ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذِيلَكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَلِيَاسَ كُلُّ مِنَ الصَّالِحِينَ} فنسبه بأمه وحدها إلى خليله إبراهيم عليهما السلام كما نسب داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون عليهما السلام بأبائهم وأمهاتهم فضيلة لعيسى عليهما السلام ومنزلة رفيعة بأمه وحدها وذلك قوله في قصة مريم عليهما السلام {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} بال المسيح من غير بشر وكذلك اصطفى ربنا فاطمة عليهما السلام وطهرها وفضلها على نساء العالمين بالحسن والحسين سيد شباب أهل الجنة»^(٢٥).

ونستنتج من خلال هذا العرض النقاط التالية:



أ- إن الله أذخر مريم ابنة عمران عليهما خطيئة وهي ولادة النبي عيسى عليهما من دون أب، لتصبح آية من آياته الباهرة التي تبرز عظمته وجلالته قدرته، ولكي يكون ابنها رحمة وفرجا للناس، ومخلصاً لمحنهم، وواسطة لحلول البركة والخير عليهم ﴿وَلَنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾^(٢٦)، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(٢٧).

ب- هذا الأمر الخطير لكونه خارجاً عن المألوف، وأنه سيحدث تحولاً كبيراً لدى عامة الناس، ومتوقع جداً أن ينال معارضه قوية من بعض أصحاب النفوذ والمصالح، ولدواع تصب في هذا السياق، كان من اللازم أن ترافقه حجة قوية وواسطة من النوع الخاص، وهذا ما حصل فعلاً، فنفس السيدة مريم عليهما كانت آية كبرى لوحدها أيضاً، وكانت معصومة مقدسة، ومثالاً للطهر والإنسان الكامل بنحوٍ خالٍ من الغبار، وبذلك ربما يبرر تكرار لفظة الاصطفاء في حقها.

ج- لو عدنا إلى السيدة الزهراء عليهما وبالنظر إلى مجموعة الروايات التي تشبه ظرفها -من زاوية ما- بظرف السيدة مريم عليهما نجد أن الخطيب الجليل الذي كلفت به هو كونها الواسطة التي تنحدر منها الذريعة الطاهرة لآل البيت النبوية الشريف عليهما، هذه العترة التي تمثل علة الوجود وسر رحى الكون^(٢٨) ومهبط الرحمة على العالمين^(٢٩) والمولى الذي يفرز إليه الناس بعد الرسول عليهما وآله وآله، والذي يصبح خاتمهم عليهما هو المنقذ للبشرية من ألوان الظلم والعذاب، ويظهر به الإسلام علىسائر الأديان، ولعمري أن المتبع للروايات حول مقامهم ومنزلتهم ليشعر بالإيقان أن آية خلقهم وإيجادهم عليهما لهي أعظم وأكثر إعجازاً من خلق النبي عيسى عليهما، فإذا احتاج خلقه من دون أب إلى آية مدعمة واستثنائياً خاصاً فاحتياج وجود العترة الهدية عليهما وبزوج نورهم إلى الناس إلى الاستثناق والتدعيم من باب أولى.

د - ولتوقع أن يُحدث أمر تنصيب العترة الهادية عليهم السلام للإمامية إلى رفض وإنكار بعض الجهات ذات النفوذ والمصالح، ومن ناحية الجاه الاستثنائي والمقام الفريد الإعجازي الذي تحتله شخصياتهم، وربما لأسباب غيبية أيضاً، كان من اللازم -تميناً للفرض الإلهي - أن يكون الجمع الذي تنحدر منه هذه العترة عليهم السلام هو آية عظمى ومعجزة بحد ذاته، وهذا ما يفسّر امتلاك السيدة الزهراء عليها السلام لملكة العصمة والطهارة والعلم الموهوب، وسائر درجات المقربين والصديقين، وبكلمة جامعة: هي طليطلة الواسطة بين التبّوّة والإمامية، والحارسة على مصلحتهما، والعلامة الدالة على حقانيتهما.

والمحصلة النهائية من هذا العرض: أنّ من أوائل دور الزهراء عليها السلام في تكامل البشرية أنها آية من الآيات المبرزة لعظمة الخالق عزوجل والمشيرة إليه، وهي حجة على الناس وهاديه لهم في دينهم ودنياهم كالأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهي الوسط الطاهر الذي تولّد منه السبطان الحسنان عليهم السلام، ومن ثم تفرّعت منه غصون الأئمة عليهم السلام من بعدهما، وهي العلامه المقوّية والمدعّمة لمقام الإمام الكبير.

أدوار أخرى مشرقة

بالرغم من كون المسؤولية السالفة -الملاقاة على عاتق فاطمة عليها السلام - كافية لوحدها في تقديم المخير والرفعة والسعادة إلى الناس إلا أنّ للزهراء عليها السلام أيضاً بصمات أخرى مشرقة ومؤثرة في هذا الصدد غير ما ذكر، أو يمكن عدّها - المسؤولية الآنفة - مذكورة بنحو الإجمال، وبالإمكان الإشارة إلى غاذج تنحدر عنها بنحو التفصيل، وعلى كلا التقديرين فقد سجّل لنا التاريخ وأرباب السير مجموعة من الأدوار التي نهضت بها الزهراء عليها السلام وكان لها الأثر الإيجابي في تقدّم البشرية -نعم ربما أشاح البعض بصره عنها وغفل أو تغافل عن الاستضاءة

بهديها، ولكن القصور أو التقصير هذا لا يُوجِب تغييرًا في طبيعتها الإيجابية، بل يكشف عن عدم قابلية القابل للاستفادة من بركاتها، نشير إلى شطرين منها:

أولاً:- أنها عليها السلام تمثل علامَةً وشاهداً لمعرفة الحق من الباطل:

من أصعب الحالات التي تمر على الإنسان المؤمن والباحث عن الحقيقة هي التي يكون فيها تكليفه محاطاً بنوعٍ من الغبش والغموض وهالةٍ من الضبابية في الطريق، فلا يهتدي لتمييز الحق من الباطل، فلربما ينهاج نهج الباطل على أنه الصواب والمطلوب وينأى عن صراط الحق ظنّاً منه أنّ عاقبته الغواية والضلال، فلا غرو أنّ الحصول على علامَةٍ فارقةٍ لا تُخطئ التمييز، وتدلّ بوضوح على سبل الخير، وتفصله عن عداه بدون اشتباه وتردد - يرفع بها حيرته هي أعظم خدمةٍ يرتجيها.

وقد كانت الزهراء عليها السلام واحدة من علامات الهدى التي تُنشد عند التباس الأمور، بل إنّ أحد معاني وأسرار اصطفاء الله تعالى لها هو هذا، فكلّما شك الناس أو تخسّروا في فعلٍ أو موقفٍ أو اعتقادٍ وما شابه تكون هي سلام الله عليها الجهة التي ترفع عنهم ريبهم، وتعزّز فهم صوابهم من زيفهم، وهذا الأمر ليس غريباً بعد ثبوت عصمتها وأنّ رضا الله سبحانه ورضا رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه من رضاها، وهو مفاد حديث الثقلين الذي ورد بعده صيغ متقاربة، كالذى رواه أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إني تارك فيكم أمرين» أحدهما أطول من الآخر، كتاب الله عزّ وجلّ حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف ييد الله، وعترتي، ألا وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»^(٣٠).

وكما جاء عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النّضر بن سعيد، عن يحيى الحلبي، عن بريد بن معاوية، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في خطبة يوم الجمعة - الخطبة الأولى -: «... وَالْزَمُوا كِبَابَهُ؛ فَإِنَّهُ

أَبْلَغُ الْمَوْعِظَةَ وَخَيْرُ الْأُمُورِ فِي الْمَعَادِ عَاقِبَةً، وَلَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ الْحُجَّةَ فَلَا يَهْلُكُ مَنْ هَلَكَ إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلَا يَحْيَى مَنْ حَيَ إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ، وَقَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ، فَالْأَلْزَمُوا وَصِبَّتُهُ وَمَا تَرَكَ فِيْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ النَّقْلَيْنِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ الَّذِيْنِ لَا يَضِلُّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِمَا وَلَا يَهْتَدِي مَنْ تَرَكَهُمَا»^(٣١).

ولا توقف في كونها سلام الله عليها من العترة، وقد ورد عن أنس بن مالك: صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الفجر، فلما انقتل من صلاته أقبل علينا بوجهه الكريم فقال: «مَعَاشِرَ النَّاسِ مَنْ افْتَقَدَ الشَّمْسَ فَلَيَتَمَسَّكْ بِالْقَمَرِ وَمَنْ افْتَقَدَ الْقَمَرَ فَلَيَتَمَسَّكْ بِالزُّهْرَةِ وَمَنْ افْتَقَدَ الزُّهْرَةَ فَلَيَتَمَسَّكْ بِالْفَرْقَدَيْنِ»، قيل يا رسول الله ما الشمس والقمر والزهرة والفرقدان؟ فقال: «أَنَا الشَّمْسُ وَعَلَيَّ الظِّلُّ الْقَمَرُ وَفَاطِمَةُ الْزُّهْرَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ الْفَرْقَدَانِ وَكِتَابُ اللَّهِ لَا يَفْتَرِقُ إِنْ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ»^(٣٢)، وبنقل آخر عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده عَلَيْهِ السَّلَامُ عن جابر الأنصاري: صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوْمًا صلاة الفجر... فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَنَا بِمَنْزِلَةِ نُجُومِ السَّمَاءِ كُلُّمَا غَابَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ فَإِنَّا الشَّمْسُ فَإِذَا ذَهَبَ بِي فَتَمَسَّكُوا بِالْقَمَرِ... ثُمَّ مَكَثَ مَلِيًّا فَقَالَ هَوْلَاءِ وَفَاطِمَةُ وَهِيَ الْزُّهْرَةُ عِترَتِي وَأَهْلُ بَيْتِي هُمْ مَعَ الْقُرْآنِ لَا يَفْتَرِقُانِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضُ»^(٣٣).

ثانيًا:- أنها عَلَيْهِ السَّلَامُ مصدرٌ من مصادر التشريع الإسلامي:

وذلك بحكم كونها أحد المعصومين عَلَيْهِ السَّلَامُ المفترضة طاعتهم، فيصبح قولهما وفعلها وتقديرها حجة علينا، ولكن المأسوف له أن المقدار الواصل إلينا من روایاتها التشريعية أو الناقلة لتشريع من جهتها ليس بالحجم الملحوظ والملازم لوقعها، ويعدّ هذا من مؤشرات وعلامات بخسها حقّها ومظلوميتها في هذه الدنيا.

ومن باب التمثيل، نورد النماذج التالية:

أ- ما ورد حول الستر في الصلاة عن الفضيل، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال:

«صَلَّتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا الْكَلَامُ فِي دِرْعٍ وَخَمَارًا عَلَى رَأْسِهَا لَيْسَ عَلَيْهَا أَكْثُرُ مِمَّا وَارَتْ بِهِ شَعْرَهَا
وَأَذْنِيهَا»^(٣٤).

بـ- ما جاء حول صلوات المسألة وال الحاجة عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله الصادق ع عليهما السلام قال: «كَانَ لَأُمِّي فَاطِمَةَ عَلَيْهَا صَلَوةً تُصْلِيْهَا عَلَمَهَا جَرْبَيْلُ عَلَيْهِ،
رَكِعَتَانِ تَقْرَأُ فِي الْأُولَى الْحَمْدَ مَرَّةً وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مائَةً مَرَّةً، وَفِي الثَّانِيَةِ
الْحَمْدَ مَرَّةً وَمِائَةً مَرَّةً قُلْ هُوَ اللَّهُ، فَإِذَا سَلَّمَتْ سَبَّحَتْ تَسْبِيحَ الطَّاهِرِ عَلَيْهِ...»^(٣٥).

جـ- ما ذكر حول المضخ والتذوق للطعام حال الصيام عن مساعدة بن صدقه،
عن أبي عبد الله ع عليهما السلام قال: «إِنَّ فَاطِمَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا كَانَتْ تَمْضِيْعَ لِلْحَسَنِ ثُمَّ
لِلْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَهِيَ صَائِمَةٌ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ»^(٣٦).

ثالثاً:- إنها ع عليهما السلام معلمة ومرشدة للأجيال:

ورد عن الأمير ع عليهما السلام: «زَكَاةُ الْعِلْمِ بِذَلِكَ مُسْتَحْقَهُ وَاجْهَادُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِ بِهِ»^(٣٧)،
وفي رواية طلحة بن زيد عن أبي عبد الله ع عليهما السلام قال: «قَرَأَتْ فِي كِتَابِ عَلَيِّ عَلَيْهِ إِنَّ
اللَّهَ لَمْ يَأْخُذْ عَلَى الْجَهَالِ عَهْدًا بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا بِيَذْلِيلِ الْعِلْمِ
لِلْجَهَالِ لِأَنَّ الْعِلْمَ كَانَ قَبْلَ الْجَهَلِ»^(٣٨).

والزهراء ع عليهما السلام وهي العالمة التي تنحدر منها المعارف كانت سبّاقة في هذا
الميدان، وكانت مهمّة التعليم وإرشاد الناس من أولويّات أعمالها، وقد كايدت فيها
البناء الشديد، وبالرغم من قصر عمرها الشريف إلا أنها تركت موروثاً نفعاً به
جميع المسلمين إلى يومنا هذا، ولم يكن أسلوب تبليغها يقتصر على منوال واحد،
بل اتّخذت عدّة أنمطاً، نشير إلى ثلاثة منها:

النمط الأول: كانت لديها حلقة وصل مباشر مع النساء، وتقوم بتعليمهن
وظائفهن الدينية وسائر المعارف الأخرى، حتى أنّ الرسول ﷺ إذا أراد أحياناً
أن يبلغ حكماً خاصاً يتعلق بهنّ يأمر ابنته الطاهرة ع عليهما السلام بتبليغه لهنّ، فعن

علي عن أبيه عن ابن أبي عمر عن ابن أذينة عن زراره قال: سالت أبا جعفر عليه السلام عن قضاء الحائض الصلاة ثم تقضي الصوم قال: «لَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تَقْضِي الصَّلَاةَ وَعَلَيْهَا أَنْ تَقْضِي صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ»، ثم أقبل علي وقال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْمُرُ بِذَلِكَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَكَانَتْ تَأْمُرُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنَاتِ»^(٣٩). وكانت مرجعاً ترجع إليها النساء في الإجابة عن أسئلتهن وفض خصوماتهن، فعن أبي محمد العسكري عليه السلام: «قَالَتْ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَقَدْ اخْتَصَّ إِلَيْهَا امْرَأَانِ فَتَنَازَعَتَا فِي شَيْءٍ مِّنْ أَمْرِ الدِّينِ إِحْدَاهُمَا مَعَانِدَةً وَالْأُخْرَى مُؤْمِنَةً فَفَتَحَتْ عَلَى الْمُؤْمِنَةِ حُجَّتَهَا فَاسْتَطَعَهَا عَلَى الْمُعَانِدَةِ فَفَرَحَتْ فَرَحاً شَدِيداً فَقَالَتْ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ إِنَّ فَرَحَ الْمَلَائِكَةِ بِاسْتِظْهَارِكِ عَلَيْهَا أَشَدُّ مِنْ فَرَحِكِ وَإِنَّ حُزْنَ الشَّيْطَانِ وَمَرْدِتِهِ بِحُزْنِهَا أَشَدُّ مِنْ حُزْنَهَا»^(٤٠).

ولا تضجر وتمل من كثرة المراجعات أو كثرة الأسئلة، بل تحبيب بكل مودة واعطف، وتعتنى بحال السائل و حاجته، وقد أثر حول هذا المعنى:

ما عن الإمام العسكري عليه السلام: «حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقالت: إن لي والدة ضعيفة، وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء وقد بعشتني إليك أسائلك»، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك فقلت فأجبت ثم ثلت إلى أن عشرت فأجابت ثم خجلت من الكثرة فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة: هاتي وسلبي عمما بدا لك، أرأيت من أكثرني يوما يصعب إلى سطح بحمل ثقيل وكره مائة ألف دينار يقلل عليه؟ قالت: لا، فقالت: أكثرت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الشري إلى العرش لؤلؤا، فآخرى أن لا يقل على، سمعت أبي عليه السلام يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله ...»^(٤١).

النمط الثاني: كان لديها مؤلف ضخم يسمى بـ (مصحف فاطمة) يحتوي على علم ما يكون، ويعد من مخازن علم الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وهو وإن كان محفوظاً

عندهم عليهم السلام ولا يخرج لامة الناس لأسباب خاصة، ولكنهم عليهم السلام يحتاجون به ويستشهدون بما فيه فـيـنـتـفـعـ به العـبـادـ بـطـرـيقـ غيرـ مـباـشـ.

والروايات حول بيان وتوصيف هذا المصحف كثيرة، من جملتها:

ما ذكره أبو بصير عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «... وَإِنْ عَنِّدَنَا لِمُصْحَّفَ فَاطِمَةَ عليها السلام، وَمَا يُذْرِيهِمْ مَا مُصْحَّفُ فَاطِمَةَ عليها السلام»، قال قـلـتـ: وـمـاـ مـصـحـفـ فـاطـمـةـ عليها السلام? قال: «مـصـحـفـ فـيـهـ مـثـلـ قـرـآنـكـمـ هـذـاـ ثـلـاثـ مـرـاتـ وـالـلـهـ مـاـ فـيـهـ مـنـ قـرـآنـكـمـ حـرـفـ وـاحـدـ»، قال قـلـتـ: هـذـاـ وـالـلـهـ الـعـلـمـ، قال: «إـنـهـ لـعـلـمـ وـمـاـ هـوـ بـذـاكـ...»^(٤٢).

وجاء عن فضيل بن سـكـرـةـ: دـخـلـتـ عـلـىـ أـبـيـ عـبـدـ اللـهـ عليه السلام فـقـالـ: «يـأـ فـضـيـلـ أـنـدـرـيـ فـيـ أـيـ شـيـءـ كـنـتـ أـنـظـرـ قـيـلـ»، قال، قـلـتـ: لا، قال: «كـنـتـ أـنـظـرـ فـيـ كـتـابـ فـاطـمـةـ عليها السلام لـيـسـ مـنـ مـلـكـ يـمـلـكـ الـأـرـضـ إـلـاـ وـهـوـ مـكـتـوبـ فـيـ بـاسـمـ وـاسـمـ أـيـهـ وـمـاـ وـجـدـتـ لـوـلـدـ الـحـسـنـ فـيـهـ شـيـئـاـ»^(٤٣).

وـحـولـ تـأـلـيـفـ الـكـتـابـ وـرـدـ عـنـ حـمـادـ بـنـ عـشـمـانـ، سـمعـتـ أـبـيـ عـبـدـ اللـهـ عليه السلام يـقـولـ: «قـظـهـرـ الزـنـادـقـةـ فـيـ سـنـةـ ثـمـانـ وـعـشـرـينـ وـمـائـةـ وـذـلـكـ أـنـيـ نـظـرـتـ فـيـ مـصـحـفـ فـاطـمـةـ عليها السلام»، قال، قـلـتـ: وـمـاـ مـصـحـفـ فـاطـمـةـ؟ قال: «إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ لـمـاـ قـبـضـ نـيـهـ عـلـىـهـ وـلـهـ دـخـلـ عـلـىـ فـاطـمـةـ عليها السلام مـنـ وـفـاتـهـ مـاـ لـاـ يـعـلـمـهـ إـلـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ، فـأـرـسـلـ اللـهـ إـلـيـهـ مـلـكـ يـسـلـيـ غـمـهـ وـيـحـدـثـهـ فـشـكـتـ ذـلـكـ إـلـىـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عليه السلام، فـقـالـ: إـذـاـ أـخـسـسـتـ بـذـلـكـ وـسـمـعـتـ الصـوتـ قـوـلـيـ لـيـ فـأـعـلـمـتـ بـذـلـكـ، فـجـعـلـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عليه السلام يـكـبـ كـلـ مـاـ سـمـعـ حـتـىـ أـثـبـتـ مـنـ ذـلـكـ مـصـحـفـاـ»، قال ثـمـ قـالـ: «أـمـاـ إـنـهـ لـيـسـ فـيـهـ شـيـءـ مـنـ الـحـلـالـ وـالـحرـامـ وـلـكـنـ فـيـهـ عـلـمـ مـاـ يـكـوـنـ»^(٤٤).

وبـرـوـايـةـ أـخـرىـ عـنـ أـبـيـ عـبـيدـةـ عـنـ إـلـيـمـ الصـادـقـ عليه السلام: «... إـنـ فـاطـمـةـ مـكـتـ بـعـدـ رـسـوـلـ اللـهـ عليه السلام خـمـسـةـ وـسـبـعـينـ يـوـمـاـ، وـكـانـ دـخـلـهـاـ حـزـنـ شـدـيدـ عـلـىـ أـيـهـاـ، وـكـانـ جـرـئـيـلـ عليه السلام يـأـتـهـاـ فـيـحـسـنـ عـزـاعـهـاـ عـلـىـ أـيـهـاـ وـيـطـيـبـ نـفـسـهـاـ وـيـخـبـرـهـاـ عـنـ أـيـهـاـ وـمـكانـهـ وـيـخـبـرـهـاـ بـمـاـ يـكـوـنـ بـعـدـهـاـ فـيـ ذـرـيـتـهـاـ وـكـانـ عـلـىـ عليه السلام يـكـبـ ذـلـكـ فـهـذـاـ مـصـحـفـ

النمط الثالث: كانت لديها البلاغة وقوّة البيان والملكة في الخطابة والتأثير، فتصف المعاني العميقية بأجزل العبارات وأحكامها، وكم من خطبة لها حوت على سلسلة متكاملة منتظمة من رؤوس الأفكار والمطالب حول قضيّة من القضايا أو علمٍ من العلوم، بحيث تشكّل بمجموعها دوحة من المعارف تغترف منها الأجيال. وأوضح مثالٍ على ذلك خطبها الشهيرة التي وجهتها إلى المهاجرين والأنصار لـماً منعت من فدك، فبالإضافة إلى تضمنها للاحتجاج والمطالبة بحقّها وبالإمامية اشتملت على جولة بدّيعة -وبنتهي اللطافة والدقة العلمية- لعوائد الإسلام، وربّت بشكّلٍ منطقىٍ ومتتابعٍ، فبدأت بعد التسبيح والتحميد- بفصولٍ ومعانٍ التوحيد، ثم منه استدرّجت الكلمات إلى المعاد وأجلّى سماته وأهدافه، وثُلّت بذكر النّبوة ورسالة الخاتم عليه السلام، وبعدها أثيرت مسألة الإمامية والمحجة الائقة بالخلافة.

فالزّهراء عليها السلام وهي في ظرف الخطبة الصّعب والخطير، لم يفتّها توصيل الأمانة والرسالة إلى الأئمّة بكلّ قوّة وفتّوة، وبقت كلماتها دستوراً عقائدياً ومنهجاً أصيلاً يتردّد مداه وصداه إلى يومنا هذا وأكثر، ورب خطبة واحدة تعده دروساً وتحتلّ كتبًا ومجلدات لـما لها من البلاغة والتأثير والوقع في النفوس.

والخطبة طويلة، ولكن للوقوف على عظمتها ودورها المصيري المهم لا بأس بذكر مقاطع من شطرها الأوّل، وسيكون من سندتها^(٤٦) المروي عن زيد بن علي عليه السلام عن عمّته زينب بنت الحسين عليها السلام:

أنّه لـما بلغَ فاطمة عليها السلام إجماعُ أبيه بـكِرٍ عَلَى مَنْعِهَا فَدَكَ لَا شَدَّ خِمَارَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَخَرَجَتْ فِي حَشَدَةِ نِسَائِهَا وَلَمَّا مِنْ قَوْمِهَا، تَجْرُّ أَدْرَاعَهَا، مَا تَحْرِمُ مِنْ مِشِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام شَيْئاً، حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِيهِ بَكْرٍ وَهُوَ فِي حَشَدٍ مِنْ

المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَأَتَتْ أَنَّهَا أَجْهَشَ لَهَا الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ، فَلَمَّا سَكَنَتْ فُورًا تَهَمَّ
قَالَتْ: «أَبْدًا بِحَمْدِ اللَّهِ» ثُمَّ أَسْبَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ سُجْفًا ثُمَّ قَالَتْ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أَلْهَمَ، وَالثَّنَاءُ بِمَا قَدِمَ مِنْ عُمُومٍ نِعْمَ
ابْتَدَأَهَا، وَسُبُوغُ الْأَلَاءِ أَسْدَاهَا، وَإِحْسَانُ مِنْ وَالآهَا، جَمْعُ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدْدُهَا، وَنَائِي عَنِ
الْمُجَازَةِ أَمْدُهَا، وَتَفَاقَوْتَ عَنِ الْإِدْرَاكِ آمَالُهَا، وَاسْتَشَنَّتِي الشُّكْرُ بِفَضَائِلِهَا، وَاسْتَحْمَدَ إِلَى
الْخَلَاتِقِ يَاجِزُوهَا، وَثَنَى بِالنَّذْبِ إِلَى أَمْتَلِهَا، وَأَشَهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلْمَةُ جَعْلِ
الْإِخْلَاصِ تَأْوِيلَهَا، وَضُمِّنَ الْقُلُوبُ مَوْصُولَهَا، وَأَنَارَ فِي الْفَكْرَةِ مَعْقُولُهَا، الْمُمْتَنَعُ مِنْ
الْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهَامِ الْإِحْاطَةُ بِهِ، ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءُ لَا مِنْ شَيْءٍ قَبْلُهُ، وَاحْتَذَاهَا بِلَا
مَثَالٍ لِغَيْرِ فَائِدَةِ زَادَتْهُ، إِلَّا إِظْهَارًا لِقُدرَتِهِ، وَتَعَدَّا لِبَرِيَّتِهِ، وَإِعْزَازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ
الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْعَقَابَ عَلَى مُعْصِيَتِهِ، زِيادةً لِعِبَادَهُ عَنْ نَقْمَتِهِ، وَحِيَاشًا لِهُمْ إِلَى
جَهَنَّمَ، وَأَشَهَدُ أَنَّ أَبِي حَمْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتَارَهُ قَبْلَ أَنْ يَجْتَبِلَهُ، وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ
ابْتَعَثَهُ، وَسَمَاهُ قَبْلَ أَنْ اسْتَجْبَهُ،...».

ثُمَّ قَبَضَ اللَّهُ نَبِيُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِبْضَ رَافَةِ وَاحْتِيَارِ، رَغْبَةً بِأَبِي عَلَيْهِ السَّلَامِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ،... .
ثُمَّ أَتَتْهُمْ عِبَادُ اللَّهِ تُرِيدُ أَهْلَ الْمَجْلِسِ نُصْبُ أَمْرِ اللَّهِ وَتَهْيَهُ، وَحَمْلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ،
وَأَمْنَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبَلَاغُوهُ إِلَى الْأَمْمِ، زَعَمْتُمْ حَقَّ لَكُمُ اللَّهُ فِيْكُمْ عَهْدَ قَدَّمْتُمْ
إِلَيْكُمْ، وَنَحْنُ بَقِيَّةُ اسْتَخْلَفْنَا عَلَيْكُمْ، وَمَعَنَا كِتَابُ اللَّهِ، بَيْنَهُ بَصَارُهُ، وَآيَ فِيْنَا مُنْكَشِفَةُ
سَرَائِرُهُ، وَبُرْهَانُ مُنْجَلِيَّةِ ظَواهِرُهُ،... .

فَفَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيرًا لَكُمْ مِنَ الشَّرِّ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهًا عَنِ الْكُبْرِ، وَالصَّيَامَ تَبْيَاتًا
لِلْإِخْلَاصِ، وَالزَّكَاةَ تَرْبِيَاتًا فِي الرِّزْقِ، وَالْحَجَّ تَسْلِيَةً لِلَّدَنِينِ، وَالْعَدْلَ تَنْسُكًا لِلْقُلُوبِ،
وَطَاعَتُنَا نِظامًا لِلْمُلْمَةِ، وَإِمَامَتُنَا لَمَّا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَحُبِّنَا عَزًّا لِلْإِسْلَامِ...»^(٤٧).

ويشهد إلى ذلك أيضاً خطبتها التي وجهتها إلى نساء المهاجرين والأنصار عند
مرضها^(٤٨)، وكانت رسالةً واضحةً منها على لسانها لإلقاء الحجة عليهم وعلى الملا أجمع،
وبهَا تكون قد علمت الناس تكليفهم وصححت لهم عقيدتهم.

رابعاً - أنها عليهن قدوة في السلوك المعنوي:

تعد فاطمة الزهراء سلام الله عليها واحدة من العباد وأهل الرزق والتقوى والإخلاص، وكانت مضرب مثل في الصدق والطهارة المعنوية، ويعرف ذلك الداني والقاصي، حتى ذكرها أن عائشة كانت تقول: "ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها"^(٤٩)، وتردد عن الحسن البصري: "ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتى ترمي قدماها"^(٥٠).

ولذا كانت عليهن أسوة حسنة يقتدي بها، وترتاح النفوس التائقة للتشبه بسيرتها، ويتأثر بسلوكيها الناس بدون عناء وتكلف ولو لم تكن في البين موظفة ودعوة ترشدهم إلى ذلك، والسر الكامن وراء هذا التأثير الساحر والآخذ بجماع القلوب أنه خرج من القلب فلا يقر إلا في القلب، وأنه انطلق بصدق فلا يستقبل إلا بثله، وأنه نابع من نفس لم تأمر الناس بالتعبد والتلذخ بالطاعات قبل أن تبدأ من داخلها، ومعلوم أن النصيحة بالمعروف لا تجد طريقها إلى الصدور إذا انبعثت من قلب لا غير مؤمن به أو مطبق لصاديقه.

وشواهد السلوك المعنوي لفاطمة رضوان الله عليها متعددة ومتسللة في كل مجالات حياتها، بل لنا أن نقول: بأن جميع أفعالها ونياتها وتصرفاتها هي تقرب وعرفان وسمو معنوي نحو الله سبحانه وابتعاده مرضاته، فالعاشق للرب الجميل يفعل كل شيء من أجله، ويستند بالعمل الذي يزيده زلفاً ووصالاً بعشوقه، ومن هذا الباب تميزت الزهراء عليهن عمن سواها ونالت سيادة الأولين والآخرين - مع أبيها وبعلها وصفوة بناتها صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وكانت المنتجبة والمصطفاة من النساء على الإطلاق، ولكن بما أن هذا البحث القصير ليس معقوداً للاستقصاء الشامل والحصر فنشير إلى عدة عناوين وأمثلة في المقام:

١- الانقطاع والتوجّه بحضور في الصلاة:

لأنّها عليها تفقه أنّ أعظم التذلل هو حال الركوع والسجود، فإذا انتصبت في محرابها تلائلاً بهاً ونوراً من خشية الله، وكان يُرى أثر ذلك عياناً فيتأثر بها من كان حولها.

وسمّيت عليها بالزّهراء لهذا الأمر، حيث ورد عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه: سألت أبي عبد الله عليه السلام عن فاطمة لم سُمِّيَتْ زَهْرَاءً (الزّهراء) فقال: «لأنّها كانت إذا قَاتَتْ في محرابها زَهْرَ نُورُهَا لِأهْلِ السَّمَاءِ كَمَا يَزَهِرُ نُورُ الْكَوَافِرِ لِأهْلِ الأَرْضِ»^(٥١).

كما روي عن أبان بن تغلب: قلت لأبي عبد الله عليه السلام يا ابن رسول الله لم سُمِّيت الزّهراء زهراء؟ فقال: «لأنّها تَزَهَّرُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي النَّهَارِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ بِالنُّورِ، كَانَ يَزَهِرُ نُورُ وَجْهِهَا صَلَةُ الْغَدَاءِ وَالنَّاسُ فِي فِرَاشِهِمْ فَيَدْخُلُ بِيَاضِ ذَلِكَ النُّورِ إِلَى حُجَّرَاتِهِمْ بِالْمَدِينَةِ فَتَبَيَّضُ حِيطَانُهُمْ فَيَعْجِبُونَ مِنْ ذَلِكَ فَيَأْتُونَ النَّبِيَّ عليه السلام فَيَسْأَلُونَهُ عَمَّا رَأَوْا فَيَرِسُلُهُمْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ عليها السلام فَيَأْتُونَهَا مُنْزَلَهَا فَيَرَوْنَهَا قَاعِدَةً فِي محرابها تُصَلِّي وَالنُّورُ يَسْطُعُ مِنْ محرابها مِنْ وَجْهِهَا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي رَأَوْهُ كَانَ مِنْ نُورِ فَاطِمَةَ، فإذا انتصفَ النَّهَارِ وَتَرَبَّتْ لِلصَّلَاةِ زَهْرَ نُورُ وَجْهِهَا عليها بِالصُّفَرَةِ فَتَدْخُلُ الصُّفَرَةِ فِي حُجَّرَاتِ النَّاسِ ... فَإِذَا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ وَغَرَبَ الشَّمْسُ احْمَرَ وَجْهُ فَاطِمَةَ فَأَشْرَقَ وَجْهُهَا بِالْحُمْرَةِ فَرَحَا وَشُكِّرَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَكَانَ تَدْخُلُ حُمْرَةَ وَجْهِهَا حُجَّرَاتِ الْقَوْمِ وَتَحْمَرُ حِيطَانُهُمْ فَيَعْجِبُونَ مِنْ ذَلِكَ ...»^(٥٢).

٢- إحياء الليل بالصلوة والدعاء والعبادة:

فلم يقتصر عشقها للصلوة والابتهاج أثناء الفرائض، بل كان لها موعد آخر أيضاً مع النوافل الليلية المزوجة بالإلحاح والمسألة والذكر والدعاء، حيث ورد عن عبادة الكلبي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن

فاطمة الصغرى عن الحسين بن عليٌّ عن أخيه الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال: «رأيتُ أمي فاطمة عليها السلام قاتَتْ في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضحت عمود الصبح وسمعتها تدعوا للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدع لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أماه، لم لا تدع لنفسك كما تدعين غيرك؟ فقالت: يابني، الجار ثم الدار»^(٥٣).

والمفت في هذه الرواية العظيمة أن فاطمة عليها السلام كانت وهي تتنفل بعباداتها برأيٍّ وسمع من ابنها الإمام الحسن عليهما السلام - أو بعيّة باقي الأبناء - وهو أسلوبٌ تربويٌّ راقٌ في تعليم الأبناء وزرع روح العبادة في قلوبهم، خاصةً أنها دعت كثيراً وسمّت المؤمنين بأسمائهم و حاجاتهم وقدّمتهم على نفسها مما استرعى ملاحظة واهتمام ابنها واستفهمته، وهذا يعدّ إنجازاً لها على مستوى ذاتها وأبنائها وذويها وجيئتها، بل وسائر المؤمنين والمؤمنات، ويدل على سعة بعدها الاجتماعي وارتباطها بالناس والتعرّف على أحوالهم و حاجاتهم عن قرب، وبالدرجة التي تokinها من الدعاء لهم كل بحسبه وطبيعة مسأله.

٣- الإخلاص والتfanي والإيثار:

الإخلاص شيمة أفضـل الناس، وعبادة المقربـين، وأشرف نهـاية - كما أثـر عن الأمـير عليهما السلام^(٥٤) -، ويوزـن المرء على قدر نـيـته وسريرـته في العمل، والإـيثـار لا يـكون كذلك إـلـم يـجـامـعـ الخـلوـصـ والـصـفـاءـ عـنـ الـكـدرـ، وـالتـفـانـيـ وـالتـضـحـيـةـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ تعالىـ لاـ يـرـادـ بـهـ غـيرـهـ - هيـ إـيـثارـ خـالـصـ.

وفي رواية الكافي عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليهما السلام في قول الله عزوجل: «ليبلوكم أثيكم أحسن عملاً» قال: «ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة»، ثم قال: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تُريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزوجل

وَجَلٌ، وَالنِّيَةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، أَلَا وَإِنَّ النِّيَةَ هِيَ الْعَمَلُ ...»^(٥٥).

والزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا بَشَّارَهُ بِهَذَا الشَّأنَ مَدْرَسَةً لَوْحِدَهَا، وَلَذَا اسْتَطَاعَتْ بِعُمُرِهَا الْقَصِيرِ أَنْ تَنْجُزَ عَمَلاً لَا تَسْعَهُ السَّنُونُ وَالْعَصُورُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَا عَلَيْهَا مِنْ نِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَإِيتَارٍ تَضْحُويًّا شَامِخٌ غَيْرَ تَصْدِيقَهَا عَلَى الْمُسْكِينِ وَالْيَتَيمِ وَالْأَسِيرِ - وَهِيَ صَائِمَةٌ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مَعَ بَعْلَهَا وَأَبْنَائِهَا عَلَيْهَا - لِكَفِيَ ذَلِكَ فِي وَصْوَلِهَا إِلَى مَعَالِيِ الْكَمَالَاتِ وَالْفَضَائِلِ، كَيْفَ وَقَدْ انْصَهَرَ الْخَلُوصُ وَالنَّقَاءُ بِسَائِرِ أَعْمَالِهَا وَانْدَكَّ وَفَنَّ بِكُلِّ كِيَانِهَا حَتَّى بَدِيَ شَيْئًا وَاحِدًا.

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مُسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٥٦)، وَيُشَيرُ الطَّبَرَسِيُّ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ حَوْلَ هَذَا الإِطَّعَامِ: "(وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) أَيْ عَلَى حُبِّ الْطَّعَامِ، وَالْمَعْنَى: يَطْعَمُونَ الطَّعَامَ أَشَدَّ مَا تَكُونُ حاجَتُهُمْ إِلَيْهِ. وَصَفْهُمُ اللَّهُ سَبَعَانُهُ بِالْأَثْرَةِ عَلَى أَنفُسِهِمْ.

... (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) أَيْ لِتَطْلُبِ رِضَا اللَّهِ خَالِصًا لِلَّهِ، مَخْلُصًا مِنَ الرِّيَاءِ، وَتَطْلُبُ الْجَزَاءَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (لَا نَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) وَهُوَ مَصْدُرُ مِثْلِ الْقَعْدَةِ وَالْجَلوْسِ. وَقَوْلُهُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكُلُّمُوا بِذَلِكَ، وَلَكِنْ عِلْمُ اللَّهِ سَبَعَانُهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ، لِيَرْغَبُ فِي ذَلِكَ الرَّاغِبِ...^(٥٧).

٤- الصَّبْرُ وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ ذِيَّلَهُ

وَهُمَا أَيْضًا مِنَ الصَّفَاتِ التَّبَيِّنَةُ الْمُوجَبَةُ لِزِيَادَةِ الرَّصِيدِ الْمَعْنُوِيِّ لِلْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ، فَبِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَأْتِي مِنْ قَبْلِ الْمُشَيْئَةِ وَالْقَضَاءِ وَالتَّقْدِيرِ الْإِلَهِيَّينِ يُسَجِّلُ الْعَبْدُ تَغْوِيْضَ أَمْرِهِ لِرَبِّهِ مِنْ دُونِ اعْتِرَاضٍ، وَبِالرِّضَا يَرْتَقِي أَيْضًا إِلَى مَنْزِلَةِ أَعْلَى، فَيُصْبِحُ صَبْرُهُ عَنْ هَدْوَءِ بَالٍ وَشَعُورِ الْمُرْأَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالسَّعَادَةِ، لَأَنَّهُ بَعْنَ اللَّهِ وَلَلَّهُ وَعَلَى الصَّادِرِ مِنْ جَهَةِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ.

وتتعدد الشواهد على ذلك من حياة الصديقة الطاهرة عليها السلام، فمن صغرها رأت ما جرى على أبيها من أذية القوم، وما تبعه ولازمه من المعارك والغزوات، ثم تجرّعت الغصة والداهية العظمى بعد رحيله عليه السلام، وكانت حادثة كشف الدار وانتزاع الوصاية وغير ذلك من المواقف الأليمة والصعبة التي تهدى الركن وتُزلزل الجنان، ولكن بإزاء هذا كله لم يسجل لنا التاريخ أنها عليها السلام فقدت صوابها وإيمانها تحت شيء مما تقدم، بل على العكس، كانت تقابل محنها بالرضا بالقضاء والتسليم لإرادة الله سبحانه -طبعاً هذا لا يعني تنازلاً عن حقها أو استسلامها لمنطق الجائرين والمتربيين بالدين ورجالاته - وتحتسبه ضرباً من ضروب العبادة وألوان الطاعة.

روي عن عيسى بن داود النجاشي عن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال:

«جَمِيعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْيَ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَنَ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الْبَابَ، وَقَالَ: يَا أَهْلِي وَأَهْلَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامُ، وَهَذَا جَبَرِيلٌ مَعَكُمْ فِي الْبَيْتِ يَقُولُ: إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ عَدُوكُمْ لَكُمْ فِتْنَةً فَمَا تَقُولُونَ؟ قَالُوا: نَصِيرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأْمَرَ اللَّهُ وَمَا نَزَلَ مِنْ قَضَائِهِ حَتَّى نَقْدِمَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَسْتَكْمِلَ جَزِيلَ ثَوَابِهِ فَقَدْ سَمِعْنَا يَدُ الصَّابِرِينَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى سَمِعَ نَحْيَهُ مِنْ خَارِجِ الْبَيْتِ فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ۝ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ (٥٨) أَنَّهُمْ سَيَصْبِرُونَ، أَيْ سَيَصْبِرُونَ كَمَا قَالُوا (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) ۝ (٥٩).»

وروي عن أبي الورد بن ثامة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال لرجل من بني سعد: «أَلَا أَحَدُكُمْ عَنِي وَعَنْ فَاطِمَةَ الْزَّهْرَاءِ أَنَّهَا كَانَتْ عَنِي فَاسْتَقَتْ بِالْقَرْبَةِ حَتَّى أَتَرَ في صَدْرِهَا وَطَحَنَتْ بِالرَّحْيِ حَتَّى مَجَلَتْ يَدَاهَا وَكَسَحَتِ الْبَيْتِ حَتَّى اغْبَرَتْ بَيْابَانَهَا وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقَدْرِ حَتَّى دَكَنَتْ بَيْابَانَهَا فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضُرُّ شَدِيدٌ قَلْتُ لَهَا: لَوْ أَتَيْتِ أَبَاكِ فَسَأَتِهِ خَادِمًا يَكْفِيكِ حَرًّا مَا أَنْتِ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ فَأَتَتِ النَّبِيُّ عليه السلام

فوجدتْ عنده حُدَّاثاً فاستحيتْ فانصرفتْ فعلمَ عَلَيْهِ وَاللهُ أَنَّهَا قدْ جاءَتْ لِحَاجَةٍ فَغَدَا عَلَيْنا
وَنَحْنُ فِي لِحَافَنَا فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَسَكَنَتْنَا وَاسْتَحْيَيْنَا لِمَكَانَاتِنَا... فَقُلْنَا: وَعَلَيْكَ
السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْخُلْنِي، فَدَخَلَ وَجَلَسَ عَنْدَ رُعْوَسِنَا ثُمَّ قَالَ: يَا فَاطِمَةَ مَا كَانَتْ
حَاجَتُكَ أَمْسِيَّ عَنْدَ مُحَمَّدٍ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ تُجْبِهِ أَنْ يَقُومَ فَأَخْرَجْتُ رَأْسِيَ قَلْتُ أَنَا وَاللَّهِ
أَخْبُرُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا اسْتَقَتْ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثْرَ فِي صَدْرِهَا وَ... فَقَلْتُ لَهَا لَوْ أَتَيْتَ
أَبَاكَ فَسَأْلُهُ خَادِمًا يَكْفِيكَ حَرًّا مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ قَالَ: أَفَلَا أَعْلَمُكُمَا مَا هُوَ خَيْرٌ
لَكُمَا مِنَ الْخَادِمِ، إِذَا أَخْذَتُمَا مِنَّا مُكْمَنًا فَكَبِيرًا أَرْبِعًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرًا وَسَبْعًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ
تَسْبِيحةً وَاحْمَدًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً فَأَخْرَجْتُ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ رَأْسَهَا وَقَالَتْ: رَضِيتُ عَنِ
اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ رَضِيتُ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ»^(٦٠).

٥- الاهتمام بالعفة والحجاب:

جاء في رواية موسى بن إسماعيل عن أبيه عن الإمام موسى الكاظم عن أبيه
عن جده عن علي بن الحسين ع عليهما السلام قال: «إِنَّ فاطمة بنت رسول الله ع عليهما السلام استأذن
عليها أعمى فحجبته، فقال لها النبي ع عليهما السلام: لم حجبته وهو لا يراك؟ فقالت: يا رسول
الله إن لم يراني فأنا أراه وهو يشم الريح، فقال النبي ع عليهما السلام أشهد أنك بضعة مني»^(٦١).

والقرآن عندما تحدث عن مريم ع عليهما السلام بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٦٢) ورد في حق فاطمة ع عليهما السلام مثله:

عن الحسن بن عبد الله الرازي التميمي قال: حدثني سيدتي علي بن موسى
الرضا ع عليهما السلام عن أبيه ع عليهما السلام عن علي بن أبي طالب ع عليهما السلام قال: «قال النبي ع عليهما السلام: إِنَّ
فاطمة أَحْصَنَتْ فرجَهَا فَحَرَمَ اللَّهُ ذُرِيْتَهَا عَلَى النَّارِ»^(٦٣).

وورد أيضاً عن داود بن فرقان عن أبي عبد الله ع عليهما السلام أنه قال: «وَمَرِيمَ ابْنَتَ
عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا هَذَا مِثْلُ ضربِهِ اللَّهُ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وقال: «إِنَّ فاطِمَةَ
أَحْصَنَتْ فرجَهَا فَحَرَمَ اللَّهُ ذُرِيْتَهَا عَلَى النَّارِ»^(٦٤).

خامساً:- إنها عليه أعطت صورةً مشرفةً للمرأة الناجحة:
بوصول الزهراء عليه إلى المراتب العالية جداً من الكمال تكون قد أوضحت رسالتين:

الرسالة الأولى: وهي موجّهة إلى الملاّجع، ومفادةها أنّ الوثوب إلى الدرجات المتقدّمة من التكامل والقرب الإلهيّين ليس حكراً على الرّجال فحسب - كما تقدّم بيان ذلك عند الإشارة إلى كونها عليه قدوةً للرّجال والنساء معاً، بل بقدر المرأة إذا جاهدت نفسها وحافظت على استقامتها وداومت على فروضها وطاعاتها أن تتقدّم أيضاً، وربما تناول السبق والتفوق على بعض الرّجال أحياناً.

الرسالة الثانية: وهي موجّهة إلى النساء بالدرجة الأولى، وحاصلها أنّ من أرادت السعادة والفوز والظفر والنجاح في حياتها فيإمكانها الاستثنان بسنة فاطمة عليه ودخول بوابة العلياء من نفس الباب الذي ولحت منه، لأنّ سنتها مضمون معها الوصول، وبوابتها مجرّبة، بخلاف الباقي يردن سلوك الطرق والمسارع الأخرى حيث إنّه من غير المعلوم وصوهلن، بل المعين هو ضلالهنّ وتعثرهنّ وعدم إصابتهنّ للدرب الصحيح إطلاقاً، وذلك لأنّ انتهاج نهج الزهراء عليه وهديها ليس أمراً اختيارياً يتترّب عليه جواز اتباع غيره، وإنما هو فرض وواجب الاتّباع كوجوب اتّباع الدين والشرع الإسلامي الأقدس، فعندما نقول: سنة الزهراء عليه، لا نرمي بها معنىًّا يغاير سنة الرّسول عليه وآله أو سنة القرآن، كيف وحديث الثقلين يطرق آذاننا ليلًّا نهار، وأنّ فاطمة عليه يرضى الله لراضها ويغضّب لغضبها، وغير ذلك من الأحاديث المتناظرة.

ثم إنّ فاطمة عليه لم يقتصر نجاحها في نطاق دون نطق، أو مرحلة دون مرحلة، بل اقترب النجاح والكمال معها في كلّ مفصلٍ من مفاصل حياتها، ولم يختلف سموّ روحها وعلوّ هامتها بتتّنقلها من حالٍ لآخر، وأعطت عليه في الجميع

صورةً مشرقةً وغودجاً فذاً للمرأة المثالية الكاملة.

فهي كبنت - قبل زواجها - كانت آيةً وأسوة للفتاة الفاضلة الحميدة والبرّة، وقد نابت أمها خديجة عائشة في الاهتمام بأبيها عليهما السلام حتى كنّت بأم أبيها.

وهي كزوجة شاركت مع بعلها عائشة في بناء بيت عائشة لم يبق شرفٌ وبركةٌ إلا وحلّت وعمّت بأرجائه، وقدّمت فيه معلم الزواج السعيد، وآداب العشرة، وتقسيم المهام والأدوار بين الزوجين بمنتهى الوئام والتعاون والانسجام، وكذلك الحال في أسلوب التربية الناجع والصحيح مع الأولاد.

وهي كامرأةٍ فاعلةٍ في المجتمع حدّدت وظائف المرأة المسلمة وموقعيتها بكل اقتدار، وساهمت في إثراء الساحة النسائية بالحضور في ميادينها المختلفة التي تنسجم مع النساء وتتناسب مع نظرة الإسلام لهن.

والخلاصة: إنَّ الزَّهْرَاءَ عائشةً مشروعٌ متكاملٌ لما تحتاجه المرأة في كلِّ أدوار الحياة ومنعطفاتها، بل لو قلنا: أنَّها عائشةً مشروعٌ متكاملٌ لكلِّ البشرية لما جافينا الحقيقة وجائبنا الواقع.

سادساً:- أنها عائشة باب للتوكيل واستجابة الدعاء:

للتوكيل بالأولياء والأبرار عائشة مغامن عديدة، منها قضاء الحاجة وطلب استجابة الدعوات والمسائل، ومنها التقرُّب إلى الله سبحانه باعتباره ضربٌ من أضراب العبادة، ومنها أيضاً التقرُّب إلى نفس شخصية الولي المستشفع به والذي هو متفرّعٌ عن التقرُّب السابق.

ومن الطبيعي أنَّ السالك للكمال يشعر في طول مسيره أنَّه بحاجة إلى ما يمدّه بالعون والتسديد والتأييد من الله سبحانه كي يوفقه للتغلب على المطبات والمزالق ووساوس الشيطان - وغيرها من الأمور - التي تعيقه عن التقدّم وتعترض سعيه في الطريق، باعتبار أنه لوحده عاجزٌ عن مواجهة كلِّ هذه المعوقات، فيأتي

دور الزّهراء علیها هنا بصفتها واحدة من أبواب التوجّه والتَّوَسُّل إلى الله سبحانه لاستنزال الرحمة والبركة على السالكين، فتكون علیها سبباً لإعانتهم في تخطي صعابهم واستجابة دعواتهم وتقديمهم نحو السعادة والكمال.

والذي يفهم من الروايات أنّ فاطمة علیها لها وجاهة عظيمة وكبيرة جداً عند الله تعالى بحيث يصبح التَّوَسُّل بها مورد اهتمام الأنبياء والأوصياء علیهم السلام منذ عهد آدم عليهما السلام الله عليهما واسططهم عند الله عزوجل في قضاء حوائجهم مع أنّهم وسائل بحد ذاتهم للتَّوَسُّل وقضاء حوائج الناس.

ففي الرواية عن داود الرّقّي قال: إِنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلِيَّ أَكْثَرَ مَا يُلْحُّ بِهِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى اللَّهِ بِحَقِّ الْخَمْسَةِ، يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ (صلوات الله عليهم) ^(٦٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سألت النبي عليهما السلام عن الكلمات التي تلقى آدم من ربه فتاب عليه قال: «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا نبت على قاتل عليه» ^(٦٦).

وأورد الكليني في الكافي ما يقرب من ذلك ^(٦٧).

سابعاً: أنّها علیها لها تأثيرٌ تكوينيٌّ على القلوب المستعدة:

يعنى أنّ هناك نوعاً من الهدایة الخاصة تشبه هدایة القرآن ^(٦٨) - غير هدایة الفطرة وغير الهدایة التشريعية أو التي تناول بالاقتداء بالآخرين - لا تعطى إلا لنماذج خاصة من البشر، بينما تفوت وتحجب عن البقية، وذلك لوجود الاستعداد لدى الأولى، وغيابه عن الأخرى، وهذا الاستعداد كلّما زاد وكبر كلّما كبر معه مقدار الاستفادة من هذه الهدایة.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ أهل البيت علیهم السلام - ومنهم فاطمة علیها - هم تأثيرٌ خاصٌّ موهوبٌ من قبل الله تعالى في هدایة بعض النفوس المضيئه

والمستنيرة لنزيدها نوراً واستبصاراً، أما إذا لم تكن هي واقعاً لها جنبة استئنارة منذ الأساس فلا يكنها الاستفادة من هذه الهدية الخاصة.

روي عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ خَلَقَهَا مِنْ نُورٍ الْعَرْشِ ثُمَّ أَخْدَى مِنْ ذَلِكَ النُّورِ فَأَصَابَنِي ثُلُثُ النُّورِ وَأَصَابَ فَاطِمَةَ ثُلُثُ النُّورِ وَأَصَابَ عَلِيًّا وَأَهْلَ بَيْتِهِ ثُلُثُ النُّورِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهتَدَى إِلَى وَلَايَةِ آلِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ لَمْ يُصِبْهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ ضَلَّ عَنْ وَلَايَةِ آلِ مُحَمَّدٍ»^(٦).

الخاتمة

بعد العرض المتقدم اتضح بنحوٍ جليٍّ ما هو الدور الرئيس الذي تنھض بأعبائه فاطمة الزهراء عليها السلام لمساعدة البشرية وإيصالها إلى قمة السعادة والكمال الإلهي والمتمثل في إرشاد الناس إلى قدرة الخالق وعظمته، وقوية استيثاقهم على النبوة والإمامية، وتقديم النموذج العملي الفذ للإنسان الكامل، الذي يصلح بأن تقتدي به النساء والرجال على حد سواء.

كما تبيّن ما هو سرّه وأثره، وأنه أحد تدابير الله تعالى الحكيم التي لا غنى عنها إطلاقاً في إدارة خلقه وإيصالهم إلى هدفهم الذي خلقوا من أجله، ولولاه لاختل جانبٌ من هذا الهدف الكبير، بالإضافة إلى كونه باباً من الأبواب الواسعة المشرّعة لتقريب الناس من الخير والطاعة وصرفهم عن التهاوي والسقوط.

نسأل الله تعالى بحق هذه الصدقّة الطاهرة عليها السلام أن يرزقنا اتباعها والاستئنارة بها وأن يوفقنا لولائها وولاء آها الميامين عليها السلام وأن نرزق شفاعتها وشفاعتهم يوم الورود، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) تفسير فرات الكوفي، ص ٥٨١؛ أيضاً: بحار الأنوار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٦٥، ح ٥٨.

- (٢) كآية التطهير النازلة على أهل البيت عليهم السلام التي منهم فاطمة عليها السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيَطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣، وآية المباهلة الدالة على فضائل الخمسة عليهم السلام التي من ضمنهم فاطمة عليها السلام: ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران: ٦١، وغيرها.
- (٣) كالرواية الواردة عن النبي صلوات الله عليه وسلم: «الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأمهما أفضل من نساء أهل الأرض»، عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، ح ٢٥٢، ص ٦٢.
- (٤) راجع على سبيل المثال: علم التاريخ ومناهج المؤرخين، صائب عبد الحميد، ص ٨٨.
- (٥) انظر مثلاً دعوى ضرب الغناء في زفاف فاطمة عليها السلام وتفاعل الصحابه معه ورقصهم أثناءه من دون أن يذكر عليهم الرسول صلوات الله عليه وسلم، أو دعوى توبيقها من قبل النبي صلوات الله عليه وسلم عندما اشتكى على بعلها بحجة تشديده عليها: الإصابة في تقييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ج ٢، ص ٤٣٦؛ وج ٨، ص ٢٦٨.
- (٦) أسماء الصحابة وما لكل واحدٍ منهم من العدد، ابن حزم الأندلسي، (تحقيق: السعدني) ص ٤٢.
- (٧) انظر: مسند فاطمة الزهراء عليها السلام، السيوطي، مقدمة الكتاب؛ وأيضاً: موسوعة كلمات سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، مجموعة من المحققين، ص ١٠.
- (٨) بحار الأنوار، الجلسي، ج ٤٣، ص ٣٦.
- (٩) م ن، ص ٣٧.
- (١٠) من لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ٣، ح ٤٣٨٣، ص ٣٩٣. وقريب منه أيضاً: روضة الوعاظين، فتال النيشابوري، ج ١، ص ١٤٨.
- (١١) سورة العنكبوت: ٦٩.
- (١٢) سورة الحجرات: ١٣.
- (١٣) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٤١٥ - ٤١٦.
- (١٤) سورة آل عمران: ٣٣.
- (١٥) سورة فاطر: ٣٢.



- (١٦) سورة البقرة: ٢٤٧.
- (١٧) سورة آل عمران: ٤٢.
- (١٨) روضة الوعظين، فتال النيشابوري، ج ١، ص ١٤٩.
- (١٩) سورة الأحزاب: ٣٣.
- (٢٠) راجع مثلاً: بحار الأنوار، الجلسي، ج ٣٥، ص ٢٠٦ فما بعد.
- (٢١) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٨٦.
- (٢٢) سورة آل عمران: ٤٢.
- (٢٣) تفسير القمي، علي بن إبراهيم، ج ١، ص ١٠٢؛ كذلك: بحار الأنوار، الجلسي، ج ١٤، ص ٢٠٠.
- (٢٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٩٠ - ٢٩١.
- (٢٥) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٤٠٥.
- (٢٦) سورة مریم: ٢١.
- (٢٧) سورة مریم: ٣١.
- (٢٨) راجع حول هذا المعنى: روضة الوعظين، الفتال النيشابوري، ج ١، ص ٨٤.
- (٢٩) انظر: الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٢١.
- (٣٠) معاني الأخبار، الصدوق، ص ٩٠.
- (٣١) الكافي، الكليني، ج ٣، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.
- (٣٢) معاني الأخبار، الصدوق، ص ١١٥. أيضاً: بحار الأنوار، الجلسي، ج ٢٤، ص ٧٤ - ٧٥.
- (٣٣) أمالى الطوسي، ص ٥١٧ - ٥١٦. كذلك: بحار الأنوار، الجلسي، ج ٢٤، ص ٧٥ - ٧٦.
- (٣٤) من لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ١، ص ٢٥٧.
- (٣٥) جمال الأسبوع، السيد ابن طاووس، ص ٢٦٧. أيضاً: مصباح المتهجد، الطوسي، ص ٣٠١.
- (٣٦) الكافي، الكليني، ج ٤، ص ١١٤.
- (٣٧) غرر الحكم، الآمدي، ر ١٣٢، ص ٤٤.
- (٣٨) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٤١.
- (٣٩) الكافي، الكليني، ج ٣، ص ١٠٤ - ١٠٥.
- (٤٠) الاحتجاج، الطبرسي، ج ١، ص ١٨؛ أيضاً: بحار الأنوار، الجلسي، ج ٢، ص ٨.

- (٤١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٣٤١-٣٤٠؛ وبحار الأنوار، المجلسي، ج ٢، ص ٣.
- (٤٢) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
- (٤٣) م ن، ج ١، ص ٢٤٢.
- (٤٤) م ن، ج ١، ص ٢٤٠.
- (٤٥) م ن، ج ١، ص ٢٤١.
- (٤٦) ولها نقل آخر يختلف بعض الشيء عن هذا ذكره الطبرسي في الاحتجاج، ج ١، ص ٩٧؛ ونقل كذلك في: بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٢٢٠.
- (٤٧) بلاغات النساء، ابن طيفور، ص ٢٦؛ وبحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٢٣٩.
- (٤٨) راجع: معاني الأخبار، الصدوق، ص ٣٥٤؛ وبحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٥٨.
- (٤٩) مناقب آل أبي طالب عليهما السلام، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٣٤١.
- (٥٠) م ن.
- (٥١) معاني الأخبار، الصدوق، ص ٦٤؛ وعلل الشرائع، الصدوق، ج ١، ص ١٨١.
- (٥٢) علل الشرائع، الصدوق، ج ١، ص ١٨٠.
- (٥٣) م ن، ج ١، ص ١٨١.
- (٥٤) غرر الحكم، الأمدي، ص ١٩٧.
- (٥٥) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ١٦.
- (٥٦) سورة الإنسان: ٨ - ٩.
- (٥٧) مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢١٦.
- (٥٨) سورة الفرقان: ٢٠.
- (٥٩) تأويل الآيات الظاهرة، الحسيني الاسترابادي، ص ٣٦٨؛ وبحار الأنوار، المجلسي، ج ٢٤، ص ٢١٩ - ٢٢٠.
- (٦٠) علل الشرائع، الصدوق، ج ٢، ص ٣٦٦؛ ومن لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.
- (٦١) الجعفرية، ابن الأشعث الكوفي، ص ٩٥؛ والنواودر، الرواندي، ص ١٤ - ١٣؛ وبحار الأنوار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٩١.

يَا فَاطِمَةُ الشَّفِيعَةِ الْحَنِّيَّةِ

- (٦٨) يقول الله تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لَهُ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾
فوصف القرآن بأنه كتاب هداية للمتقين، مع أنهم لم يصبحوا على تقوى من دون هداية سابقة، فربما فيه إشارة إلى نوع من الهداية الخاصة للقرآن ينالها المتقوون فقط لا غير.
- (٦٩) الخصال، الصدوق، ج ١، ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٦٢) سورة الأنبياء: ٩١.

(٦٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق، ج ٢، ص ٦٣.

(٦٤) تأويل الآيات الظاهرة، الحسيني الاسترابادي، ص ٦٧٧.

(٦٥) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٥٨٠.

(٦٦) الأمالى للصدوق، ص ٧٥ - ٧٦.

(٦٧) الكافي، الكليني، ج ٨، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.



مسائلتان في الأحوال الشخصية

الشيخ علي فاضل الصدفي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وآلِهِ.

المُسَائِلَةُ الْأُولَى: زنا ذات البعل قبل دخوله بها هل
يحرّمها عليه؟

المشهور عدم حرمة ذات البعل بزناها وإن أصرّت
عليه.

نعم ذهب أحد أجلة المعاصرين دامت طلحة إلى حرمتها إذا
اتفق زناها قبل دخول زوجها ^(١)، وذلك لعتبرة الفضل بن يونس قال: «سألت
أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن رجل تزوج امرأة فلم يدخل بها فزنـت. قال:

يفرق بينهما، وتحدّ الحدّ، ولا صداق لها»^(٢)، ومعتبرة إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: «قال علي عليهما السلام في المرأة إذا زنت قبل أن يدخل بها زوجها، قال: يفرق بينهما، ولا صداق لها؛ لأنّ الحدث كان من قبلها»^(٣)؛ فإنّ ظاهر جملة (يفرق بينهما) بطلان العقد.

ولا تعارضها صحيحة عبّاد بن صحيب عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: «لا بأس أن يمسك الرجل امرأته إن رآها تزني إذا كانت تزني وإن لم يقم عليها الحدّ فليس عليه من إنها شيء»^(٤)؛ لأنّ حسيمة المعتبرتين منها.

الوجه الأول:

وقد ذكر السيد الخوئي قائلًا أنه لا مجال للعمل بهما؛ لعارضتهما بروايتين معتبرتين آخريين، أولاهما: صحيحة الحلبية عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: «سألته عن المرأة تلد من الزنا، ولا يعلم بذلك أحد إلا وللها، أ يصلح له أن يزوجها ويisksك على ذلك إذا كان قد رأى منها توبية أو معروفاً؟ فقال: إن لم يذكر ذلك لزوجها ثم علم بعد ذلك فشاء أن يأخذ صداقها من وللها بما دلّس عليه كان ذلك على وللها، وكان الصداق الذي أخذت لها، لا سبييل عليها فيه بما استحلّ من فرجها، وإن شاء زوجها أن يمسكها فلا بأس»^(٥). ثانيةهما: صحيحة معاوية بن وهب -في نقل الكليني عليهما السلام- قال: «سألت أبا عبد الله عليهما السلام عن رجل تزوج امرأة فعلم بعدها تزوجها أنها كانت قد زنت. قال: إن شاء زوجها أن يأخذ الصداق من الذي زوجها، وما الصداق بما استحلّ من فرجها، وإن شاء تركها»^(٦)، وإن كانت ضعيفة بنقل الشيخ عليهما السلام، باشتراك القاسم الوارد في سندتها.

وقد قرّب قائل الدلالة بأن موردهما وإن كان هو الزنا السابق على العقد، إلا أنه لا يؤثّر شيئاً؛ فإنّ الزنا إذا كان موجباً لرفع العقد بعد وقوعه وتحقّقه فكونه دافعاً له ومانعاً من تحقّقه -ثبت بالأولوية، وعلى هذا تكون العبرة بزناتها قبل أن

يدخل بها، وهو أمر مشترك بين الوردين، فتكونان معارضة لتلكما المعتبرتين لا محالة^(٧). ومثله ما في الحدائق، إذ قال: "ومن الظاهر أن هذا النوع إن لم ينقص عن تلك الأنواع الآخر لم يزد عليها؛ فإن خصوصية العقد هنا لا مدخل له في هذه الأحكام المفاظة المترتبة على هذا الزنا"^(٨).

ويتوجّه إليهم -لو سلّمنا الأولوية- أنها إنما تتمّ لو قصرنا النظر على السبب، وهو الزنا، ولكن من المحتمل اختصاص مورد الأولتين بالحرمة نظراً لكونها زوجة حين زناها، وأنّ الحرمة ضرب من العقوبة، ولا دافع لهذا الاحتمال، ومعه فلا تصل التوبة إلى عمومات الحلّ.

الوجه الثاني:

وقد أشار قيثـث إلى وجه آخر لردّ تلكما المعتبرتين^(٩) -وقد تناوله جملة من الأعلام^(١٠)- وهو إعراض الأصحاب وهجرهم لها؛ إذ لم يعمل بضمونهما أحد؛ فإنّ المفيد والديلمي وإن أفتيا بحرمة المزني بها على زوجها إلا أنهما لم يفرقا بين كون الزنا سابقاً على الدخول أو لاحقاً له، ومعه فلا بدّ من حملهما على استحباب الطلاق أو طرحهما.

مناقشة هذا الوجه:

ويقع الكلام في هذا الوجه صغرى وكبيرى:

أمّا الصغرى فغير تامة؛ إذ قد أفتى الصدوق قيثـث في المقنع بالحرمة في مسألتنا^(١١)، وما في الحدائق -بعد عرضه لأخبار حرمة الزوجة بزناها أو زنا زوجها قبل دخوله بها- من أن الصدوق قد أفتى في العلل بما ينافق أخبار الحرمة^(١٢)- فليس على إطلاقه؛ فإنه أودع في الباب (٢٦٤) ما دلّ على حرمة الزوجة بزنا زوجها قبل دخوله بها، ثمّ تعقبه بقوله "والذي أفتى به وأعتمد عليه في هذا المعنى ما حدّثني به محمد بن الحسن عليه السلام- وساق صحيحـة رفاعة الآتية الدالة

على عدم حرمتها بذلك، ثم ذكر الباب (٢٦٥)، وعنونه بـ "العلة التي من أجلها إذا زنت المرأة قبل دخول الزوج بها فرق بينهما، ولم يكن لها صداق"، وأودع فيه موثقة السكوني المتقدمة، ولم يتعقبها بشيء، فلاحظه^(١٣).

فالنتيجة أن دعوى هجر الأصحاب وعدم إفتاء أحد بضمون أخبار الحرمة - غير تامة، نعم هي مما أعرض عنها المشهور؛ إذ لم يفت بضمونها من المتقدمين أحد غير الصدوق حَلِيلٌ كما عرفت.

كبرى كاسريّة الهجر والإعراض:

وأمّا كبرى الهجر وأن أدلة حجّية خبر الواحد لا تتناول ما هو مهجور للأصحاب - فهي تامة وإن قلنا بأنّ موضوع حجّية الخبر هو الوثاقة وأن الدليل على الحجّية هو النقل؛ ذلك أن هجر الأصحاب للخبر كاشف عن عدم صدوره على سبيل بيان الحكم الواقعي، وعلى فرض عدم إحراز كاشفيته فإنّ احتفاف أدلة الحجّية بالمرتكز العرفي القائم على التوقف عن العمل بخبر منسوب للسلطان مع امتناع حاشيته عن العمل - مانع من إطلاقها لمثل الخبر المهجور.

ولو قلنا بأن دليل الحجّية هي السيرة فلا تتناول الخبر المهجور؛ لكون الوثاقة - التي هي ملاك الحجّية - بحسب المرتكز العقلي ملحوظة باعتبار كاشفيتها النوعية لا على وجه الصفتية والموضوعية، فإذا ما ابتليت بمزاحم صالح للكاشفية على الخلاف فإنه يوجب وهن الإماريّة النوعية للخبر، فلا تشمل مثله السيرة العقلائيّة.

بل لا يشمل دليل الحجّية الخبر الذي أعرض عنه خصوص الأقدمين من علمائنا القريبين من عصر النصوص، ولم يوجد تفسير مدركي اجتهادي واضح لفتواهـم (نعم لا يشمله الدليل) لعين ما تقدّم.

الإشكال على الكبرى وردّه:

وقد أشكل أحد أجلة المعاصرين دَائِرَةَ الْجَلَلَةِ على كاسريّة هجر الأصحاب فضلاً عن إعراض مشهورهم بما ملخصه أولاً^(١٤): أنه لا طريق لنا إلى إحراز هجر الأصحاب أو إعراض مشهورهم عن روایة صحيحة وعدم استنادهم إليها في مقام الإفتاء؛ فإنّ الطريق إلى ذلك منحصر في وصول هجرهم أو إعراضهم عن الروایة الصحيحة إلينا يداً بيد، أو وجود كتاب استدلالي لكلّ واحد منهم واصل إلينا، وكلا الطريقين غير واقعي، أمّا الأول فللخلاف في نقل آراء المتقدمين في المسألة من جهة، والاكتفاء بنقل آرائهم فيها من دون نقل مستندتهم من جهة أخرى، وقد يكتفى بنقل شهرة المسألة أو كونها إجماعية بدون ذكر طريق وصول الشهرة. وأمّا الثاني فإنه على تقدير وجود كتاب استدلالي لكلّ واحد من المتقدمين إلا أنه لم يصل إلينا، فالنتيجة أنه لا طريق لإحراز هجر الأصحاب أو إعراض المشهور عن روایة صحيحة.

ويتوجّه عليه أنه من الصعب إحراز استناد الأصحاب أو المشهور إلى روایة، وأنّ مجرد تطابق فتاواهم للروایة لا يفيد استنادهم إليها؛ حيث لم تصلنا كتبهم الاستدلالية لو كانت، وأمّا قضية هجرهم أو إعراضهم عن روایة فلا ينحصر إحرازه في الطريقين المذكورين، فيمكن استكشاف ذلك من خلال كتبهم ولو كانت فتوائیّة، فعندما نرى فتاواهم في مسألة على خلاف الروایة مع كونها برأي وسمع منهم تستكشف هجرهم أو -على الأقل- إعراضهم عنها فيما إذا وصلنا أو نقل إلينا جلّ أقوالهم في المسألة، ولا حاجة لنا إلى معرفة مستند تلك الأقوال ومدركيها، كما لا حاجة إلى توفر كتب استدلالية بعدد المتقدمين.

وأمّا أمر الاختلاف في نقل آراء المتقدمين فليس مطروحاً في كلّ مسألة، وأمّا نقل الشهرة أو الاتفاق -يعني أن ثمانين في المائة مثلاً من المتقدمين أو أنّ تفاصيل المائة

يرون كذا، وهو على خلاف الرواية - فهو نقل حسّي، فتتناوله أدلة حجّية الخبر.
وقد أفاد 大宗主 ثانياً^(١٥): أنه مع تسلیم إحراز هجر الأصحاب أو إعراض
المتقدّمين لا يكفي مجرد ذلك، بل لا بدّ من إحراز أنّ ذلك إنما هو بسبب وصول
ما يدلّ على عدم صدور الرواية عن المعصومين عليهم السلام بـأبيد وطبقه بعد طبقة
من القرینة لفظیة أو لبیة، وهو أمر غير واقعی؛ لأنّ القرینة إن كانت ظنیة فلا
قيمة لها، وإن كانت معتبرة فلو كانت لفظیة متصلة أو منفصلة - لكان اللازم
لجهة الأمانة أن تنقل، وكذا لو كانت عملیة لبیة - بمعنى أن أصحاب الأئمّة عليهم السلام
قد أعرضوا عن الرواية، ووصل هذا الإعراض بنحو معتبر إلى الأصحاب
فهجروها أو إلى متقدّميهم فأعرضوا عنها.

والجواب أنّ من المحتمل كون الواصل من القرینة على عدم الصدور والتي
أوجبت هجراً أو إعراضًا - قرینة عملیة لبیة تتمثل في ارتکاز متشرّعي بـتقریر
الإمام عليه السلام أو فعله أو قوله بنحو الإجمال بدون تحديد، ولا ملزم لنقل هذا
الارتکاز، ولا ينافي عدم نقله الأمانة؛ لأنّ من عاش هذا الارتکاز قد لا يتحمل
زواله لشدة رسوخه في زمانه، ومعه فلا يوجد ما يلزمه بنقله، وما أكثر
الارتکازات المتشرّعیة - التي هي قرائن لبیة متصلة بالخطابات - ولم ينقلها
المتقدّمون من تأخّر عنهم، ولم يخندش ذلك في أمانتهم.

فالتحصّل تمامیة كبرى كاسریة هجر الأصحاب للرواية الصحيحة، بل يكفي
إعراض متقدّمي الأصحاب عنها؛ لعدم تناول أدلة الحجّية لها.

التطبيق على مسألتنا والتیجہ:

ولكنك قد عرفت سلفاً بأنّ روایات مسألتنا ليست مهجورة للأصحاب،
وليس محلّ إعراض متقدّميهم، فالمتّوجه - بوجوب تلك الروایات - حرمة الزوجة
بزناها قبل دخول زوجها بها، وفاقاً لأحد أجلّة المعاصرین 大宗主.

ما لو زنى الزوج قبل دخوله بزوجته:

ثم إنه قد دلت رواياتنا على حرمة الزوجة بزنا زوجها قبل دخوله بها، إحداها: صحيحه علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: «سألته عن رجل تزوج بأمرأة فلم يدخل بها فزن، ما عليه؟ قال: مجلد الحد، ويحلق رأسه، ويفرق بينه وبين أهله، وينفي سنة»^(١)، والأخرى: موثقة طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: «قرأت في كتاب علي عليهما السلام: إن الرجل إذا تزوج المرأة فزنى قبل أن يدخل بها لم تحل له؛ لأنّه زان، ويفرق بينهما، ويعطيها نصف المهر»^(٢).

وقد أفتى بعضهم بما صدوقه في المقنع^(٣)، ولكنه في علل الشرائع -بعد ذكره الموثقة- قال: "جاء هذا الحديث هكذا، فأوردته لما فيه من العلة، والذي أفتني به وأعتمد عليه في هذا المعنى ما حدثني به محمد بن الحسن عن محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد عن ابن أبي عمير وفضالة بن أبيه عن رفاعة قال: «سألت أبا عبد الله عليهما السلام عن الرجل يزني قبل أن يدخل بأهله، أيرجم؟ قال: لا، قلت: يفرق بينهما إذا زنى قبل أن يدخل بها؟ قال: لا...»^(٤)، وهي صحيحة السندي، ورواهما في الفقيه بسند آخر صحيح^(٥) هذا. ولما كانت الطائفة الأولى صريحة في الحرمة فلا يتأنى حملها على الكراهة وإن كانت الطائفة الثانية صريحة -هي الأخرى- في الحلية، فتصل النوبة إلى مرّجحات باب التعارض، وبموجبها تتقدّم الطائفة الثانية؛ لموافقتها لكتاب العزيز في قوله سبحانه -بعد ذكر المحرمات من النساء-: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَأَتِ دِلْكُمْ﴾^(٦)، بناءً على أنّ موافقة إطلاق الكتاب من المرجحات.

فالنتيجة عدم حرمة ذات البعل بزناه قبل دخوله بها.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآلـه.



المسألة الثانية: الرجعة في الطلاق .. إيقاع قصدي أو لا؟

مقدمة:

الطلاق إنما ينقطع بوجبه العلقة بين الزوجين بتمام مراتبها، وإنما رجعي يجوز للزوج معه الرجوع عنه إلى نكاحه السابق، قال الله سبحانه: ﴿وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدَّهُنَّ فِي ذَلِكَ﴾^(٢٢)، كما أنه ليس طلاقاً وبينونه حقيقة، بل هو بينونه في بعض مراتبها؛ دلالة جملة من الروايات على أن المطلقة رجعياً إنما تبين بمن واجهها من العدة^(٢٣)، وهي زوجة بالفعل، ففي معتبرة يزيد الكناسي قال: «سألت أبا جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمَ عن طلاق الحبل، فقال: يطلقها واحدة للعدة بالشهور والشهود، قلت: فله أن يراجعها؟ قال: نعم، وهي امرأته..»^(٢٤)، وعن محمد بن مسلم قال: «سئل أبو جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمَ عن رجل طلق امرأته واحدة ثم راجعها قبل أن تنقضي عدتها، ولم يشهد على رجعتها، قال: هي امرأته ما لم تنقض العدة، وقد كان ينبغي له أن يشهد على رجعتها..»^(٢٥).

إذا تهدى ذلك فاعلم أن مراجعة الزوجة والرجعة لها هو العود إليها، وقد وقع الكلام في كون الرجعة من الأمور الإنسانية الإيقاعية فيعتبر فيها ما يعتبر فيسائر الإيقاعات من قصد الإنشاء وكذا صراحة ألفاظها -كما قيل-، أو أنها تمسك بالزوجية التي تشرف على الزوال وأن العبرة بتحقق عنوان العود والرجوع قوله أو فعله، وبلا فرق بين كون اللفظ صريحاً أو ظاهراً فيه، بل وإن كان مجازاً أو كناية عنه وإن خلى عن قصد الرجوع.

وقد احتاج للثاني بوجوه:

الأول: إن بعد تصريح الروايات -على حد تعبير بعضهم- بأن المطلقة الرجعية زوجة بالفعل، فقيام الزوج بفعل لا يجوز لغيره تمسك بالزوجية المشرفة

على الانقضاء، وإن لم يقصد الرجوع والعود إليها^(٢٦)، فالمطلقة الرجعية ما دامت في العدة زوجة -كما تقدم-، فلنزوجها أن يفعل بها ما شاء، وإن لم يقصد الرجوع، فالأفعال -على حد تعبير صاحب الجواهر قتيل- "رجوع وإن لم يقصد بها ذلك، لا دالة على الرجوع".^(٢٧)

ويلاحظ عليه أن الفعل -وإن لم يجز لغير الزوج- أعم من رجوعه إلى الزوجية، ولا شاهد على كون مثل هذا الفعل عنواناً انتباقياً يدور مدار الصدق العرفي، وأن العرف يرى مثل القبلة رجوعاً وإن لم يقصد به الرجوع.

الثاني: إن عدم اعتبار لفظ مخصوص في الرجعة -كما اعتبر في النكاح والطلاق- فتحتتحقق بكل ما دل عليها من الألفاظ وإن لم تكن صريحة وإن اعتمدت على قرينة حال أو مقال؛ بل تتحقق بعض الأفعال كالوطء -قرينة على عدم كونها إيقاعاً؛ إذ لم يعهد مثل ذلك فيسائر العقود والإيقاعات، ولا فرق بين أقسام الإنشاء من هذه الجهة^(٢٨).

ويلاحظ عليه أن المعتبر في مطلق العقود والإيقاعات غير ما أخرجه الدليل مطلق المبرز لها عرفاً صريحاً أو ظاهراً حقيقة أو مجازاً بلا تعين للفظ في تحقيقها؛ إذ لا دليل عليه.

الثالث: إن عدم اعتبار القصد إلى الرجعة في الوطء وإنكار الطلاق -كما سيأتي إن شاء الله- كافٍ عن عدم كون الرجعة إيقاعاً.^(٢٩)

ويلاحظ عليه أن ما دل على كون وطء المطلقة الرجعية رجوعاً لها - وهي صحيبة محمد بن القاسم قال: «سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمَةَ يقول: من غشى أمراته بعد انقضاء العدة جلد الحد، وإن غشيتها قبل انقضاء العدة كان غشيانه إليها رجعة لها»^(٣٠) - لا ظهور لها في عدم اعتبار قصد الرجعة في تحقيقها بغير الوطء كاللمس والتقبيل بشهوة مثلاً؛ إذ كون الوطء رجعة من باب التعبّد، ويكتفي احتمال ذلك، فلا



تنهض دليلاً على عدم اعتبار قصد الرجوع بغيره.

وأما ما دلّ على أنّ إنكار الطلاق رجعةً - وهي صحيحة أبي ولاد الحناظ عن

أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «سألته عن امرأة ادعـت على زوجها أنه طلقـها تطليقة طلاق العدة طلاقاً صحيحاً - يعني على طهر من غير جمـاع - وأشهد لها شهوداً على ذلك، ثمّ أنـكر بعد ذلك، فقال: إن كان إنـكارـه الطلاق قبل انـقضـاء العـدة فإنـ إنـكارـه الطلاق رجـعة لها..»^(۳۱) - فهو الآخر من باب التعبـد، واحتمال ذلك كافٍ فلا

تنهض دليلاً على عدم اعتبار قصد الرجـعة بغيره.

فالمتحصل هو اعتبار قصد الرجـعة في تحققـها إلا في صورة الوـطـء أو إنـكارـ الطلاق.

ومما سلف يظهر الجواب عمـا ذكرـه في المـدائـق^(۳۲) من اعتبار قصد الرجـعة في تحققـها ولو بالـوطـء، معلـلاً ذلك بـأنـ الوـطـء في حدـ نفسه أعمـ من الرجـعة، واكتفى قـتـئـلـ في تقيـيدـ الصـحـيـحةـ بـكونـ الأـحكـامـ صـحةـ وبـطـلـانـاً وـثـوابـاً وـعـقـابـاًـ دائـرةـ مـدارـ القـصـودـ وـالـنـيـاتـ.

تـفـريـعـاتـ:

ثمّ إنّ مقتضـى إـطـلاقـ صـحـيـحةـ ابنـ القـاسـمـ المتـقدـمـةـ تـحـقـقـ الرـجـعةـ بـالـوطـءـ وإنـ قـصـدـ الـخـلـافـ أوـ قـصـدـ قـضـاءـ الشـهـوـةـ بـحـيـثـ لاـ يـبـالـيـ بـأـيـ نـحـوـ أـمـكـنـ أوـ قـصـدـ عنـونـ الزـناـ بـوـطـئـهـ وـلـمـ يـقـضـدـ الرـجـوعـ، أوـ وـطـأـ غـافـلاًـ أوـ نـاسـيـاًـ طـلاقـهـ لـرـوـجـتـهـ معـ التـفـاتـهـ إلىـ ذاتـ الـوطـءـ.

نعمـ لاـ إـطـلاقـ لهاـ لـفـرـضـ ماـ إـذـاـ وـطـأـ قـهـراًـ أوـ نـائـماًـ أوـ باـعـتقـادـ أـنـهـ غـيرـ المـطـلـقـةـ أوـ وـطـأـ معـ نـسـيـانـهـ أوـ غـفـلـتـهـ عنـ ذاتـ الـوطـءـ؛ لـانـصرـافـ الصـحـيـحةـ عنـ مـثـلـ ذـلـكـ؛ فإنـ صـدـرـهاـ يـتـحدـثـ عنـ جـلدـهـ الحـدـ فيماـ لوـ غـشـيـ مـطـلـقـتـهـ بـعـدـ انـقضـاءـ العـدةـ، فـلاـ يـشـمـ فـرضـ الـقـهـرـ وـالـخـطاـ وـالـغـفـلـةـ وـالـنـسـيـانـ حـيـثـ إـنـهـ لاـ يـجـلـدـ معـهـ الحـدـ بـعـدـ

انقضاء العدة.

ثم إنّ مقتضى إطلاق صحيحة أبي ولاد المتقدمة تحقّق الرجعة بإنكار الطلاق وإن علم كذبه.

ولكن استشكل أحد الأجلة عليه السلام شمول الصحة لفرض العلم بكذبه، ثم استظهر عدم الشمول، معللاً ذلك برجوع إنكار الطلاق حقيقة ولبّاً إلى قضية تعليقية، وهي إِيْ لم أطلق، وإذا طلّقت فليس عندي قصد الرجوع، فلا يكون إنكاره للطلاق محققاً للرجوع عرفاً، وأضاف عليه السلام بأنّ بعض المطلّقين من العوام إنما ينكر الطلاق ويرجع عنه لتخيله بطلاقه، فلو علم أنّ طلاقه صحيح فلا يرجع فيه أصلًا^(٣٣).

ويلاحظ عليه أولاً: بأنّ اعتبار إنكار الطلاق رجعة حكم مخاطب به الزوجة المدعية للطلاق، وأوضح فروض الرجعة تعبدًا ما إذا علمت بكونه قد طلقها واقعاً، فاستبعد هذا الفرض إخراج للمورد، وهو مستهجن عرفاً.
وثانياً: إنّ ما أفيد مما يكفي الإطلاق لدفعه.

والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله على محمد وآلـهـ.

الهوامش:

- (١) منهاج الصالحين:٣ م ٥٤، للشيخ محمد إسحاق الفياض دام عليه السلام.
- (٢) وسائل الشيعة:٢١: ٢١٨ ب٦ من أبواب العيوب والتدلّيس ح٢.
- (٣) وسائل الشيعة:٢١: ٢١٨ ب٦ من أبواب العيوب والتدلّيس ح٣.
- (٤) وسائل الشيعة:٢٠: ٤٣٦ ب١٢ من أبواب ما يحرم بالمساورة ونحوها ح١.
- (٥) وسائل الشيعة:٢١: ٢١٧ ب٦ من أبواب العيوب والتدلّيس ح١.
- (٦) الكافي:٥: ٣٥٥ ح٤، وسائل الشيعة:٢١: ٢١٩ ب٦ من أبواب العيوب والتدلّيس ح٤.
- (٧) مبني العروة الوثقى(ك النكاح)=موسوعة الإمام الخوئي تأثيث:٣٢ .٢٢٧

- (٨) الحدائق الناضرة: ٢٣: ٤٩٨.
- (٩) مبني العروة الوثقى (ك النكاح)= موسوعة الإمام الخوئي ق٢: ٣٢: ٢٢٧.
- (١٠) انظر: جامع المدارك: ٤: ٢١٤، مستمسك العروة الوثقى: ١٤: ١٥٧، فقه الصادق: ٢١: ٣٢٣.
- (١١) المقنع: ٣٢٦.
- (١٢) الحدائق الناضرة: ٢٣: ٤٩٧.
- (١٣) علل الشرائع: ٥٠١، ٥٠٢، الباب ٢٦٤، ٢٦٥ من الجزء الثاني.
- (١٤) المباحث الأصولية: ٨: ٤٧٩، ٤٧٨، للشيخ محمد إسحاق الفياض دام ظله.
- (١٥) المباحث الأصولية: ٨: ٤٧٩، ٤٨٠.
- (١٦) وسائل الشيعة: ٢١: ٢٣٦ ب ١٧ من أبواب العيوب والتدلisis ح ٢.
- (١٧) وسائل الشيعة: ٢١: ٢٣٦ ب ١٧ من أبواب العيوب والتدلisis ح ٣.
- (١٨) المقنع: ٣٢٦.
- (١٩) علل الشرائع: ٥٠٢، الباب ٥٤٦ من الجزء الثاني، وسائل الشيعة: ٢١: ٢٣٨ ب ١٧ من أبواب العيوب والتدلisis ح ٤.
- (٢٠) وسائل الشيعة: ٢١: ٢٣٦ ب ١٧ من أبواب العيوب والتدلisis ح ١.
- (٢١) سورة النساء: ٢٤.
- (٢٢) سورة البقرة: ٢٢٨.
- (٢٣) وسائل الشيعة: ٢٢: ١٠٣-١٠٧ ب ١ من أبواب أقسام الطلاق ح ٤-٨.
- (٢٤) وسائل الشيعة: ٢٢: ١٣٥ ب ١٣ من أبواب أقسام الطلاق ح ٦.
- (٢٥) وسائل الشيعة: ٢٢: ١٤٨ ب ٢٠ من أبواب أقسام الطلاق ح ١١.
- (٢٦) انظر: نظام الطلاق في الشريعة الإسلامية الغراء، تقرير لبحث الشيخ جعفر السبحاني دام ظله، بقلم الشيخ سيف الله اليعقوبي: ٢٠٧.
- (٢٧) جواهر الكلام: ٣٢: ١٨١.
- (٢٨) انظر: جواهر الكلام: ٣٢: ١٨٠، تحرير الاستدلال في كتاب الطلاق تقريراً لبحث الشيخ محمد طاهر الخاقاني دام ظله بقلم الشيخ محمود محسني: ٢٥٥، فروع متصددة في الطلاق بقلم الشيخ محمد جواد الغروي الدشتري دام ظله: ١٦١، ١٦٠.
- (٢٩) انظر جواهر الكلام: ٣٢: ١٨٠.

- (٣٠) وسائل الشيعة: ٢٨: ١٣١ بـ ٢٩ من أبواب حد الزنا ح ١.
- (٣١) وسائل الشيعة: ٢٢: ١٣٦ بـ ١٤ من أبواب أقسام الطلاق ح ١.
- (٣٢) انظر: الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة: ٢٥: ٣٥٨.
- (٣٣) تحرير الاستدلال في كتاب الطلاق: ٢٥٨-٢٦٠.

يَا إِنَّمَا
وَعْدُ اللَّهِ فِلَيْتَوْكَ كَمُّ الْمُتَوَكِّلُونَ



تعالوا نتَولَ المؤمنين فهمَا للقيادة

اشيخ علي احمد الكريباوي

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على محمد
وآلـه الطـاهـرـين...

ربما ألقت بعض الاختلافات بظلالها على فهم المبادئ الأساسية فيما يرتبط بمسألة القيادة والانقياد، فتجد الانقياد عند أحدنا منفصلاً عن رعاية حقوق المؤمنين، وهذا يرجع إلى خلل في فهم معنى الانقياد، أو لتعبر عنه بالاصطلاح القرآني (التولي).

ما هو معنى الولاية والتولي؟

الولاية بأيّ معنى فسرناها لها قدر مشترك فيما بينها وهو الارتباط، فهو

فسرناها بالاتباع والانقياد، أو فسرناها بالمحبة أو غير ذلك لوجدنا أن كل هذه المعاني لا تخلو من الارتباط، ارتباط المتولي بن يتولاه، وهذا المقدار لوحده غير كافٍ في فهم معنى الولاية والقيادة والانقياد بالمعنى الشرعي، فلا بدّ من بحث معنى الولاية شرعاً وتحديده من بين جميع هذه المعاني؛ إذ لا يكفي القدر المشترك لوحده لأنّه لا يتوفّر على بقية الخصوصيات التي تكون لكل معنى على حدة.

ربما ساعدتنا الاستعمالات اللغوية على الاستئناس بحقيقة معنى الولاية، ونستعرض مثالين من العرف العام في المقام:

المثال الأول: إنّ أهل اللغة يقولون لخرز السبحة بأنّها متواالية، وهذا المعنى مع إشارته إلى الارتباط يشير أيضاً إلى التتابع، فهي متواالية تتوفّر على الاقتراب من بعضها البعض والترتبط فيما بينها، وتتوفر كذلك على التابعية والمتبعية، ولا بدّ لها من شرط أساسٍ حتى تتحقّق معنى التوالي وهو وجود خيط ينظم هذه السبحة ويجمع خرزها.

المثال الثاني: يقال أيضاً للمشتغلين برياضة تسلق الجبال حال تسلقهم معاً بأنّهم متوالون؛ يوالي ويللي بعضهم البعض الآخر، وهم عادة ما يستعينون على ذلك بحزام يربطونه حولهم، ينظمهم مع بعضهم بحيث يشدّ بعضهم البعض الآخر ويحفظه من السقوط.

الولاية والانقياد

أمّا إذا ما جئنا إلى المعنى الاصطلاحي فنرى أن النتيجة التي يعتمدتها الفقهاء في هذا المقام هي كون الوالي قائداً، فالولاية بحسب هذا المعنى الفقهي تعني القيادة والحكومة، والتولي هو الانقياد: ﴿إِنَّمَا وَكِيلُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

وهناك معنى آخر للولاية فقد فسرت الولاية بالنصرة، وهذا ما نلحظه في

الآيات التي تتحدث حول المؤمنين، فكأنما تريده بيان أهمية مسألة الترابط فيما بينهم ورعاية حقوقهم والواجبات المفروضة من قبل الشارع في حقهم... قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ﴾^(٢). والسؤال المهم في المقام: لماذا يجب علينا تولي المؤمنين؟ وما هي العلاقة بين تولي المؤمنين وبين تولي القائد؟

إن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد؛ أي أنه لا يعقل أن يشرع المشرع حكماً من دون مصلحة، فإن هذا الفعل قبيح إذ لا يخلو من نسبة الجهل أو العبث إلى الله تعالى، فتحصل أن الله تعالى حينما يأمرنا باتباع الرسول ﷺ أو ولي الأمر، فهو إنما يأمرنا باتباعهم وتوليهم لوجود مصالح وملادات خاصة يتوفرون عليها دون غيرهم، وإلا لما رجحهم على غيرهم.

وأما تولي المؤمنين فهو لا يخلو من التابعية والمتبوعية، حتى وإن فسرناه بالنصرة، فالولاية مهما كان معناها لا تخلو من التابعية والمتبوعية ولو بمستوى من المستويات: القلبية، العملية، أو غير ذلك، غاية الأمر أنها تابعية ومتبوعية بدرجة أقل منها مع القائد والولي.

ألا ترى في المسائل الفقهية عنوان تولي عدول المؤمنين؟ هناك يتحدثون عن بعض الأمثلة التي يفقد فيها الولي على هذا الطفل مثلاً، ويفقد الحاكم الشرعي والفقير قادر على تولي أمر هذا الصغير، فحينها يرجع أمر تولي هذا الطفل الصغير إلى عدول المؤمنين، فهو -العدل من المؤمنين- من يتولى أمره، والصبي يكون تابعاً له، وهذا يكشف عن أن الشريعة أخذت الدين والعدالة وما يقاربه من مصالح ومواصفات بنظر الاعتبار.

والخلاصة أن تولي المؤمنين لبعضهم البعض راجع لوجود المصالح والملادات الخاصة لديهم، غاية الأمر ومن خلال التفريق في الحكمين: حكم تولي القائد،

وحكم تولي المؤمنين، ندرك أن هناك تفاوتاً في درجة تلك المصالح بين هذين الصنفين، إذ المصالح والملاكيات الأولى كانت بدرجة توجب الاتباع لهذا القائد، والمصالح والملاكيات الثانية كانت بدرجة أقل من الاتباع؛ فكانت بدرجة توجب النصرة والتأييد ورعاية الحقوق الواجبة لؤلئك المؤمنين.

وأما عصارة البحث فتتمثل في هذا السؤال:

هل يمكن التفكير بين تولي القائد وبين تولي المؤمنين؟

والجواب هو بالنفي القاطع، فلا يمكن لشخص أن يدعى التولي للقائد وهو في الحال عينه يتبرأ من المؤمنين، وقد ورد أن عمار بن أبي الأحوص قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ عَنْنَا قَوْمًا يَتَولَّونَ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ عليهم السلام وَيَفْضِلُونَهُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَلَيْسَ يَصْفُونَ مَا نَصَفَ مِنْ فَضْلِكُمْ، أَنْتُولَاهُمْ؟» فقال لي: نعم في الجملة، أليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ولرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ما ليس عندنا، وعندنا ما ليس عندكم، وعندكم ما ليس عند غيركم إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر، والصدق، واليقين، والرضا، والوفاء، والعلم، والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، ثم قسم لبعض الناس السهم، ولبعضهم السهمين، ولبعض الثلاثة الأسهم ولبعض الأربعه الأسهم، ولبعض الخمسة الأسهم، ولبعض الستة الأسهم، ولبعض السبعة الأسهم، فلا تحملوا على صاحب السهم سهرين، ولا على صاحب السهرين ثلاثة أسهم، ولا على صاحب الثلاثة أربعة أسهم، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم فتقلوهم وتتفروهم، ولكن ترقوا بهم وسهلوه لهم الدخل»^(٣).

وفي هذا السياق يأتي تحريم البراءة من المؤمنين، وتأتي حرمة لعنهم، فإنّ من حقوق الإيان عدم البراءة منهم وقد انتسبوا إلى الطاهرين وتولوه وأخذوا

عنهم، وكانوا خلقاً من فاضل طينتهم، يحزنهم ما يحزنهم ويسوؤهم ما يسوؤهم ويفرحون لفرحمهم، فهذا التولي للمؤمنين نابع من التولي للقيادة الشرعية المتمثلة في الله جل وعلا، ثم في الرسول ﷺ ثم في الإمام المعصوم عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّأُ مِنِ الْمُفَرِّأَةِ وهو ما يفهم من الآيات والروايات، ومن بعدهم يأتي دور الفقيه العادل الذي جعله المعصومون عَلَيْهِ حاكماً وقاضياً وولياً على المؤمنين لما يتتوفر عليه من خصوصيات العلم والعدالة والتقوى، فهو أقرب الناس إلى أخلاق المعصوم، وهو أشبه الناس بأخلاق الرسل لذلك كان وارثاً لهم، والحديث طبعاً فيما يتتوفر حقيقة على هذه الخصائص دون من يدعىها.

وهنا نخلص إلى النتيجة التالية:

أولاً: بعد أن عرفنا أنّ الولاية تبني على مجموعة من الأغراض والمصالح التي شرعت الولاية بسببها، فمتي ما توفرت تلك المصالح فلا بدّ أن توجد الولاية، ولا بدّ أن يطرح مفهوم الانقياد والتولي.

ثانياً: علمنا سابقاً أن تلك المصالح المتمثلة في العلم والتقوى والورع والإيمان والتصديق والعفة هي مصالح متفاوتة، فقد توجد كاملة لدى بعضهم، وقد يتتوفر الآخرون على بعضها، وقد يوجد من يملكونها ويزيد عليها غيرها لأن يكون متوفراً على العصمة أيضاً، لذلك صارت درجات الولاية والتولي مختلفة؛ فمن يتتوفر على العصمة وبقية المصالح فهو الإمام الذي يجب طاعته طاعة مطلقة. ومن يتتوفر على أهم تلك المصالح والملائكة ولكنّه يفتقد العصمة فهو قائد وولي لكنّه ليس في مستوى الإمام المعصوم.

وأما من يتتوفر على القدر المجزي من هذه المصالح فهو بركتها يدخل في حريم الإيمان، وتحجب له حقوق المؤمن على المؤمن، فتحجب له الولاية بدرجة أقل من تلك الدرجات، ولتفسّر الولاية حينها بالنصرة.

التولي الأحادي الجانب

بعد كل ما تقدم هل يصح لِلإنسان أن يتولى المؤمنين ولا يتولى القيادة؟ والجواب بوضوح: أن ذلك غير ممكن، كما لا يمكن أيضاً تولي القيادة وقطع الولاية بين الإنسان وبين إخوته المؤمنين.

ولترسيخ الفكرة نوضح محل الاستدلال فنقول: الولاية صارت واجبة بدرجتها العالية (تولي المعصوم واتباعه بشكل مطلق) لوجود صالح يتوفّر عليها المعصوم عليهما السلام، وكذلك صار التولي والانقياد للقيادة الشرعية واجباً بسبب وجود تلك صالح لكن بدرجة أقلّ، وأقلّ تلك الدرجات هي ما كان في تولي المؤمنين لبعضهم البعض، فالنتيجة أن التولي والانقياد إنما هو انقياد واتباع لتلك الموصفات ولتلك صالح، وليس التولي لهذا القائد لكونه فلان بن فلان، وإنما لكونه مؤمناً عالماً ورعاً، فإنما حينما أتولى القائد فإنما أتولى فيه العلم والورع والتقوى والحكمة، وحينما أتولى المؤمنين فإنما أتوا لهم لوجود بعض هذه المبررات والملالات ككونهم بدرجة من العلم والتصديق والورع، وإن لم تصل إلى مستوى تلك صالح والملالات لدى القائد، وعلى هذا فلا يصح أن يدعى مدعاً أنه يتولى القيادة وهو يقطع الولاية بينه وبين المؤمنين، فترك التولي للمؤمنين هو إعراض عن موجبات التولي، وهو إعراض عن الورع والعفة والعلم الموجود لديهم، فالمتحصل أن هذا السلوك يستدعي الأخذ بهذه الخصوصيات والمصالح والواجبات وتركها في الوقت نفسه، وهذا ما لا يصح بحال من الأحوال، فمردّه إلى ادعاء اجتماع النقيضين: الأخذ والرد.

وبهذا ندرك أنه لا يصح التقصير في حقوق الإيمان وأداء واجبات الأخوة، فضلاً عن القطيعة والتبري.

الموقف من المؤمنين لا يتحمل الحياد، ولا يتحمل النأي بالنفس، فهي حقوق

مفروضة من قبل الله، وأيّ إنسان يدّعى التولّي للقيادة ولكنه لا يولي شأن المؤمنين الأهمية المفترضة في الشريعة فإنما أن يكون كاذباً، وإنما أن يكون جاهلاً بحقيقة التولّي والانقياد.

ومن المناسب جداً أن يطلع الإنسان المؤمن على روايات أهل البيت عليه السلام وما ورد في شأن المؤمنين وحقوقهم، لا شك أننا سنصاب بالدهشة عند قراءتها؛ فقد بالغت أشدّ المبالغة في رعاية حقوق المؤمنين وتولّيهم، وهذا يكشف عن طبيعة هذه الشريعة الغراء الكفيلة بصياغة مجتمع مترابط متراحم يشكل صفاً واحداً، صفاً عصياً على الاختراق والتمزق، محصنًا عن كل حاولات السياسة الرامية إلى طحن الجميع، وهو كذلك بطبيعته الأصلية بعيداً عن أي حسابات سياسية أو مكاسب آنية.

الهوامش:

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملی ج ٦١ ص ١٦٤.



التظليل

اشيخ محمد علي العربي

يحرم التظليل على المحرم من الرجال
دلّ على حرمة التظليل على الرجال وجوازه للنساء
والصبيان جملة روایات، منها:

صحیحه محمد بن مسلم عن أحدھما علیه السلام قال: «سألته
عن المحرم يركب القبة؟ فقال: لا. قلت: فالمرأة المحرمة؟ قال:
نعم».»

وصحیحه حریز عن أبي عبد الله علیه السلام قال: «لا بأس
بالقبة على النساء والصبيان وهم محرومون».»

وصحیحه جمیل بن دراج عن أبي عبد الله علیه السلام قال: «لا بأس بالظلل للنساء،

وقد رَّخص فيه للرجال». وحمل على الضرورة.

لا يجوز إلا بضرورة

ودل على عدم جوازه إلا للضرورة جملة روایات، منها:

ما رواه الصدوق في الصحيح عن عبد الله بن المغيرة قال: «قلت لأبي الحسن الأول عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَوَّلُ: أظلل وأنا محرم؟ قال: لا. قلت: فأظلل وأكفر؟ قال: لا. قلت: فإن مرضت؟ قال: ظلل وكفر. ثم قال: أما علمت أنَّ رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ما من حاج يضحي ملييا حتى تغيب الشمس إلا غابت ذنبه معها».

وما رواه الشيخ في الصحيح عن الحلبي قال: «سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ عن المحرم يركب في القُبَّةِ؟ فقال: ما يعجبني ذلك إلا أن يكون مريضاً».

وفي الصحيح عن إسماعيل بن عبد الخالق قال: «سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ: هل يستتر المحرم من الشمس؟ فقال: لا، إلا أن يكون شيخاً كبيراً أو قال: ذا علة».

وفي الصحيح عن سعد بن سعد الأشعري عن أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «سألته عن المحرم، يظلل على نفسه؟ فقال: أمن علة؟ فقلت: يؤذيه حر الشمس وهو محرم. فقال: هي علة، يظلل ويفدّى».

وما رواه في الكافي والتهذيب عن محمد بن منصور عن أبي الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «سألته عن الظلال للمحرم. فقال: لا يظلل إلا من علة أو مرض».

وما رواه في الكافي عن عثمان قال: «قلت لأبي الحسن الأول عَلَيْهِ الْكَلَمُ الأول: أنَّ علي بن شهاب يشكو رأسه، والبرد شديد، ويريد أن يحرم؟ فقال: إن كان كما زعم فليظلل. وأما أنت فاضح من أحρمت له».

وما رواه الصدوق في الصحيح عن سعيد الأعرج: «أنَّه سأله أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ عن المحرم، يستتر من الشمس بعود أو بيده؟ فقال: لا، إلا من علة».

والحكم فيه واضح عند الشيعة زاد الله عزّهم.

وأمّا ما تقدم -في ثاني الأحاديث- مما رواه الشيخ في الصحيح عن الحلي
قال: «سألت أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَى عن المحرم، يركب في القُبَّة؟ فقال: ما يعجبني ذلك إلا
أن يكون مريضاً».

فلا يمكن التمسك به؛ لحمل النهي على الكراهة؛ لأنّ (ما يعجبني) وإن
انصرف فيها الحكم لعدم الإلزام، إلا أنه بعية النواهي الكثيرة ينقطع هذا
الانصراف ويتعمّن إليه ظهور آخر، وليس لدينا قاعدة لفظية أو شرعية تنضبط
دونها هذه التعبيرات والأساليب حتى تكون سارية في دلالات وظهورات الألفاظ.
وما عن جميل بن دراج في الصحيح عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُونَى قال: «لا بأس
بالظلال للنساء، وقد رُخص فيه للرجال».

فإنه ظاهر في الترخيص مطلقاً، ولم أجده روایة مشابهة لرواية جمیل فيها تتمة
للخبر حيث يحتمل نقصانه، وهو محتمل جداً، ويحتمل التحريف وأن الصحيح (ولم
يرخص فيه للرجال) ليقابل عدم البأس بالظلال للنساء؛ ولا يكاد المعنى يستقيم
إلا بهذا، ويمكن تأييد ما ذكرنا بوقوع الاختلاف في بعض ما رواه الشيخ من
نسخته لبعض الكتاب في مواضع أخرى، منها ما رواه في التهذيب بطريقه: «عن
سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَمْدَ عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَاجٍ عَنْ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْكَلَمُونَى فِي الرَّجُلِ يَخْرُجُ إِلَى جُدَّةٍ فِي الْحَاجَةِ، قَالَ: يَدْخُلُ مَكَّةَ بِغَيْرِ
إِحْرَامٍ»^(١)، لكنه رواه في الاستبصار هكذا: «يَخْرُجُ إِلَى نَجْدٍ فِي الْحَاجَةِ»، ولم
نتتحقق من مخطوطات التهذيب والاستبصار، فلعل التصحيح وقع من نسّاخها لا
من الشيخ، وأمّا حمله على التقيّة وهو محتمل -مع اضطراب متنه وما ذكرناه-
فبعيد لا يصار إليه في عرضاحتمالات الآخر، مع أنّ التقيّة في مثل النظليل لم
تعهد، بل قد وقع فيها الجدال والمناظرة، وعلى أيّ حال فإن صحة هذا الخبر هكذا



فلا يعارض بالكثرة المروية وبنصٌ لا لبس فيه في الحرمة.

وأما ما رواه الشيخ بسنده عن موسى بن القاسم عن علي بن جعفر في الصحيح قال: «سألت أخي عليه السلام: أظلل وأنا حرم؟ فقال: نعم، عليك الكفارة. قال: فرأيت علياً إذا قدم مكة ينحر بدنة لكفارة الظل».

فلا تدل على الاختيار في التظليل ولا تعارض السابق؛ لما تقدم من مبينات في الأخبار الناهية نهياً تحريماً، خاصة ما رواه الصدوق وغيره: «عن عبد الله بن المُغيرة، قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: أظلل وأنا مُحْرِم، قال: لا، قلت: فأَظَلَّلُ وَأَكْفَرُ، قال: لا، قلت: فإنْ مَرِضْتُ، قال: ظَلَّلْ وَكَفَرْ». أَظَلَّلْ وَكَفَرْ

ولما ذكرنا غير مرة من اضطراب حاصل في متون روایات موسى بن القاسم، ولإجمالها وعدم جواز التمسك بإطلاقها والحال هذه، فالصحيح حملها على الاضطرار، لعلمية الحكم من التصوّص والإجمال هنا.

وعليه، فالظليل من الحرمات على الحرم، وما يسوغ ارتکابه للنساء والصغر، وكل من اضطر و كان عدمه حرجاً عليه، سواء كان الاتقاء من الشمس أو البرد أو المطر وشبیهاتها من الأذار.

وجوب الفدية عن التظليل

ولو اضطر للتظليل فعليه الفداء، دم؛ لجملة من الأخبار، منها:

صحيحة محمد بن إسماعيل بن بزيع قال: «سأله رجل عن الظلال للحرم من أذى مطر أو شمس، وأنا أسمع، فأمره أن يُفْدِي شاة ويذبحها بمنى، وقال: نحن إذا أردنا ذلك ظللنا وفدينا».

وصحيحة إبراهيم بن أبي محمود قال: «قلت للرسول عليه السلام: الحرم يظلل على محمله ويُفْدِي إذا كانت الشمس والمطر يضر به؟ قال: نعم. قلت: كم الفداء؟ قال: شاة».

وما رواه الشيخ في الصحيح عن محمد بن الحسن الصفار عن علي بن محمد قال: «كتبت إليه: المحرم هل يظلل على نفسه إذا آذته الشمس أو المطر، أو كان مريضاً، أم لا؟ فإن ظلل هل يجب عليه الفداء أم لا؟ فكتب: يظلل على نفسه، وبهريق دماً إن شاء الله تعالى».

وفي الصحيح عن محمد بن إسماعيل بن بزيع قال: «سألت أبا الحسن عاشور عن الظل للمحرم من أذى مطر أو شمس. فقال: أرى أن يفديه بشاة يذبحها بمني». وأما ما رواه الكليني والصدوق عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال: «سألته عن المرأة يضرب عليها الظلال وهي محرمة؟ قال: نعم. قلت: فالرجل يضرب عليه الظلال وهو محرم؟ قال: نعم، إذا كانت به شقيقة، ويتصدق بعده لكل يوم».

وفي نوادر الأشعري -الذي قال فيه الحر -في آخر نسخته منه-: (وبالجملة القرائن على اعتباره كثيرة، وليس فيه ما ينكر ولا ما يخالف الأحاديث المروية في الكتب الأربع ونحوها) -المطبوع، ولا بأس به: «عَنْ أَبِي بَصِيرِ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنِ الْمَرْأَةِ عَنِ الْمَرْأَةِ» وساقه بعينه.

فمخالف لما هو معلوم، غير مشهور، ولا يقاوم الأخبار في كون الفداء شاة أو دماً، مع عدم إمكان الجمع.

والذي أرجحه فيه أن خلطًا وقع في الحديث مع ما بعده من عنوان في كتاب النوادر أو أحد كتب حسين بن سعيد التي كانت لدى الكليني وجرى عليها النسخ -وهذا ليس بعزيز الوجود والمحدث - وأن آخر معنى الحديث قوله عاشور: (نعم)، فوصل بما بعده، كان حديثاً جديداً مستأنفاً أو عنواناً جديداً، أو أنه خلط من الرواية نفسه، فلاحظ من الكتاب الرواية في الباب الرابع عشر والخامس عشر بعده في كفارة المحرم يحك رأسه وجسده.

تكرار الكفارة ببعد السبب في النسخ الواحد

ولو تكررت العلة - كأن لم تزل - في النسخ الواحد لم تتكرر الكفارة؛ فإنه سبب واحد تمثل في التظليل له.

ولو تكررت العلة، كما لو تظلل للبرد، ثم أصيب في رأسه فتظلل للعلة، فالظاهر تكرار الفدية لهما؛ لتعلق الكفارة في الأخبار بالسبب الواحد، ومقتضاه التعدد للمتعدد.

ولو دخل في إحرام جديد لنسك جديد كان له فدية أخرى، ويدل عليه: ما رواه الشيخ عن أبي علي بن راشد قال: «قلت له عَلَيْهِ الْكُفْرُ: جعلت فداك إِنَّه يشتدّ عَلَيْكَ كشف الظلال في الإحرام، لأنّي محروم يشتدّ عَلَيْكَ حر الشمس؟ فقال: ظلل، وأرق دمًا. قلت له: دمًا أو دمين؟ قال: للعمرّة؟ قلت: إِنّا نحرّم بالعمرّة وندخل مكة فنحلّ ونحرّم بالحج. قال: فأرق دمين».

ورواه في الكافي بلفظ آخر عن أبي علي بن راشد قال: «سألته عن حرم ظلل في عمرته. قال: يجب عليه دم. قال: وإن خرج إلى مكة وظلل وجب عليه أيضاً دم لعمرته، ودم لحجته».

عدم التظليل: إضفاء تحت سماء النهار خاصةً أو عدم الستر مطلقاً والتشليل مصدر واضح معروف، وهو انتقاء الشمس بأن يظل المتقى لها تحت الظل الحادث من الساتر، هذا هو الأصل في استعماله، وقد يتسع في معناه الاستعمالي للمانع من كل نور أو ما يتلقى - كالملط - فعلاً أو شائناً، والانصراف إلى الثاني بالقرينة، ولم تجر العادة على إطلاقه على التستر ليلاً؛ لندرته استعمالاً ووقوعاً في القوافل التي تنزل المتعشى^(٢) أو الليل لتبييت في المنازل ثم تركب نهاراً بارزة تحت السماء والشمس، ولقلة الابتلاء به في المشاعر أيام الحج - بل عدم معلومية وقوعه خارجاً - لكون المشاعر منزلاً للحجاج يجوز فيه التظليل لغير

السائل، أو لشمول حكم حرمة التظليل لزمان السير السفري بين المشاعر فهو تحت الدليل العام للحرمة كما هو الظاهر، وهذا لا نجد هذا التردد في الحكم والمعنى في كتب المتقدمين الذين اعتادوا وألفوا القراءن المحيطة بالخطاب.

عرض الأدلة بحسب معنوي التظليل

المعنى الأول للتظليل

وفي المعنى الأول للتظليل أخبار:

١ - منها: ما صح مما رواه الصدوق بسنديه والشيخ بسنديه عن عبد الله بن المغيرة قال: «قلت لأبي الحسن الأول ع: أظلل وأنما محرم؟، قال: لا، قلت: أفالظلل وأكفر؟ قال: لا، قلت: فإن مرضت؟ قال: ظلل وكفر، ثم قال: أما علمت أن رسول الله عليه السلام قال: ما من حاج يضحي مليا حتى تغيب الشمس إلا غابت ذنوبي معها».

٢ - ومنها: عنه عن النخعي عن صفوان عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: «سألت أبي الحسن ع عن الرجل المحرم وكان إذا أصابته الشمس شق عليه وصدع فيستتر منها، فقال: هو أعلم بنفسه إذا علم أنه لا يستطيع أن تصيه الشمس فليستظل منها».

٣ - ومنها: عنه عن ابن جبلة عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن ع قال: «سألته عن المحرم يظلل عليه وهو محرم، قال: لا، إلا مريض أو من به علة والذي لا يطيق الشمس».

٤ - ومنها: الكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الله بن المغيرة قال: «سألت أبي الحسن ع عن الظلل للمحرم فقال: اضح لمن أحمرت له، قلت: إني محرور وإن الحر يشتدد على، فقال: أما علمت أن الشمس تغرب بذنوب المحرمين».

٥ - ومنها: ما رواه الشيخ بسنده عن موسى بن القاسم عن ابن جبالة عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن عَلَيْهِ الْكِتَاب قال: «سَأَلَتُهُ عَنِ الْمُحْرِمِ يُظَلِّلُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُحْرِمٌ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا مَرِيضٌ أَوْ مَنْ بِهِ عِلْمٌ وَالذِّي لَا يُطِيقُ الشَّمْسَ».

وهي من أوضح التعبير في خصوصية التظليل عن الشمس، لكن احتمال ذكر هذا الفرد -الذي لا يطيق الشمس- لكونه أحد الأفراد المقابلة للمريض ومن به علة في غير فرض وجود الشمس وارد، ويمكن دفعه بأن جوابه عَلَيْهِ الْكِتَاب كلي لا يناسبه فرض التخصيص واختلاف الزمان، والسياق دليل عليه، فمن به مرض أو علة والذي لا يطيق الشمس يجتمعان في ظرف واحد له حكم واحد في التظليل، وهو زمان وجود الشمس، كما أن الأصل في التظليل ما ذكرنا، مضافاً إلى ما هو العادة في زمان السفر نهاراً.

٦ - ومنها: ما رواه الكليني والشيخ بسنديهما عن أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عِيسَى عَنْ عَلَيِّ بْنِ أَحْمَدَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُمَرَ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ مَنْصُورٍ عَنْهُ عَلَيْهِ الْكِتَاب قال: «سَأَلَتُهُ عَنِ الظَّلَالِ لِلْمُحْرِمِ، فَقَالَ: لَا يُظَلِّلُ، إِلَّا مِنْ عِلْمٍ أَوْ مَرَضٍ». وأحمد بن محمد، هو ابن عيسى الأشعري عَلَيْهِ الْكِتَاب.

وموسى بن عمر صاحب كتاب، وروى عنه جملة من الثقات صحيح الحديث، لم يغمز فيه.

ومحمد بن منصور، الصيقل حسب الظاهر، لم يترجم، روى عنه موسى بن عمر، ومحمد بن سنان الراوري، وعلي بن الحكم وجماعة.

المعنى الثاني للتظليل

وفي التوسيعة لكل ساتر أو ذي ظل شأنه في غير النهار، يمكن الاستدلال بأخبار:

١ - منها: ما رواه الشيخ بسنده عن موسى بن القاسم عن صفوان عن هشام





بْنُ سَالِمٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمُحْرِمِ يَرْكَبُ فِي الْكَنِيسَةِ، فَقَالَ: لَا، وَهُوَ لِلنِّسَاءِ جَائزٌ».

والكنيسة هو ما يكتنفه ويختلي فيه شبيه القبة على الراحلة، والكون فيه أعم من الأضواء للشمس، يعم الكون في الليل أيضاً.

٢ - ومنها: عَنْهُ عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ حَمَادٍ عَنِ الْحَلَبِيِّ وَابْنِ سِنَانٍ عَنِ ابْنِ مُسْكَانَ عَنِ الْحَلَبِيِّ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمُحْرِمِ يَرْكَبُ فِي الْقُبَّةِ فَقَالَ: مَا يُعْجِبُنِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا».

وجملة (ما يعجبني) مستعملة غالباً في الحرمة كما يقتضيه التتبع، على حد لفظ الكراهة في الأخبار النبوية عن العامة وفي كثير من أخبارنا، لكن احتمال كونها للكراهة وارد دائماً، والقرينة من بقية الأخبار والدلائل هي المعينة للمراد، ومثلها، وأوضح منها صحيحة محمد بن مسلم عن أحد همأة عاشوراء قال: «سَأَلْتُهُ عَنِ الْمُحْرِمِ يَرْكَبُ الْقُبَّةَ؟ فَقَالَ: لَا، قُلْتُ: فَالْمَرْأَةُ الْمُحْرِمَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ».

٣ - ومنها: عَنْهُ مُحَمَّدٌ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ عَنْ عَلَيِّ بْنِ الرَّيَانِ عَنْ قَاسِمِ بْنِ الصَّيْقَلِ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشَدَّ تَشْدِيدًا فِي الظِّلِّ مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَأْمُرُ بِقَلْعِ الْقُبَّةِ وَالْحَاجِبَيْنِ إِذَا أَحْرَمَ».

وهي -معونة غيرها- لا إشكال في دلالتها على حرمة التظليل للحرم، وفيها إشعار بالمنع عن الساتر مطلقاً، ويدفعه ما ذكرنا ونذكره في آخر البحث.

٤ - ومنها: عنه عن عَدَّةِ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى الْكَلَابِيِّ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ إِنَّ عَلَيَّ بْنَ شَهَابٍ - يَشْكُوُ رَأْسَهُ وَالْبَرْدُ شَدِيدٌ وَيُرِيدُ أَنْ يُحْرِمَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ كَمَا زَعَمَ فَلَيَظَلُّ وَأَمَا أَنْتَ فَاضْطُرْ لِمَنْ أَحْرَمْتَ لَهُ».

وهذه الرواية لو لا الأمر فيها بالإضفاء لأمكن الاستدلال بها على المنع عن

التستر مطلقاً بالملازمة، وهي كصحيحة عبد الله بن المغيرة السابقة، إلا أن يقال: إن الإضفاء هو مطلق البروز تحت الشمس، وهو مدفوع بعد ظهوره وعدم عرفية استعماله ولما سيأتي.

٥ - ومنها: ما رواه الشيخ ياسناده عن محمد بن الحسن الصفار عن علي بن محمد قال: «كتبت إليه: المحرم هل يظل على نفسه إذا آذنه الشمس أو المطر أو كان مريضاً أم لا، فإن ظلل هل يجب عليه الفداء أم لا؟ فكتب: يظل على نفسه ويهرق دماً إن شاء الله».

وعلي بن محمد بن شيره القاساني ثقة فقيه وكان لأحمد بن محمد بن عيسى قول فيه.

٦ - وكذا في الفقيه والتهذيب بسنديهما عن محمد بن إسماعيل بن بزيع الله سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنا أسمع: «عن الظل للمحرم في أذى من مطر أو شمس أو قال من علة فامر بفداء شاة يذبحها بمنى، وقال: نحن إذا أردنا ذلك ظللتنا وفدينا».

٧ - وكذا في الكافي والتهذيب عن العدة عن أحمد بن محمد عن إبراهيم بن أبي محمود قال: «قلت للرضا عليه السلام المحرم يظل على محمله ويغدو إذا كانت الشمس والمطر يضران به؟، قال: نعم، قلت: كم الفداء قال: شاة».

وهذه الثلاث الأخيرة ليس فيها ما يعارض السابقة إلا ما يتوهم من زيادة السؤال عن المطر والعلة، ويدفعه ظهورها في كون العلل نهارياً، بقرينة عدم إهمال الشمس فيها، ويؤيد هذه قلة الغرض من السؤال عن غير عوارض النهار؛ فإن القوافل ما كانت تسير إلا نهاراً وتنزل المتعشى عند الغروب فتستظل تحت خيم وبيوتات المنازل على طريق الحاج، وكذا أيام الحج يكون نزولهم في الظلال في عرفة وبقية المشاعر، مع استبعاد أن تكون الأخبار شاملة لهذا الفرض النادر، إذ

إن أكثر الحجاج قادرون على النزول تحت الخيم والستر المضروبة. فمن الواضح أن الطائفة الثانية لا تنافي الأولى لتجعل في قبالتها، بل يفهم منها -بنفسها أو بقرينة الأولى- نفس المفاد، وهو المنع عن التظليل من الشمس والأمر بالإضحاء تحت السماء بما لا يحدث ظلاً، وهذا في النهار خاصة، إذ ليس في هذه الأخبار قرينة على إرادة الليل أو مطلق الستر لينصرف اللفظ لمطلق الساتر، بل بالإضحاء تحت السماء بمعنى البروز، والتعابير بأن حج الرجل في رأسه، وذكر صفة الحاج من تغير لونه بالشمس، وغياب السؤال عن فرض التضليل عن الليل، كله لا يُنتج إلا معنى واحداً فارداً، وهو أن المراد من التضليل هو التستر عن الشمس وسماء النهار خاصة.

وليس في أخبار المنع عن الكون في القبة والكنيسة ظهور أو إطلاق يمنع من التمسك بأخبار الإضحاء والمنع عن التستر عن الشمس وسماء النهار؛ بل ما جعلت القبة إلا للتستر عنها، وأي شيء يضطر المسافر للتستر منه أقوى من الشمس، وقد ذكرنا أن الأصل الاستعمالي في الاستظلال هو التستر عن الشمس، والأخبار فيه كثيرة، ولا أخبار ناصحة على ترك التستر مطلقاً أو على تركه ولو عن غير وقت الإضحاء نهاراً.

وبهذا يتبين الاشكال والبعد في قول السيد الفقيه الخوئي قدس الله روحه الركيّة: "ومن نظر في الروايات يجد بوضوح صحة ما ذكرناه -أي حرمة التظليل مطلقاً نهاراً وليلاً- فلا مجال للمناقشة أصلاً، فإن الروايات والله مطبقة على أن المراد بالتلطيل التستر عن الشمس وغيرها ولا يختص بالشمس، بل صرّح في الروايات بالمنع عن التظليل عن البرد والمطر، باب ٦ من أبواب بقية الكثارات وباب ٦٤ من أبواب ترولك الإحرام وأمّا إطلاق النهي عن الركوب في القبة والكنيسة فللحصول التستر بهما دائمًا ولا أقل من الهواء".^(٣)

وأما ما رواه الكليني عن الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن الحسن بن علي عن أبان عن زرارة قال: «سأله عن المحرم أيتغطى؟ قال: أما من الحر والبر فلا».

فهو أجنبي عن محل الكلام، فإن النهي فيه إما عن تغطية الرأس للرجل، أو عن التظليل بغطاء، أو مطلق الساتر، والكل محتمل، والأول أنساب لحكم التغطية من حكم التظليل والسداد؛ فإنهما مستعملان في الاتقاء بظل شيء.

وأما الاستدلال بها على حرمة التظليل بعونه التغطية عن الحر الذي يكون عن الشمس ظاهراً، فليس في محله؛ إذ هو فضلاً عن عدم استقامته مع الغرض من التغطية بل ومن البر أيضاً، فإن تغطية الرأس عن حرارة الشمس هي التي ينصرف إليها؛ لما هو مشاهد من طريقة لبس العرب والأعراب بل غيرهم من أهل البلاد الحارة.

هل يعم التحرير للسائل المستظل بالمحمل؟

وروى الكليني قدس الله سره في الكافي: عن «عَدَةٍ مِّنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَزِيعٍ، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمُحْرِمِ أَنْ يَمْشِيَ تَحْتَ ظِلِّ الْمَحْمَلِ؟ فَكَتَبَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الظِّلَالِ لِلْمُحْرِمِ مِنْ أَذِي مَطَرٍ أَوْ شَمْسٍ وَأَنَا أَسْمَعُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَفْدِي شَاءَ، وَيَذْبَحَهَا بِمِنْيٍ»^(٤).

وروى الطبرسي في أعلام الورى، قال: «وروى أبو زيد، قال: أخبرنا عبد الحميد قال: سأله محمد بن الحسن أبا الحسن موسى عليهما السلام بمحضر من الرشيد وهو بمكة، فقال: له هل يجوز للمحرم أن يظلل محمله؟، فقال: لا يجوز له ذلك مع الاختيار، فقال محمد بن الحسن: أفيجوز أن يمشي تحت الظلال مختاراً، قال: نعم، فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك، فقال له أبو الحسن عليهما السلام: أتعجب من سنة

رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسْتَهْزِئُ بِهَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَشَفَ ظِلَالَهُ فِي إِحْرَامِهِ وَمَشَى تَحْتَ الظِّلَالِ وَهُوَ مُحْرِمٌ، إِنَّ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدَ لَا تُقَاسُ، فَمَنْ قَاسَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَدْ ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَسَكَتَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَلَمْ يُحِرِّ جَوَابًا»^(٥).
وهو متفرع عن الحكم الأولي في وجوب الإحسان تحت سماء النهار، فهذه تطبيقات ومصاديق لتلك.

فلا يجوز تعمد رفع الساتر للاستظلال، ويجوز المشي في ظل لم يجدهه لهذا الغرض، كما يجوز النزول تحت الساتر، من غير فرق بين أن يكون الساتر غير مستقل عن الحرم كمتعة مرتفع يحمله فيحدث الظل عليه، أو مستقل عنه كظل الحمل.

وعليه فحكم عدم جواز الاستظلال يختص به السائر المتعمد لإحداث الظل، لا من كان تحت ظل سحابة أو محمل أو سيارة أو مشي في ظل غيره من الناس، سواء كان هذا السائر راكباً أو ماشياً.

وبه لا يخصص إطلاق جملة من الأخبار المقدمة الدالة على تحريم التظليل مطلقاً^(٦).

وأما ما ذكره البعض من قيد ألا يعلو رأسه ساتراً، لما رواه محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأبي وشكرا إليه حر الشمس وهو محرم وهو يتاذى به، فقال: ترى أن أستتر بطرف ثوبي، فقال: لا بأس بذلك ما لم يصبك رأسك»، فهو مخصوص بحكم تغطية الرأس لا الاستظلال.

الهؤامش:

(١) التهذيب ٥: ١٦٦ ح .٧٨

(٢) وهو الموضع الذي تنزل فيه القوافل عند الغروب فتبات فيه.

(٣) المعتمد في شرح المنسك :٤: ٢٤٢.

(٤) الكافي (ط. الحديث) :٨: ٤٢٠ ح.٥

(٥) إعلام الورى: ٣٠٩.

(٦) الحدائق: ١٥: ٤٨٤.

لَا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الْأَذْيَارِ

الشيخ محمد علي العريبي

٢٠٥



الشظيل



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

● Advisory Board :

Sh. Abdulla Ali Al daqaq
Sh. Ali Fadhel Alsadadi
Sh. Ghazi Abdulhassan

● General Supervisor :

Sh. Abdulraoof Hassan Alrabia

● Editor in Chief:

Sh.mohammed ali khatam

● Editor in Director:

Sh.husain fuad Almarzooq

● Chairman of the Editorial Board:

Sh.Aziz Hassan Salman

● Editorial Board:

Sh.husain ali abu rwais

Sh.m.bager khalil Alshaikh



A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom

